

تجليد كتب
صالح الدقر

الكتاب ١٩٢
الكتاب ١٩٢
الكتاب ١٩٢

379.2:A16tA C.2

الأبراشي ، محمد عطية .

التربية والحياة .

JAN 4 64-3177

379.2

A16tA

C.2

~~JAN 8 1967~~

~~28 MAR 1985~~

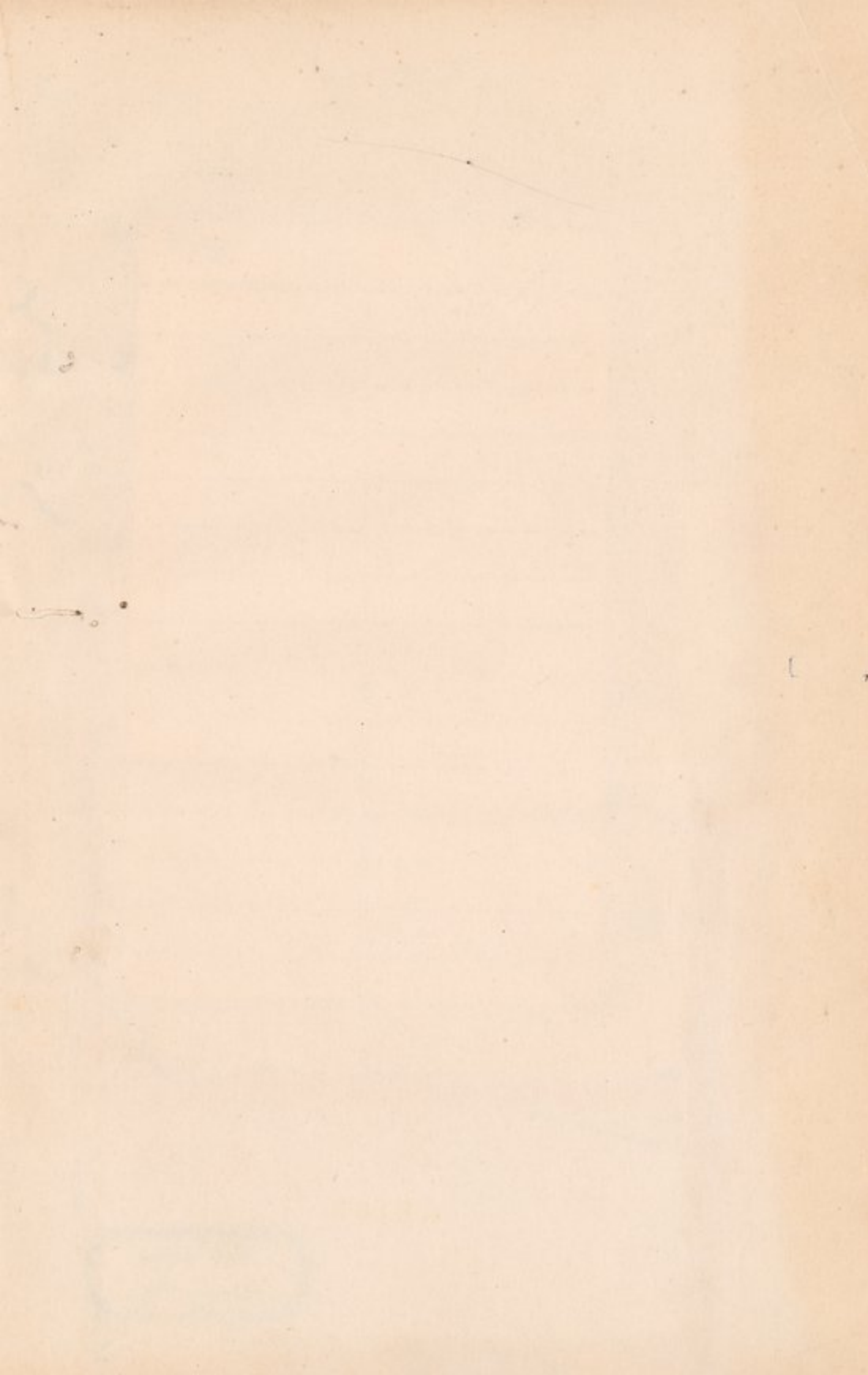
~~18 JAN 67~~

~~JAFET LIB.~~

~~13 DEC 1992~~

~~9 Feb 67~~

~~JAFET LIB.~~
~~13 DEC 1992~~



دار إحياء الكتب العربية

التربية والحياة

أو تعميم التعليم

تأليف

محمد عطيّة الأبراشي

مدرس جامعي أكسفورد ولندن

والأستاذ بدار العلوم

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى ١٣٦٢ هـ - ١٩٤٣ م

68109

Orig. in. Kuran
Cat. Ser. 1948

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله . وبعد فقد دعاني إلى تأليف هذا الكتاب ثقتي بالعلم وأثره في الإصلاح ، وإيماني بأن مصر إن كانت في حاجة فهي في حاجة إلى تعميم التعليم ، ونشره بين جميع الطبقات ؛ فقيرها وغنيها ، وضيعها ورفيعها ؛ لنهض في كل ناحية من النواحي : العلمية والعملية ، والجسمية والعقلية ، والخلقية والاجتماعية .

فإذا تقدمت اليوم إلى قراء اللغة العربية بهذا الكتاب : « التربية والحياة » فذلك لأنني أعتقد أن التربية هي الحياة ، ولا حياة بغير تربية ؛ فالتربية ترقى الأمم وتحيا . وهي ضرورية للحياة كالماء والغذاء والهواء . وبالعلم وحسن الخلق نستطيع أن نستعيد مجد قدماء المصريين ، وحضارتهم الخالدة ، وعظمتهم التالدة ، ونتبوأ مركزنا اللائق بنا تحت الشمس . فالتعليم حق من حقوق الإنسان ؛ كالحياة ، والحرية ، والملكية ؛ بل هو الحق الأول الذي توجهه الإنسانية ، وتستدعيه المدنية .

وقد راعيت أن يكون الأسلوب سهلا واضحا ، لا تكلف فيه ولا التواء ، ولا غموض ولا خفاء ؛ كي لا يجد القارئ صعوبة في الفهم ، أو كدًا للذهن .

وتحقيقا للفائدة قد اخترت لزعم المربين ، عميد الأدب العربي بمصر والشرق (الدكتور طه حسين بك) المستشار الفني لوزارة المعارف بحثا قويا عن التعاليم الأولى وأهميتها ، نشره من قبل في كتابه الثمين : « مستقبل الثقافة بمصر » . وهو يدل

على وطنية صادقة ، وقوة في الحججة ، وجمال في الأسلوب ، وإخلاص في الدفاع عن تعليم الفقراء . كما اخترت مجموعة من الآراء السديدة للأستاذ المربي الكبير إسماعيل محمود القباني عميد معهد التربية للمعلمين ، من تقرير له عن التعليم الأولي سنة ١٩٤٠ . ومنه تلمس ملاحظة قوية ، وتفكيراً منظماً ، وغيره كبيرة ، وحباً للإصلاح .

وإني أرجو أن يأتي اليوم الذي تبلغ فيه نسبة التعليم بمصر مائة في المائة ، ونعلم النشء تعليماً حقاً ، حتى نصل إلى ما نشده من المثل الأعلى في « التربية والحياة » ، ونعيد ماضينا المجيد ، وننهض بمسئلتنا السعيد ، ونرى مصر الحديثة قطعة من أوروبة ؛ فنحقق رغبة محمد علي الكبير ، وإسماعيل العظيم ، وفؤاد المصلح ، في عهد صاحب الجلالة الملك الصالح (فاروق الأول) حفظه الله .

فإذا كان لتلك الرسالة أثر في إصلاح التعليم العام ، ونشر العلم بين أبناء الشعب جميعاً فهذا كل ما آمله وأرجوه . وإن كانت الأخرى فقد أدت بعض الواجب لمصر العزيزة . وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت ، وإليه أنيب .

محمد عطية البراشي

القاهرة في { ٢٧ من ربيع الآخر سنة ١٣٦٢ هـ .
٢ من مايو سنة ١٩٤٣ م .

نحن وتعميم التعليم

الغرض من التعليم الشعبي

لا أبالغ إذا قلت إن الغرض من التعليم الشعبي تهذيب الخلق ، وتربية الروح والعقل والجسم ، مع المحافظة على الاستقلال الشخصي لكل فرد من الأفراد . ولا أبالغ إذا ذكرت أنه لا يكفي أن يقاس النجاح في التعليم بمقدار ما يعرفه التلميذ من المواد المدرسية ؛ بل يجب أن يقاس أيضا بما يستطيع التلميذ أن يفعله ، وبمقدار استعداده للعمل . فعلى هذه الأسس الثلاثة وهي : العلم ، والقدرة على العمل ،

والاستعداد للعمل ينبغي أن يقاس النجاح في التعليم . فإذا ترك الطالب المدرسة وكان عالما ، قادرا على العمل ، مستعدا لأن يعمل فلا خوف عليه في هذه الحياة . يتبدئ الحياة من السلم الأول ، ويسير بالتدرج حتى يصل إلى ذروة العلا ، ويعيش في عالم الحقيقة لا عالم الخيال ، ولا يضيره أن يظهر صغيرا في عمله في بدء الأمر ؛ بل يعمل ويثابر ، ويخطئ ويصيب ، ويجتهد حتى يصل إلى السكال أو ما يقرب منه .

لا أبالغ إذا قلت يجب أن يؤسس روح التعليم على دراسة الطفل والتفكير فيه ، وفي شخصيته ومستواه ، وتقديمه على غيره ؛ بأن نضحى بكل شيء في سبيل النهوض به . فالطفل يجب أن يكون مركزا للتعليم ، وأن يكون النقطة الهامة التي نعتني بها ، كما يجب أن نضحى بكل شيء في سبيله .

لقد عنى الإسبرطيون قديما بالقوة الجسمية والتربية العسكرية . واهتم الأثينيون

من اليونان القدماء بالفلسفة، وتربية الذوق، وحب الجمال. وأولع الرومان في غابر الأزمان بالخطابة والقوة الكلامية، ويعنى الأمريكيون اليوم بالتربية التعاونية، والإنكليز بتربية الشخصية القوية، أما نحن المصريون والشرقيين فيجب أن نعد الطفل للحياة؛ ليقوم بواجبات الحياة. ولكي نعدده للحياة يجب أن نعنى بتربيته من كل الوجوه؛ جسميا وعقليا ووجدانيا وخلقيا واجتماعيا؛ حتى يكون رجلا مهذبا عاملا، يستطيع أن يتغلب على مصاعب الحياة، ويخدم نفسه وبلاده.

الغرض من مدرسة الشعب :

رأى أحد الإنكليز ورأى فلاسفة اليونان من قبل : أن العقل السليم في الجسم السليم. ولكننا اليوم نريد أن نضيف إلى العقل السليم والجسم السليم الخلق القويم، والشعور بالواجب. فمدرسة الشعب أو المدرسة الأولية والابتدائية يجب ألا تفكر في تعليم المواد فحسب؛ بل تفكر في تربية العقل والجسم والخلق والوجدان والمزاج والذوق، وتهذيب الإرادة، وتقوية الملاحظة لدى كل فرد، وتتيح له الفرصة في أن يستفيد من قوانين الطبيعة، ويقدر ما فيها من فن أو جمال، وتفهمه الحياة كما هي، وتشعره بواجبه نحو غيره، وواجبه نحو الله ونفسه وأمته، وتعدده للحياة الكاملة.

فالمدرسة أثر كبير في تكوين الطفل لا يقل عن أثر المنزل والأصدقاء وتجارب الحياة. ويجب أن تشعر المدرسة بالواجب الملقى على عاتقها نحو التعليم، ونحو تحسين أحوالنا الاجتماعية والصحية والخلقية، وتقوم به خير قيام. وإن المدرس يستطيع بماله من شخصية ونفوذ أن يثبت في نفوس تلاميذه أحسن العادات؛ من الجد والمثابرة على العمل، والشعور بالواجب، وضبط النفس، وإجلال كل نبيل، والعمل للوصول إلى الحقيقة، وأن يربيهم ويعددهم للحياة الحقة.

ولكى يثمر التعليم المدرسى الثمرة المرجوة يجب أن تعنى المدرسة بالتعليم العملى
عنايتها بالتعليم النظرى ؛ فالغرض الحقيقى من المدرسة تهذيب الأخلاق وتقويتها ،
وإعداد رجال مخلصين عمليين ، يثقون بأنفسهم ، ويشعرون بما يجب عليهم لغيرهم ،
ويقومون بواجبهم فى الحياة ، ولا يفرون من تحمل تبعه أى عمل يكلفون
القيام به .

الغرض من التعليم الإلزامى :

ما ذا نقصد بالتعليم الإلزامى ؟ لا نبالغ إذا قلنا إنه التعليم الذى يجب أن يعم
الشعب ، ويبنى الطفل من ورائه فى المستقبل وسيلة لكسب عيشه ، وتحسين حاله
ومستواه الصحى والاجتماعى ، فيعرف على الأقل شيئاً عن الحياة ، وعن العالم ، وعن
مصر وما يتعلق بها من النواحى الجغرافية والتاريخية والزراعية والصناعية والقومية ،
والشرق وما يتصل به .

ولكن ما التعليم الذى به يتمكن المتعلم من كسب عيشه بعد ترك المدرسة ؟
لا جواب لذلك على ما نعتقد إلا التعليم الابتدائى ثم التكميلى . ونقصد بالتكميلى
التعليم الزراعى أو الصناعى أو التجارى ؛ وذلك بإنشاء مدارس تكميلية متوسطة لتعليم
الصناعات المختلفة الملائمة للحياة المصرية ، ليالحق بها من يترك المدرسة الإلزامية أو
الأولية ، ممن لا يريد الاحتراف بحرفة والده .

فى إنجلترا مثلاً نجد التعليم الأولى هو التعليم الابتدائى من غير ما فرق ؛ فالمدارس
الأولية الآن هى مدارس ابتدائية ، يجوز أن يلحق بعدها التلميذ بالمدارس الثانوية .
فلم لا تحول مدارسنا الأولية فى مصر إلى مدارس ابتدائية ، ونأخذ الأذكىاء منها

لنعلّمهم التعليم الثانوى ثم الجامعى إذا نجحوا فى امتحانات خاصة تعقد للموهوبين من أبناء الفقراء ؟ وإننا نشعر بأن هذا يتطلب كثيرا من المال .

إننا لا نقصد من تعميم التعليم أن يتمكن كل مصرى من كتابة اسمه ؛ فهو ليس فى حاجة إلى كتابة ذلك الاسم ، ولكنه فى حاجة إلى العلم والتهديب والنور . وإن العلم لا يمكن أن يكتسب بمعرفة مبادئ القراءة والكتابة والحساب والدين ؛ فهذه المعرفة الأولية لا تزال فى نظرنا الأمية فى مصر . إننا نريد من تعليمه أن يكون إنسانا يقدر قيمة الوقت ، ومعنى العمل ، وأداء الواجب ، وأن نكون منه عضوا نافعا لنفسه وأُمته التى أنفقت عليه . فهؤلاء الأطفال المساكين أبناء الأسر الفقيرة هم من أبناء الإنسانية ، وفى حاجة إلى من يدافع عنهم ، ويطالب بحقوقهم ، ويعمل لصالحهم . فقد تكون منهم نفوس طاهرة ، وعقول ذكية ، ولكنها مهملة لا تجد من يصلحها ، ويخرج ثمارها ، ويظهر ماخفى فيها من نبوغ وعبقرية ، أو حكمة ومهارة . وهل نستطيع أن نخرج تلك الثمار بمجرد معرفة القراءة والكتابة والحساب ؟ قد تظهر فى الطفل الذكى علامات الذكاء من الطفولة ، ولكن ما الفائدة من ذكائه إذا أهملناه فى الوقت الذى ظهر فيه الميل للعلم ، وحب التعلم ؟

إننى أعد نفسى جانبا على هذا الطفل الذكى إذا قلت له : إننى علمتك مبادئ القراءة والكتابة والحساب والدين ، وحسبك هذا . فاذهب إلى بيت أبيك . وأبوه مسكين لا يستطيع أن ينفق عليه ليكمل تعليمه .

إننى أعد نفسى قد قضيت على مستقبل هذا الطفل وحياته ، وحرمت مصر ابنا قد يكون من أبنائها البررة ، وقد يكون لها ناصرا ومعينا . حرمته نفسه ، وحرمت مصر ذكاء قد دفن ، وإنسانية قد قبرت ، فعادت الإنسانية إلى عمل ليس لها وليست له ؛ بأن يعود ذلك الولد الذكى ليشغل عشر ساعات أو أكثر فى سبيل دريهمات معدودة فى اليوم .

إننا نريد بتعميم التعليم أن نعلم أبناء الأمة وبناتها ، ونوجه كل فرد إلى العمل الذى يصلح له ويميل إليه ؛ فلانأخذ طفلا ذكياً ليشغل بحمل الأثقال أو قطع الأحجار . إن هؤلاء الأطفال الأذكاء فى المدارس الأولية والإلزامية يجب أن يلتقطوا كما تلتقط الأزهار من الحدائق ، وتتاح لهم الفرصة ليكملوا تعليمهم ؛ لتنتفع الأمة بذكائهم ، ولا يقبر ذكاء مصرى من المصريين لاسبب إلا الفقر . وبذلك الوسيلة لن نحرم أحدا المواهب التى وهبها الله له ، ولن نحرم مصر ذكاء أحد من أبنائها .

إنى أشبه سد الطريق فى سبيل من يرغب فى التعلم من الأطفال فى الوقت الذى يشمر فيه بحب العلم والدراسة برجل أعطى طفلا جائعا قطعة من الخبز أو الحلوى ، فاستلذها الطفل ، فقد يده إليه يستريده من فضله ؛ كى يشبع همته ، فضربه على يده ، وقال له : إنى أعطيتك لقمة ، ويجب أن تكفيك هذه اللقمة ما حييت ، فاذهب إلى حال سبيلك .

لا مانع أن يكون ابن النجار نجارا ، وابن الحداد حدادا ، وابن الفلاح فلاحا ، وابن التاجر تاجرا ، وابن الخباز خبازا إذا لم نره فائق الذكاء . ولكن هب نجارا رزق طفلا ذكياً ، فهل من الواجب أن يرث ذلك الطفل أباه فى حرفته إذا لم يصالح لها ، ولم يكن لديه ميل إليها ؟

قد تقول إننا لا نريد أن نحرم الأسر الفقيرة ما يكسبه الطفل من قرشين فى اليوم فى جنى القطن ، أو ثلاثين قرشا فى الشهر ليكون خادما يجرى وراء سيده ، ولكنى أقول : حرام علينا أن نكلف ذلك الطفل كسب عيشه وهو صغير لم يجاوز العاشرة من العمر ، أو نحرمه العلم فى سبيل قرش كل يوم يستعبد به . إن من القسوة أن نكلف الطفل كسب عيشه قبل أن ينال قسطه من التعليم ، وقبل أن يبلغ السن التى تسمح له بكسب العيش . إن أباه مسئول عنه وهو طفل ، وأمته مسئولة عن تعليمه فى طفولته . فإذا تعلم وكبر أمكنه أن يربح أضعاف ما يربحه لو أهمل تعليمه .

وهنا تكون منفعة أسرته منه كبيرة ، ويستطيع أن يقوم بواجبه نحو أهله ، ولكن تكليفه القيام بذلك الواجب وهو في سن الطفولة ليس من الإنسانية في شيء ، وليس من صالح الأمة أو الأسرة .

إن المشرع أو القانون لا يكلف الإنسان شيئاً في عهد الطفولة ، فلم نكلفه ما ليس في طاقته ؟ إنه في ذلك العهد يحتاج إلى من يعوله ، وليس بمسئول أمام الله ، أو أمام القانون ، أو أمام الإنسانية أن يعول أحداً ؛ فرحلة الطفولة مرحلة العلم والتعلم والدراسة لا كسب العيش .

وإذا كان في مصر آباء فقراء لا يقدرّون فائدة التعليم ، فهناك آباء فقراء يدخرون كل ما يستطيعون من قوتهم ومعيشتهم للقيام بتعليم أبنائهم ، فأمثال هؤلاء الآباء يجب تشجيعهم بقبول أبنائهم في المدارس التي يريدون إلحاق أبنائهم بها . ويجب أن نوجد لأبنائهم أمكنة - ولو تعذرت - ولا نردّهم خائبين ؛ فربما يكونون عطاشى إلى العلم ، يريدون أن يطفئوا ظمأهم ، ويستنيروا بالتعلم . فيجب أن نقبلهم ، ونشجعهم على الاستمرار في الدراسة ، وخاصة إذا كانوا أذكىاء ، ولا نضع أمامهم الصعاب والقيود . وقد أحسنت وزارة المعارف في سنة ١٩٤٣ كل الإحسان ؛ فقد يسرت العلم والتعلم في المراحل المختلفة من التعليم لمن يشاء الدراسة ، ويفكر في المعرفة ، وقبلت في المدارس الابتدائية والثانوية نحو ٢٥ ٪ من أبناء الطبقات الفقيرة بالمجان .

واجبنا نحو تعميم التعليم

يقضى الدستور المصرى بتعميم التعليم فى مصر ، ولكن متى ينتهى من ذلك ؟
كى نقضى على الأمية السائدة ، والجهل المنتشر فى البلاد ؟ لقد مضى على مصر الآن
عشرات السنين وهى ترجو نشر التعليم ، ومع هذا نجد أن نسبة التعليم فى تلك
المدة الطويلة لا تزال أقل مما كنا نتمناه . فنحن سائرون خطوة خطوة لتحقيق تلك
الغاية التى تنشدها الأمة ، وهى أن ينشر التعليم الحق ، وتمحى الأمية من أبعد القرى
فى البلاد المصرية .

إن مصر تمشى الهويها ، وتخطو خطوات متتمة ، فى وقت تسير فيه الممالك
الأخرى بسرعة فى هذا السبيل . ولله در المرحوم شوقي بك حيث أشار إلى هذا
فى قصيدة له عن العلم والتعليم ، فقال :

تلك الكفور وحشوها أمية من عهد خوفو لم تر القنديلا

تجد الذين بنى المسلة جدم لا يحسنون لإبرة تشكيلا

الجهل لا تحيا عليه جماعة كيف الحياة على يدى عزريلا ؟

إن كل وطنى محب لبلاده يبنى أن يراها فى مستوى أرق الأمم فى النواحي
العلمية والخلقية والعقلية والصناعية والتجارية والاقتصادية . ومن المحال أن نصل إلى
ذلك المستوى مادامت المدارس قليلة ، والأمية منتشرة .

إن مصر تنتظر من كل فرد من أبنائها أن يقوم بواجبه نحو تعميم التعليم ، بكل ما أوتى
من رأى أو مال أو تجربة . إن فى تاريخ مصر القديم وحضارتها الخالدة حثاً لنا ، واستنهاضاً
لهمتنا ؛ كى نستعيد مجدها ، ونعيد علمها وحضارتها ، وفنها وصناعاتها ؛ حتى يرفع

كل مصرى غريب عن بلاده - فى أى جهة من أوروبة أو الولايات المتحدة بأمرىكا - رأسه ، ولا يشعر بأنه ينسب إلى أمة شاع فيها الجهل ، وانتشر فيها الظلام ، ظلام الجهل .

إن مصر تبغى تعميم التعليم ، وترغب فى انتشاره . ولتحقيق هذه الرغبة نحتاج إلى الإكثار من المدارس ؛ حتى يتضاعف عدد التلاميذ ، ونقضى على الأمية فى أقصر وقت ممكن ، وننشر التعليم الحق ، والتربية الحقة .

فمن أراد أن يخدم مصر فليعمل لتعميم التعليم بها ، ومن أحب النهوض بمصر فليفكر فى تعليم أبنائها . وإن مصر تنتظر من أبنائها أن ينشلوها من الجهل الذى أحاط بكثيرين منها .

لقد قام العالم الوطنى الغيور والأديب المصلح المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويش حينما كان مراقبا للتعليم الأولى بحركة عظيمة فى سبيل نشر التعليم ؛ فأنشأ كثيرا من مدارس المعلمين والمعلمات ، ليجد العدد الضرورى من المعلمين ، ولكن مع الأسف غلق كثير من هذه المدارس بالتدريج ، ولم يبق منها إلا القليل .

فإذا أردنا تعميم التعليم فلنكثر مدارس المعلمين والمعلمات ، ولنضاعف المدارس الأولية ؛ حتى نقضى على الأمية على الأقل .

إذا قيل : إن ميزانية التعليم لا تكفى لتحمل جميع نفقات التعليم العام فأمامنا التشريع ، ومن السهل وضع ضرائب خاصة بالتعليم ، وتكليف كل مديرية القيام بنفقات تعليم أبنائها وبناتها ، على أن تؤخذ تلك الضرائب من الموظفين ومتوسطى الحال والأغنياء ، لا من صغار الفلاحين . ولكى نتمكن من زيادة ميزانيتنا لنستطيع القيام بمساعدة التعليم العام يمكننا أن نفرض ضرائب كبيرة على الخمر ، ومحال اللهو والرقص ، والمواد السكالية ، ونستطيع أن نقصد فى مصروفاتنا على الأمور التى

يمكن الاستغناء عنها ؛ كنفقات السيارات لسكبار الموظفين التي أنفق عليها ٢٥٠٠٠٠ جنيه في سنة ١٩٤٠ .

ومن الواجب أن تضاعف ميزانية التعليم الإلزامى وتوضع في المقدمة دائماً ؛ كي نستطيع أن ننشئ المدارس الكافية لتعليم أبناء الفقراء بالمجان، ونشر العلم والتعليم . وإذا ظننا أن المدرسين قد يكونون غير أكفاء فلننشئ لهم أقساماً ليلية للمحاضرات العلمية والفنية . وإذا فكرنا في أن الآباء قد يمتنعون عن إرسال أبنائهم إلى المدارس فبالقانون نلزمهم إرسالهم . وبهذه الوسائل يمكننا أن نتغلب على الصعوبات التي تلاقينا في سبيل تعميم التعليم إن كنا نفكر في مصروزيد الخير لها . وإني أرجو أن يأتي اليوم الذي تحول فيه المدارس الإلزامية ومدارس المشروع والمدارس الأولية إلى مدارس ابتدائية يتعلم فيها أبناء الفقراء بالمجان المرحلة الأولى من التعليم . أرجو أن تفكر الأمة في الموارد التي بها يزيد دخلها ؛ كي تقوم بواجبها نحو التعليم وغيره من مشروعات الإصلاح الاجتماعي .

ولو أنشأنا في كل سنة ألف مدرسة نهائية وحولنا كل مدرسة نهائية بالقطر المصري إلى مدرسة ليلية يتعلم فيها السكبار من العمال والفلاحين الذين ينقص عمرهم عن ثلاثين سنة لوجدنا التعليم عامّاً بمصر بعد سنوات قليلة ، وتحققت رغبة الأمة ، وعمم التعليم بين طبقات الشعب ، بحيث ينتشر في أبعد القرى في الوجهين : البحري والقبلي ، ولو في خيام في الهواء الطلق .

التربية والحياة

تُعد التربية اليوم من ضروريات الحياة . ولا نبالغ إذا قلنا : إن التربية هي الحياة ، ولا حياة بغير تربية ؛ فيها ترقى الأمم وتحيا ، وبها تنهض الشعوب وتسمو ، ويرتفع مستواها من الحضيض . فهي ضرورة للحياة كالماء والغذاء والهواء ، وهي خير وسيلة لحياة المجتمع ؛ فكل إنسان يولد فجأة عاجزا عن العمل ، لا لغة له ولا اعتقادات ، ولا أفكار ولا آراء .

إن الإنسان فرد من أفراد المجتمع ، ولكي نحافظ على ذلك المجتمع وننهض به يجب أن نربي كل فرد منه تربية حقة ؛ ليستطيع القيام بواجبه نحو المجتمع الذي ينسب إليه ؛ ويبدل مافي طاقته من مجهود لتحسين مستواه ، والسير به في طريق التقدم المستمر ، بما يكسبه من المعلومات والتجارب ، والمرانة والمهارة في العمل .
وبالتربية يفضج الإنسان بعد أن يولد فجأ ، ويكمل بعد أن كان ناقصا ، ويستطيع العمل بعد أن كان عاجزا ، ويتعلم لغة أو لغات . وكلما كبرت سنه كثرت أفكاره وتجاربه .

وبإهمال التربية بين الأفراد يفقد المجتمع صفة الحياة الحقة الكاملة التي ننشدها .

ليس الحياة بأنفاس نرددها إن الحياة حياة العلم والعمل

ويظهر أثر التربية واضحا إذا وازنت بين أخوين : وجد أحدهما حظه ونصيبه من التربية ، وحُرّمها الآخر ؛ فمع أنهما أخوان من أسرة واحدة ، ويئتمهما المنزلية واحدة ، وجنسيتهما واحدة تجد فرقا كبيرا بين المتعلم والجاهل منهما ، في كل ناحية من النواحي الخلقية والعلمية والعملية والاجتماعية والمادية . انظر إلى الفرق بين ما يستطيع

الرجل المثقف المتمدين في الأمم الحية أن يقوم به من الأعمال ، وما يستطيعه الرجل
الأمي في الأمم المتأخرة تجدي بينهما بونا شاسعا ، وهوة كبيرة في الأخلاق والآداب ،
والعلم والاختراع ، والعمل والصناعة ، والنظام والعادات ، وطريقة التفكير ،
ومستوى المعيشة ، ووسائل الحياة .

ولكى يصل الإنسان إلى حياة سامية في مجتمع حي لا يكفي أن يحصل على
الوسائل الضرورية للحياة من الماء والهواء والغذاء ؛ بل يجب أن ينال قسطا وافرا
من التربية والتهديب ، ويفكر دائما في الطرق التي بها يخدم الأمة التي ينتسب إليها ،
ويقوم بواجبه نحوها .

فبالتربية تنهض الشعوب ، وترقى الأمم ، وتسمو الحياة . وهي ضرورة حياة
المجتمع ، كما أن الغذاء ضروري لحياة الإنسان .

وقد أثبت علماء الاجتماع أن المجتمع يحيا بما ينقله السلف إلى الخلف ، والكبار
إلى الصغار من علوم وفنون ، واختراعات وأفكار ، وأعمال وآمال . وإذا فرضنا
أن الآباء والأجداد قد فنوا ، ولم يتركوا من بعدهم شيئا مما عرفوه لأبنائهم وأحفادهم
فإن المجتمع لا يستطيع السير إلى الأمام ، ولا يحيا حياة الرقي والتقدم .

ومن المؤلم حقاً أن يرى الإنسان مؤرخا مطلعاً ، أو مربيا كبيرا ، أو كاتباً
قديراً ، أو عالماً عبقرياً ، أو قاضياً ذكياً ، أو مهندساً خبيراً ، أو طبيباً ماهراً يقضى
حياته ، ولا يترك وراءه أثراً لوطنه من بعده ؛ به يذكره فيشكره ويقدره . وقد
يكون ذلك من أسباب الركود العلمي ؛ فقد يفارق الطبيب الحياة ، ولا يدع شيئا
من تجاربه الطبية أو الجراحية ، ويفنى المؤرخ ولا يضع لنا بحثاً في الدراسة التاريخية
عن بعض الشؤون القومية . ويودع المربي الحياة ، ولا يخلف لنا نظرية أو تجربة

أو طريقة في التربية والتعليم . وهكذا يفنى الجيل بعد الجيل ، ولا نجد آثاراً حية لمن سبقنا من المحدثين نستضيء بها ونستنير بهديها .

ولو قام كل منا بذكر تجاربه وآرائه في المادة التي قضى فيها حياته لكان لدينا اليوم كنوز ذهبية علمية حديثة في كل ناحية من نواحي الحياة . فإذا لم يُمن السلف بأن يترك للخلف كل ما جناه من ثمرات التجارب والعلوم في الحياة فإن المجتمع يستمر متأخراً ، وقد يقف حيث هو ، أو يسير ببطء في نواحي الرقي .

فما لا ريب فيه أن التربية والتعليم ضروريان للحياة ، وأن المدارس من أكبر الوسائل لنشر التربية والتعليم . فإذا سلمنا بأن التعليم والتعلم ضروريان للإنسان فلا مفر من التسليم بأن المدرسة أكبر عامل من عوامل التربية والتعليم لإعداد النشء للحياة الكاملة .

ومجمل القول أن حياة المجتمع تتطلب تربية كل فرد من أفرادها ليستطيع المحافظة على الحياة بما أوتي من قوة في الجسم ، وسمو في الروح ، ومقدرة في العلم ، وكفاية في العمل ، ومهارة في الصناعة ، بحيث يسير كل فرد نحو غرض خاص ، هو تحسين المستوى الاجتماعي والعلمي والعمل ، والخلق والصحة في البلد الذي يعيش فيه ، وينسب إليه ؛ حتى نصل إلى المثل الأعلى الذي نشده من نشر التربية الحققة بين جميع الطبقات الفقير منها والغني ، والوضيع والرفيع ؛ لنعيد ماضيها ، ونبنى حاضرنا ومستقبلنا على أساس وطيء من العلم والأخلاق ، والتربية للحياة .

تعليم الشعب خير وسيلة لترقيته

قال (رُولَانْد) رئيس مجلس النواب الفرنسى سنة ١٧٦٨ : « يجب أن يعطى كل إنسان فرصة يتعلم فيها التعليم الذى يلائمه » ؛ أى يجب أن تمهد السبل لكل شخص كى يحصل على فرصة ينال فيها القسط الذى يناسبه من التربية والتعليم ، فإن الحقوق الإنسانية تستدعى وتتطلب تعليم أبناء الشعب وبناته ، تعليما ينفعهم فى حياتهم ومعيشتهم ، فى حالهم ومستقبلهم . وقد صدق (آدم سميث ^(١)) فى قوله فى كتابه الثمين « ثروة الشعوب » : « إن شعبا تحكمه حكومة منظمة يجب ألا يُترك فرد من أفرادها بغير تعليم » ؛ فإن التعليم حق من حقوق كل إنسان ، ويجب أن يكون الفقير مساويا للغنى - فى أن يمنح فرصة التعليم التى تمنح الغنى - فى المرحلة الأولى من التعليم على الأقل .

وقد أخطأ (جان چاك ^(٢) روسو) فى قوله فى الكتاب الأول من « إميل » : « ليس الرجل الفقير فى حاجة إلى التعليم » . والحق أن الفقير أشد حاجة إلى التربية من الغنى ؛ فالغنى قد يجد من وسائل التربية المنزلية ما يغنيه عن التربية المدرسية ، ويستطيع أن يعتمد على غناه فى تعليمه وحياته ، ولكن الفقير قد حرم التربية المنزلية

- (١) ولد فى يونيه سنة ١٧٢٣ ، وتوفى فى ١٧ من يوليه سنة ١٧٩٠ م . وله كتاب ثمين فى الاقتصاد هو : « The Wealth of Nations »
- (٢) ولد فى جنيف فى ٢٨ من يونيه سنة ١٧١٢ ، وتوفى فى ٢ من يوليه سنة ١٧٧٨ .

وليس لديه شيء يعتمد عليه ويساعده في كسب العيش في الحياة . لقد حرم التربية المنزلية ، فيجب ألا يحرم التربية المدرسية . لقد حكم عليه بالفقر ، فيجب ألا يحكم عليه أيضا بالجهل . لقد حرم المال فيجب ألا يحرم العلم . وليست هذه بالهفوة الأولى لروسو ؛ فله كثير من الهفوات القولية والفعلية .

فإذا لم يستطع الآباء أن ينفقوا على أبنائهم وبناتهم في سبيل تعليمهم فمن الواجب أن نفتح أمامهم سبيل التربية في المدارس المجانية ، ونجبرهم على اللحاق بها إذا بلغوا الخامسة أو السادسة من العمر ، ونعاقب آباءهم عقابا صارما إذا لم يرسلوا أولادهم إلى تلك المدارس . وإذا لم نستطع أن نوجد المباني الكافية لهم ففي الاستطاعة أن نعلمهم ولو في خيام . قال (روبرت جاك تيرجوت ^(١)) الوزير الفرنسي في تقريره للملك لويس السادس عشر : « إن تعليم الشعب خير وسيلة لترقيته » .

فالتعليم أقوى سبب لإيجاد الفرق بين الإنسان وأخيه الإنسان ، لإيجاد الفرق بين الأخ وأخيه ، والأخت وأختها . وكما أن للوراثة أثرا في الأفراد فللبيئة والتربية أثر لا ينكر . فإذا أردنا رقي الأمة وتقدمها والنهوض بها وتحسين مستوى المجتمع فليس أمامنا سبيل سوى التربية والتعليم ؛ فإن في جهل الأفراد خطرا غير مقصور عليهم ؛ بل يتعداه إلى الأمة والنظام الاجتماعي فيها . ولا ينكر أحد الفرق الكبير والهوة العميقة بين الجاهل والمتعلم ، وإن أوتي الجاهل من الذكاء الفطري ما أوتي .

وإن التعليم - مهما كلف من النفقات - هو الوسيلة الوحيدة لرفع مستوى الأمة ، وتحسين حال الفقراء منها ، وجعلهم أسعد حالا ، وأحسن نظاما ، وأقوى صحة . وإن الطريقة لأن تكون مستريحا هي أن تجعل غيرك مستريحا أيضا . والوسيلة

(١) ولد (Robert Jack Turgot) في باريس في ١٠ من مايو سنة ١٧٢٧ ،

وتوفي في ٨ من مارس سنة ١٧٨١ .

لإراحة غيرك أن تظهر الحب له . وخير سبيل لإظهار الحب الحقيقي له هو أن تعلمه .
إن التربية واجبة لتنمية عقول الفقراء وإسعادهم . وتعميم التعليم هو الأساس
القوى الذى يجب أن يفكر فى تنفيذه كل فرد من الأمة ، وكل من فى قلبه ذرة
من الحب والإخلاص لها .

• يقول (روبرت أُون^(١) ١٧٧١ - ١٨٥٨) الربى الإنكليزى : « إن لأسلاف
الإنسان أثرا كبيرا فى ذكائه وأخلاقه وأفكاره وعاداته » فهو يرى أن التربية
يجب أن تعمل للنهوض بالأخلاق ، وأن الطفل يجب أن يعلم ويحاط بالبيئة الصالحة
والأمور الثقافية الضرورية ؛ كي ينشأ له حياة طيبة ، ومستقبلا سعيدا . فالمجرم مجرم
لأنه وجد فى بيئة ساعدته على الإجرام ، والقاضى قاض لأنه وجد بين قوم ربوه
ليكون قاضيا . وهذا أثر من آثار البيئة والتربية ، فالإنسان يتأثر دائما بالأحوال
التي تحيط به ، وبالأمة التي ينسب إليها .

وليس من الصعب تحويل الأميين إلى متعلمين ، والنهوض بالجهلاء إلى طبقة
العلماء ، فبالمدراس وتعميمها نستطيع أن نقضى على الأمية السائدة فى البلاد فى بضع
سنوات فقط .

يجب أن تكتب تلك الحكمة البالغة التي قالها (فكتور هوجو) : « فى فتح
مدرسة إغلاق سجون » بقلم من النور على باب كل مدرسة ، وفى كل ميدان ، بل فى
كل مكان . نعم إن فى فتح مدرسة إغلاق سجون ؛ فباتخاذ الوسائل الملائمة يمكن تعليم
أى أمة التعليم الذى يجعلها فى سعادة وهناء ؛ فلا ترتكب جرما ، ولا تتعرض لعقاب ،
فالجرم أحيانا وليدة خطأ فى الطرق المختلفة للتربية والتعليم . وقد نشأ هذا الخطأ من
الجهل بمقتضيات الطبيعة الإنسانية . وإن أرق أمة هى التي تتخذ أحسن الطرق فى

التربية . ولا ينكر أحد أن أرق الأمم هي الأمم المتعلمة التي توجب على كل فرد أن يتعلم ، وتهيء له الفرصة التي بها يتعلم التعليم الذي يلائمه ، فيعرف من العادات أحسنها ، ومن الأفكار أسماها ، التعليم الذي يقود الشخص إلى عيشة راضية ، وحياة كاملة ، التعليم الذي يؤدي إلى الكمال ؛ فلا خير في علم لا يؤدي إلى الفضيلة .

ولا عجب إذا قلنا إن في إنجلترا قد يخلو أحد السجون فيها من المجرمين عدة شهور ، أما في مصر فقد ضاقت السجون بالمسجونين ، ولا غرابة ؛ فالتعليم عام منتشر في الأولى ، والأمية منتشرة في الثانية .

ولنستدل على صدق كلمة (فكتور هوجو) من أن للتعليم أثرا كبيرا في الفرد والمجتمع في جميع الشعوب نقول : إن في سنة ١٨٧٧ كان عدد المسجونين في إنجلترا ٢٠٨٠٠ ، ثم أخذ هذا العدد ينقص حتى صار في سنة ١٨٩٤ ١٣٠٠٠ سجين ، وبذلك نقص الثلث . ويجب أن نتذكر أن عدد السكان كان في ازدياد مطرد ، ومع ذلك كان عدد المسجونين في نقص دائم بدلا من أن يزيد بزيادة السكان . وهذا أثر من آثار التعليم . ولو لم ينشر التعليم لارتفعت نسبة السجفاء بنسبة زيادة السكان ، ولكان بالسجون سنة ١٨٩٤ ٢٨٠٠٠ سجين بدلا من ١٣٠٠٠ سجين ، ولكان ما ينفق على الشرطة والسجون ٨٠٠٠٠٠٠ جنيه على الأقل بدلا من ٤٠٠٠٠٠٠ جنيه .

فإنجلترا - وإن كانت أمة محافظة تميل إلى القديم - تجد الإصلاحات فيها مستمرة ، فقد كان فيها التعليم اختياريا ، أما اليوم فهو إجباري ، وهي بلد النشوء والارتقاء ، تكره النظريات ، وتمسك بالأعمال .

كلمات في العلم والتعليم

لسنا في حاجة إلى أن نعدد فوائد العلم والتعليم . لسنا في حاجة لأن نبرهن على وجوب تعميم التعليم . فقد قال تعالى : « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » . وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يشجع التعليم عملا وقولا ؛ فقد كان يطلق سراح أسرى الحروب إذا علموا بعض المسلمين القراءة والكتابة ، وقد سأل الشفاء العدوية أن تقوم بتعليم السيدة حفصة زوجة القراءة والكتابة ، وقال : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » . وقد خرج صلى الله عليه وسلم ذات يوم فرأى مجلسين : أحدهما فيه قوم يدعون الله عز وجل ويرغبون إليه ، وفي الثاني جماعة يعلمون الناس ، فقال : « أما هؤلاء فيسألون الله ، فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم ، وأما هؤلاء فيعلمون الناس ، وإنما بُعِثْتُ معلما . » ثم عدل إليهم وجلس معهم . وبذلك ضرب النبي لنا خير مثل في تشجيع التعليم ، والاعتراف بفضل المعلمين .

وقال عبد الملك بن مروان لبنيه : « يا بني ! تعلموا العلم ؛ فإن كنتم سادة فقمتم ، وإن كنتم وسطا سدتكم ، وإن كنتم سوقة عشتكم . » وقال مُصعب بن الزبير لابنه : « تعلم العلم ، فإن لم يكن لك جمال كان لك جمالا ، وإن لم يكن لك مال كان لك مالا » . فالعلم زينة من لا زينة له ، ومال من لا مال له . وقال الغزالي : « من أصاب علما فاستفاده وأفاده ، كان كالشمس تضيء لنفسها ولغيرها وهي مضيئة » . وقال بعض الحكماء : « اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد » .

وقال (أفلاطون) : « التعليم أفضل شيء يملكه أفضل الرجال » . وقال (مونتيني) :

« الجهل أس الرذائل » . وقال (فُولَر) : « التعليم خير منحة يمكن أن تمنح » .
خفاية الجهل حياة الموت، والإنسان في حاجة إلى العلم ؛ لأن العلم وسيلة الحياة . وقال
(شكسبير) : « العلم هو الجناح الذي نستطيع أن نظير به إلى السماء » . وقال (چيمس
مَاديسون) الأمريكي : « إن حكومة تكسب حب الشعب من غير تعليم مقبول عند
الجمهور لا يكون عملها إلا مقدمة لرواية هزلية أو لمأساة أو مقدمة لسكتيهما » .

وإن الحرب الكبرى قد نبهت الأمم في أمريكا وأوروبا إلى شعور جديد نحو
التعليم ، فلما انتهت الحرب أخذت إنجلترا تفكر في الوسائل التي بها تنهض بالتعليم ؛
فبعد أن كان التعليم إجبارياً إلى الرابعة عشرة من العمر مدّت مدة التعليم إلى سن
الثامنة عشرة ، ورحبت بقانون التعليم سنة ١٩١٨ لرفع مستوى الجيل الجديد في
التربية والتعليم . وقد تحمّلت في سبيل ذلك المشروع عبئاً مالياً ثقيلاً أكثر من العبء
الذي كانت تتحمّله قبل الحرب الكبرى . فوزارة المالية اليوم بإنجلترا تدفع إعانة
للتعليم أكثر من ثلاثة أضعاف ما كانت تدفعه قبل سنة ١٩١٤ واثقة بأن التعليم
أول الواجبات ، وأكبر وسيلة للرقى . ولا غرابة ؛ فالتعليم بإنجلترا أمر يهم الشعب
والحكومة والجهات المحلية ؛ لأن كل فرد يشعر بفائدة التعليم وأثره .

قال الفيلسوف إِرَاسْمُس^(١) : « أعطاني إدارة التعاليم وأنا أتعهد لك بقلب
العالم » . وقال پسمارك بعد الحرب السبعينية : « إننا غلبنا جارتنا بمعلم المدرسة » .
كثيراً ما نسمع نقداً مرّاً عن انتشار المستنقعات في البلاد وأمراض (البلهارسيا
والأنكاستوما) وكثرة السائلين والعجزة ، وفاقدى البصر ، حتى بلغت نسبة فقد البصر
أكثر من أى نسبة في العالم ، وعن فساد الأخلاق ، وكثرة الجرائم والحوادث ، ولو
علمنا الأمة تعليماً حقاً لارتفع المستوى الصحى والاجتماعى والخلقى ، وأتت كل هذه

الإصلاحات عفووا بلا تعب . فإذا أردنا الخير للأمة جعلنا التعليم عاما شاملا فقراءها وأغنياءها ، وعيننا بالفقراء ؛ لأنهم العمود الفقري الذي تعتمد عليه الأمم . يجب أن نعلمهم إن أردنا أن تتبوأ مصر مركزها اللائق بها بين الأمم ؛ فإن العلم سبيل الغنى والرق .

• يجب أن نعلم الأمة حتى يقل الفقراء منها ، ولا نسمح للأطفال بالعمل إلا بعد التعليم . يجب أن نعلمهم حتى نعدهم للكسب ، ولحياة أحسن من الحياة التي يعيشونها غير متعلمين . يجب أن نعلمهم التعليم النظري أولاً ، ثم الصناعى ثانياً ، ونبحث عن عمل لهم يسرون فيه بعد معرفتهم حرفة من الحرف ، أو صناعة من الصناعات . علموا اليتامى والفقراء والمساكين ؛ كي تقوموا بواجبكم نحو الإنسانية ، والله يجزيكم خير الجزاء .

أنشئوا ملاجئ للعجزة وذوى العاهات ؛ فإن الله سيسألکم عن هؤلاء المهملين الذين لا بيوت لهم إلا الطرق ، ولا مساكن لهم إلا الحارات ، يلتحفون بالزرقاء ، وينامون على الترى .

التربية واثرها في الفرد والمجتمع

التربية أساس النجاح :

إن التربية أساس النجاح للفرد والمجتمع . لذلك تنفق الحكومات في الأمم المتقدمة بسخاء على التعليم ، موقنة أن في التعليم قوة ، وقوة كبيرة ، في ترقية الفرد والنهوض بالمجتمع إلى حياة راقية ، وعيشة راضية . والتاريخ خير دليل على أن التربية والتعليم تحيا الشعوب من موتها ، وتنبه من غفلتها ، وتقلل سجونها . لقد دافع (بستالوتزى) عن تعليم الشعب في سويسرة ، ونادى به بأعلى صوته ، فكان له ذكر حسن في حياته وبعد مماته ، في سويسرة وغيرها من أنحاء العالم . وسويسرة الحالية أثر حسن من آثار (بستالوتزى) ، ورقبها في التعليم ينسب إليه .

هزم (نابليون بروسيا) في موقعة (جينا) هزيمة كبيرة ، فحطم قوتها ، ولم يرفع الأمة المهزومة من الخضيض إلا مدارس الشعب ، وتعميم التعليم .

في أسكوتلندة :

ويعتقد (اللورد ماكولى) - وهو أديب وقاض إنكليزى من القرن التاسع عشر - أنه قبل نشر التعليم بأسكوتلندة كان الشقاء كثيرا ، والجهل سائدا ، والكسل عامًا ، والإخلال بالقانون منتشرًا بها ، وكان المجرمون يخلون دائما بالأمن العام ، ويكدرون صفو كثير من السكان في كل جزء من أجزائها . وكان اسم (أسكوتلندى) يعد معرفة وعيبا ؛ فكان إذا ذكر ذكر باحتقار وعدم اكتراث ، لكن حينما نفذ قانون التعليم

العام ، وابتدأ الأميون يتعلمون ، وأخذ الأطفال الذين بلغوا سن التعليم يذهبون جميعا إلى المدارس ، حدث تحسن كبير في أسكوتلندة لم ير العالم مثله في السرعة ، ولوحظ رقي في الأخلاق والآداب والتفكير .

لا يزال الهواء في أسكوتلندة باردا كما كان ، ولا تزال الصخور الأسكوتلندية عارية جرداء كما كانت من قبل ، ولا تزال مناظرها الطبيعية كما كانت في غابر الأزمان ، ولكن الشعب قد تغير ؛ تغير بالتعليم حتى أصبح من أعظم شعوب العالم ، في الجلد والحشونة ، والذكاء والمثابرة ، والاقتصاد والصناعة . والآن قد اعترف بفضائلهم ، وعرفت فضائلهم ؛ فعلى أكتاف الأسكوتلنديين بنيت الإمبراطورية الإنكليزية .

في المجلثة :

في سنة ١٩٢٠ رأت الحكومة الإنكليزية أنها مثقلة بالديون بعد الحرب ، ففكرت في اقتصاد بضعة (ملايين) من الجنيهات ، فلجأت إلى ميزانية التربية والتعليم لتنقصها شيئا ما ، فكانت النتيجة الإخفاق ؛ لأنها قوبلت بمعارضة شديدة من جميع المفكرين من كل طبقة من الأمة الإنكليزية . وكان الجواب : « اقتصدوا في كل شيء ، ومن كل شيء ، إلا من مالية التعليم » . ومن هذا يتبين مقدار ثقة الشعب الإنكليزي بالتعليم وأثره ، واستعداده لتقديم أية تضحية في سبيله .

وهنا نسأل : ما النتيجة التي حصلت عليها تلك الأمة من تعميم التعليم ؟ إن نظرة واحدة إلى عدد المجرمين قبل تعميم التعليم وبعده تبين بوضوح أثر التربية والتعليم

في الشعوب ، وفي النفوس ، في الفرد والمجتمع ، وتدل - كما قلنا - على صدق كلمة (فكتور هو جو) : « من فتح مدرسة فقد أغلق سجنًا » .

فالتعليم الكامل هو الوسيلة الوحيدة لإغلاق السجون ، والسبيل الوحيد لرقى الفرد والمجتمع ، وسر عظمة الأمم . فبالتربية يستطيع الإنسان أن يعرف ما يجب عليه نحو نفسه وغيره ، وبها ترقى الأفراد ، وبرقى الأفراد يرقى المجتمع ، وبعبارة أخرى ترقى الأمة .

في روسيا قديما :

وفي القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر كان الحكام المستبدون في أوروبا وبخاصة الروسيون قديما - يخافون دائما تعليم الجمهور . وكانوا يعتقدون أن العلم كالمخ يهدد مصالحا إذا أخذ منه مقدار قليل ، ومفسدا إذا أخذ منه ؛ كأن العلم مادة سامة .

ومن كلماتهم المأثورة : « علم الفقراء اليوم وغدا سيكونون ضدك » . أما اليوم فقد برهنت التجربة وأثبت التاريخ فساد الوهم السابق ، وشعر العالم بأن التعليم هو الوسيلة للتفاهم مع العامة . فبالتعليم يستنير فكر الجمهور ، فيسير في الطريق المستقيم ، ويحكم عقله ، ويميز الحسن من القبيح ، والغث من السمين . أما الجاهل فمن الممكن التأثير فيه بسهولة ؛ لأنه لا يستطيع أن يسترشد بعقله ؛ فهو دائما يميل مع الرياح والعواصف ، كالريشة يطيرها الهواء كيف يشاء ؛ لأنه يعتمد على العاطفة أكثر من اعتماده على العقل .

في الولايات المتحدة بأمريكا:

لقد قاسى (هوريس مان ، ومارى ليون ، وفرانسيس پاركر) من المربين الأمريكيين كثيرا فى سبيل تعميم التعليم بالولايات المتحدة بأمريكا . ومدارس العامة بها اليوم هى الروضة الغناء ، يتعلمون فيها الإخلاص لبلادهم ، والحب لوطنهم . بها تحفظ حقوقهم ، وتصان حريتهم . تلك المدارس بأمريكا هى الوسيلة الكبيرة للتوحيد بين السكان الكثيرين من الأجانب فيها ، على اختلاف نزعاتهم وميولهم ، وعاداتهم وأخلاقهم وأنظمتهم ؛ فقد استوطنتها كثيرون من أسكوتلندة وويلز وإنجلترا وإرلندة وفرنسا وألمانيا وروسيا وإيطاليا وسورية . وليس التوحيد بين هؤلاء السكان بالأمر السهل ، ولكن مدارس الشعب قد ألقت بينهم ، وجعلتهم أمريكيين ، وبثت فى نفوس أبنائهم حب بلد اتخذوه بلدا لهم ، والإخلاص لوطن جعلوه وطنا لهم . وهم الآن يعدون أمريكيين ، لهم ما للأ أمريكيين ، وعليهم ما عليهم . والفضل كله لمدارس الشعب التى يتقابل الناس فيها من كل جنسية ودين وطبقة ، على أرض واحدة ، وتحت سماء واحدة ، من غير ما تفريق أو تمييز .

وللمدارس العامة فى أمريكا مكان كبير فى قلوب الشعب ، والشعب ينظر إليها نظرة من يقدرها . ويعتقد الأمريكيون أن بالتربية والتعليم تستطيع الولايات المتحدة الأمريكية أن تقود العالم فى الأفكار والاختراعات والصناعات . لذلك تجدهم يدفعون ضرائب التعليم بقلوب راضية ، ونفوس مطمئنة ، ولا يعدونها عبئا ثقيلا على أكتافهم ؛ بل يعدونها واجبا عليهم نحو أمتهم ، نحو أمة يفخرون بالانتساب إليها ، ويعملون لإسعادها وترقيتها .

وفى تلك الولايات الأمريكية لا ينظر دافعوا الضرائب إليها نظرهم إلى صدقة

من الصدقات؛ بل يعدونها ضرورية لرقى الأمة، وسعادة المجتمع، ويثقون بأن سعادة الشعب تتوقف على ذكائه، وتربيته تربية حقّة، ويمتقدون أن النفقة على تعليمه وسيلة للغنى والثروة. وإن العمل المصحوب بالجهل ليس بالرخيص؛ بل هو غال دائماً. فكثيراً ما يتلف العامل الجاهل الآلة التي في يده لجهله، وهو على الدوام في حاجة إلى من يراقبه، ويلاحظه، ويبين له طريقة العمل. وهو في الغالب لا ذمة له ولا ضمير؛ فقد يوغر إليه غيره بإفساد العمل فيفسده. وما أسهل التأثير في الأمي! إنه لجهله لا يعرف كيف يستعمل أوقات فراغه في أمور نافعة، من إصلاح نفس، وجلب مسرة، ورياضة بدنية، وقراءة كتب أدبية، واستماع محاضرات ومناظرات، فيعتاد السكر والميسر، والعنف والإخلال بالقانون؛ حتى يصير خطراً كبيراً على أي مجتمع.

ولكن العمل الذي يصحبه العلم والذكاء وحسن التصرف في أمريكا قد أوجد المصانع بها، وجعلها تنتفع بغاباتها، وأصلح أراضيها، واستغل مناجمها، وأنشأ الترع بها، ونظم سككها الحديدية، وأوجد لها فرصاً كبيرة للحصول على الأموال واستثمارها؛ حتى صارت الولايات المتحدة أغنى أمم العالم، وأرقاها علماً وصناعة وزراعة وتجارة.

التعليم أول الواجبات

التعليم أول الواجبات ، وتعميمه أول الضروريات ؛ فهو الوسيلة لحفظ حياة الناس وصيانة ممتلكاتهم . قال اللورد (ما كولي^(١)) في خطبة له في مجلس النواب الإنكليزي : « إنني أعتقد أن من حق الحكومة وواجبها أن تعمل لمساعدة وسائل التعليم للفقراء من الناس ؛ فمن الواجب على الحكومة أن تحمي رجالنا وأموالنا من الخطر . وإن الجهل المطبق المنتشر بين العامة من الناس هو السبب الرئيسي للخطر على الأفراد وممتلكاتهم . يتضح لي كل الوضوح أن من له الحق في أن يشنقهم عليه الواجب في أن يعلمهم . إذا كان من الواجب أن تعاقب المجرمين فمن الواجب عليك أن تعلمهم . فليس معنى الحكم الجلد والشنق لحسب . »

إن المدارس أساس النجاح والسعادة لأى شعب من الشعوب . لذلك تنفق عليها الحكومات الأوروبية والأمريكية بسخاء ، موقنة بأن في التعليم قوة كبيرة في إسعاد الشعب والنهوض به إلى حياة جميلة ، وعيشة راضية . والتاريخ خير دليل على أن بالمدارس ، وبالمدارس وحدها ، تحيا الشعوب من موتها ، وتنهض من رقادها .

ويعتقد الرجل الإنكليزي والفرنسي والأمريكي والسويسرى أن ما يدفعه من الضرائب مثلا لمساعدة مدارس الشعب يزيد ثروته الخاصة ، ويجعله في أمن مطمئنا

(١) كان كاتباً شاعراً ، خطيباً مؤرخاً ، سياسياً . ولد في ٢٥ من أكتوبر سنة ١٨٠٠ ، وتوفي في ٢٨ من ديسمبر سنة ١٨٥٩ . وكان أبوه من أسكوتلندة . أظهر حباً للقراءة ، وتعاشاً للعلم منذ الطفولة ، وله كثير من المؤلفات التاريخية والأدبية باللغة الإنكليزية .

على ماله ، ويقلل مقدار الضرائب التي تدفع لتنفق على السجون والشرطة والمحاكم .

قسر الآباء على تعليم الأبناء :

إذا كان من الواجب على من يدفع الضرائب أن يدفعها بنفس راضية ، وسرور جم ، لتعزيد تعميم التعليم ، ومساعدة مدارس الشعب ، أفليس من الواجب على الآباء أن يتضاعف سرورهم ، ويزيد حبورهم لتعليم أبنائهم في المدارس التي تنشئها الحكومة والأمة لهم ؟ ولكن من المؤلم جداً أن الجبهة من الآباء لا يفقهون معنى التعليم ولا يشجعونه .

كان من الواجب ألا يكونوا في حاجة إلى أن يظهروا ويجهروا على إرسال أبنائهم إلى المدرسة ؛ ليتعلموا على نفقة غيرهم ، ولكن اتضح بالتجربة في الأمم الراقية أنه لا يكفي أن تُنشأ المدارس ؛ بل يجب أن يقسر الآباء على إرسال أبنائهم إليها ؛ فإن كثيراً من الآباء - وبخاصة الجبهة منهم - لا يدركون فوائد التربية التي تقدمها المدرسة لأبنائهم . أما المتعلمون من الآباء فإنهم يعملون كل ما في قواهم وما في وسعهم لتعليم أولادهم ، وفلذات أكبادهم ، وأتمن ما يملكونه في هذه الحياة ، ويبذلون جهدهم في تربيتهم ، ويضحون بكل غال لديهم في سبيل تعليمهم . وقد يقتصدون من قوتهم ، ويمتنعون عن مسراتهم ، لا لغرض إلا تربية أبنائهم . وأمثال هؤلاء يجب أن يذكروا ويقدرُوا .

ولما كان بعض الجبهة من الآباء قد يكون ضعيفاً أحمق ، محباً لنفسه ، سيئ التصرف ، لا يعرف عن الحياة شيئاً ، ولما كان كثير من الأطفال يتركون يتامى لأب لهم ، ولقطاء لا مأوى لهم ، ولا معين ولا نصير - وجب ألا يهمل هؤلاء الأطفال في الطرقات ، ولا يسمح لهم بأن يشبوا على الجهل ، فيصيروا وبالاً وخطراً على الأمة . يجب أن يؤخذوا ويتعهدوا بالتربية والتعليم . ويجب ألا يسمح للآباء بالإهمال في تربية الأبناء ؛ فإن الأبوة الجسمية ليست كل شيء ، والأبوة وحدها لا تعطى الإنسان

الحق في أن يحكم على أى طفل بأن يكون عبدا للجهل وللظلمة ، وللشقاء إلى الأبد .
ويجب أن تعلم الأمة علم اليقين أن كل طفل قد حصل على فرصة عادلة ، هي فرصة
التعلم الذى يؤدى إلى مستقبل سعيد ، وحياة طيبة .

ثم لا يكتفى لتعميم التعليم أن يكون مجانا ؛ بل يجب أن يكون إجبارياً حتى تضمن
الأمة تعليم كل فرد من الأفراد ؛ فإنه إذا صح أن تقول الحكومة للرجل الغنى الذى
لا أطفال له : « يجب أن تدفع ضريبة للتعليم المجانى » فما لا ريب فيه أن تقول
للأب الفقير الذى لديه أطفال : « يجب أن ترسل أبنائك وبناتك إلى المدرسة » .
وهذا أمر يسلم به العقل والمنطق .

والحق أن أحسن أمة في تنفيذ قانون التعليم الإلزامى تلك التى لا يُنسى فيها
تلميذ أو يُترك أحد بغير تعليم ، بأن يقوم مكتب الشرط في كل جهة من الجهات
بعمل قوائم المواليد في الجهة التى هو بها . ومن هذه القوائم يمكنه بسهولة معرفة
الوقت الذى يبلغ فيه الطفل سن المدرسة ، فيكتب لوالد التلميذ أو وصيه يذكره
بذلك ، ويخبره باسم المدرسة التى يجب أن يذهب إليها الطفل . وفى العادة تختار له
أقرب مدرسة . وبالمثل يرسل إلى ناظر كل مدرسة قائمة بأسماء التلاميذ الذين يجب
إلحاقهم بالمدرسة في أول السنة المدرسية . وبالطبع يعرف العدد الذى يمكن قبوله في
كل مدرسة بتلك الجهة . وعلى ناظر المدرسة أن يقبل هؤلاء التلاميذ ، وأن يخبر
مكتب الشرط باسم من تخلف منهم عن الحضور في أول يوم من الدراسة ؛ لعمل
الإجراءات اللازمة ، والسؤال عن سبب التأخر . فإذا أرادت أسرة من الأسر أن
تنتقل إلى بلدة أخرى فعلى ولى أمر التلميذ أن يخبر الشرطة بذلك ، وبالبلدة التى
يذهب إليها مع أسرته وبعنوانه فيها . وفى هذه الحالة يقوم مكتب الشرط بإخبار
ناظر المدرسة التى بها الطفل ، وبمكاتبة المكتب الآخر في البلدة الثانية ، فيقوم هذا
بعمل التدابير الضرورية لحفظ مكان للتلميذ في الفرقة التى تلاعبه . ويخبر مكتب

الشرط الأول عن اسم المدرسة التي سيلحق بها الطفل . ففي اليوم الذي تصل فيه الأسرة إلى الجهة الجديدة يذهب شرطي للسؤال ، وقد يأخذ الطفل بنفسه إلى المدرسة التي تنتظره . وبهذه الطريقة لا يمكن إهمال فرد واحد بغير تعليم . وإذا تأخر الأب في إرسال ابنه أو ابنته إلى المدرسة عوقب عقاباً صارماً . وإن الطريقة المتبعة في فرنسا ليست بدقيقة ، لذلك يهمل فيها أكثر من ٥٠٪ بلا تعليم ، وبخاصة الجهات الريفية .

كثيراً ما يشكو المدرسون عدم زيارة الآباء للمدارس التي بها أبناءهم . ولكنهم إن كانوا لا يزورونها بأجسامهم فهم يزورونها بأرواحهم ؛ فكل تلميذ يحضر معه والديه إلى المدرسة ، فالآباء حاضرون دائماً في المدرسة في أخلاق التلاميذ وأمزجتهم وملابسهم ولغتهم وسلوكهم وعاداتهم وذكائهم . فالأبناء يمثلون الآباء نفساً وروحاً . وأحياناً يكون الآباء عقبة في سبيل التعليم فيؤخرون أبناءهم عن الحضور إلى المدرسة ، ويشجعونهم على عدم المواظبة . ولو فكر الآباء في أن الأطفال هبة غالية من الله ، وجواهر ثمينة لا تقدر بثمن لربوهم أحسن تربية ، وعودوهم الذهاب إلى المدرسة من غير انقطاع ، واهتموا بتعليمهم ، وشعروا بما تؤديه المدرسة لهم من خدمات عظيمة ، وتعاونوا معها على تنفيذ النظم الضرورية لصالح التعليم ، وأعدوا لأبنائهم من الكتب والأدوات مالا غنى لهم عنه ، وساعدوا المدرسين في أعمالهم ؛ بأن يشوا في نفوس أولادهم وهم بالمنزل عادات النظافة والمواظبة ، والاعتماد على النفس ، والنظام في العمل ، وحب أداء الواجب ، والرفقة بالحيوان ، وحسن معاملة غيرهم ، والتخلق بالأخلاق الجميلة من الصدق في القول ، والأمانة في العمل ، والطاعة المعقولة .

علموا الأمة !

إن العالم سائر بنجاح نحو التفكير فى الإنسانية ، ومن المحال أن ترقى أمة من الأمم إلا بتعميم التعليم ، ولا وسيلة لإيقاظ الناس من شر الجهل والرييلة إلا بالعلم ، فالمدينة والحضارة والتقدم فى العلم والاختراع ، والإبداع الذى نراه بأعيننا فى الأمم الراقية كإنجلترا والولايات المتحدة بأمريكا وسويسرة وفرنسا نتيجة التربية العامة ، والتعليم المنتشر بين جميع الطبقات .

العلم هو السبيل الوحيد والأساس المتين لسعادة الجمهور ، وإن كل أمريكى حتى اليوم يقدر تلك الحكمة البالغة التى فاه بها (جورج واشنطن^(١)) محرر أمريكا فى

(١) ولد (جورج واشنطن) فى ٢٢ من فبراير سنة ١٧٣٢ فى (برذجس كريك) من ولاية (فرجينيا) ، وتوفى ولا ذرية له فى ١٤ من ديسمبر سنة ١٧٩٩ فى (مونت فرنون) . وأصله من أسرة إنكليزية عريقة النسب . مات أبوه تاركا أسرة كبيرة ، وميراثا لا يكفى لتربية الصغار من أبنائه . وكان (جورج) إذ ذاك طفلا سليم الجسم ، قويا ، معروفا بالذكاء . فذهب إلى أخيه من أبيه « لورانس » وهو أكبر إخوته الذى أخذ معظم أموال أبيه . وانقطع (واشنطن) عن المدرسة وعمره ست عشرة سنة ، واشتغل بقياس الأرض ، وكان مغرما بالصيد والقنص ، والألعاب الرياضية ؛ فاكسب منها عادات الاعتماد على النفس ، والصبر على الآلام ، وتحمل المشاق وصعاب الأمور . ثم توفى أخوه بالسل ، وترك ابنة صغيرة كان (واشنطن) وصيا عليها ، ولكنها لم تعمّر طويلا ، فورث (واشنطن) جميع التركة بعد موتها .

كان (واشنطن) مولعا بالأمور الحربية ، وقد ترك المدرسة فى الوقت الذى =

(1)

خطبة الوداع : « لقد نلنا الحرية والاستقلال ، ولكن المهم أن نحافظ عليهما . ولا وسيلة للحفاظ على الحرية والاستقلال سوى النهوض بالمدارس لنشر التعليم العام . علموا الأمة . علموا الأمة . علموا الأمة » . ولا عجب ؛ فلا سبيل لرقى أمة إلا بالعلم . ولا ينكر أحد صواب ما قاله (واشنطن) - ذلك البطل العظيم - من جهة أهمية التعليم . ولما بدأت أمريكا مشروع تعميم التعليم خُصّصت قطع واسعة من أرض الشعب بكل ولاية من الولايات لزرع ؛ كي تحصل على رهوس أموال كافية لتأسيس مدارس للعامة سميت « مدارس الأمة » . فأنشئت المدارس ، وأقيمت الجامعات ، وفتحت مدارس زراعية تابعة للحكومة ، وأعدت الطرق الصالحة لتعليم الشعب . وفي أواخر القرن الثامن عشر أخذت هذه الجمهورية الجديدة تحاول تعليم جميع الأطفال على نفقة الشعب ، بنشر التعليم المجاني في جميع أنحاء أمريكا .

= يلحق فيه غيره بالسكينة - لكسب العيش . وكان يشعر بذلك التقص من الوجهة العلمية ؛ فكان يكثر القراءة لمعالجة ذلك الضعف العلمي ؛ فقرأ كثيرا في التاريخ والسياسة . ولم يعرف من اللغات إلا الإنكليزية . وكان قادرا على كتمان شعوره ؛ إذ لم يغضب في حياته إلا مرة واحدة . ومن وصاياه للأمريكيين في خطبة الوداع قوله : « كونوا أمريكيين » "Be Americans" ، أى تناسوا ماضيكم ، وحافظوا على قوميتكم ، واعملوا لبلادكم ؛ ففيها مأواكم ، وعليها مصيركم .

كان (واشنطن) أول رئيس للولايات المتحدة الأمريكية . وكان في قدرته أن يجعل الحكم وراثيا في أسرته ، ولكنه فضل أن يعمل للأمة لا لأسرته فحسب . ففكر في أمته ، ونسى أسرته . وقد وصّى أمريكا بأن تكون على الحياد وبمعزل عن الحروب في أوروبا . وهو الرجل الذي رفض أن يكون ملكا .

اقرأ : Life of Washington, by Irving .

ولم يكتب (توماس جيفرسون^(١)) الرئيس الثالث للولايات المتحدة بأمريكا
أثمن من هذه الكلمات :

« إن التعليم الذى سيعم كل طبقة من أبناء شعبنا من أغنام إلى أفقرهم سيكون
أول شيء يتعلق بالجمهور الذى أحبه وأفكر فيه . إن الشعب الذى ينتظر أن يكون
حرا جاهلا فى وقت واحد شعب ينتظر ما لم يحدث ولن يحدث . فحيثما تكن
الصحافة حرة ، ويكون كل إنسان قادرا على القراءة والكتابة تسكن (الديمقراطية)
آمنة » :

(١) (توماس جيفرسون) هو مؤلف كتاب « التصريح بالاستقلال الأمريكى » :
“ The Declaration of American Independence ” . ولد فى
« شادول » بولاية (فرجينيا) فى ١٣ من إبريل سنة ١٧٤٣ . وكان أبوه من
(ويلز) مساحا للأراضى ، وبستانياً فى (فرجينيا) . كان توماس ثالث طفل
وأكبر ابن لأسرة بها عشرة أطفال . لحق بكلية (وليام ومازى) وعمره سبع عشرة
سنة ، بعد موت أبيه بثلاث سنوات ، ومكث بها سنتين . وكان محبوبا جداً لدى
الشعب . نودى به وكيلا لرئيس الولايات المتحدة سنة ١٧٩٧ . وفى سنة ١٨٠١
انتخب رئيسا لها . وله أعمال جليلة فى تحرير أمريكا ، وإلغاء تجارة العبيد . وهو
صاحب قانون حرية الدين ، ثم خصص بقية حياته لخدمة التربية والتعليم بعد أن اشتغل
بالأمور الإدارية والسياسية أربعين سنة تقريبا . ولقد تبرع بكثير من الأموال للتعليم
 وإنشاء جامعة (فرجينيا) . لم يكن بالخطيب ولكنه كان أدبيا عالما كاتباً . اقرأ :

(1) His Writings, Correspondence, & C. 9 Vols. by

H. A. Washington, New York.

(2) Lives by Tucker. 1837.

لم تكتمف الولايات المتحدة بأمريكا بما نالته من الحرية بعد ثورة سنة ١٧٧٥ ؛ بل أخذت في تعميم التعليم المجاني حتى صارت اليوم في مقدمة الأمم المتمدينة في العلم والصناعة والزراعة والتجارة والثروة . فبالعلم وحده يستطيع الإنسان أن يعرف ما يجب عليه نحو نفسه وغيره . به ترقى الأفراد ، و برقى الأفراد يرقى المجتمع ، وبعبارة أخرى ترقى الأمة . وإن نظرة واحدة إلى تاريخ العالم تبرهن لنا على أن كثيرا من العظماء والأدباء والعلماء وقادة الفكر والعمل كانوا فقراء ، فتعلموا وثابروا حتى وصلوا إلى أوج العظمة والرفعة . وهنا يجب أن نذكر كلمة عن بعض هؤلاء الفقراء الذين وصلوا بالعلم إلى الغاية التي يرجونها .

العظماء من ابناء الفقراء

١ — أبو نصر الفارابي :

كان شيخ الفلاسفة من المسلمين — وهو الفارابي — حارساً في بستان، يقرأ ليلاً على مصباح الحارس . ويعد أستاذاً في الفلسفة لابن سيدنا وابن رشد . كتب كتباً كثيرة، وشرح كثيراً من فلسفة اليونان . وكان يجيد سبعين لغة ، وكان مقرَّباً لسيف الدولة الحمداني . روى أن الفارابي دخل عليه بزي الأتراك ، ووقف ، فقال له سيف الدولة : اقم . فقال : حيث أنا أم حيث أنت ؟ فقال : حيث أنت . فتخطى رقاب الناس حتى انتهى إلى مكان سيف الدولة ، وزاحه فيه حتى أخرجه عنه . وكان على رأس سيف الدولة ممالك، وله معهم لسان خاص يسارهم به قل أن يعرفه أحد . فقال لهم بذلك اللسان : إن هذا الشيخ قد أساء الأدب ، وإني مسأله عن أشياء إن لم يوف بها فأخرجوا به « وفي رواية فاجروا به » . فقال له أبو نصر بذلك اللسان : أيها الأمير ! اصبر ؛ فإن الأمور بعواقبها . فعجب سيف الدولة منه وقال له : أحسن هذا اللسان ؟ فقال : نعم أحسن أكثر من سبعين لساناً ، فعظم عنده ، ثم أخذ يتكلم مع العلماء الحاضرين في المجلس في كل فن ، فلم يزل كلامه يعلو ، وكلامهم يسفل حتى صمت الكل ، وبقي يتكلم وحده ، ثم أخذوا يكتبون عنه ما يقوله ، فصرفهم سيف الدولة وخلا به ، فقال له : هل لك في أن تأكل ؟ قال : لا . قال : هل تشرب ؟ قال : لا . قال : هل تسمع ؟ قال : نعم . فأمر سيف الدولة بإحضار القيان ، فحضر كل ماهر في هذه الصناعة بأنواع الملاهي ، فلم يحرك أحد

منهم آلتة إلا عابه أبو نصر وقال له : أخطأت . فقال له سيف الدولة : وهل تحسن في هذه الصنعة شيئا ؟ فقال : نعم ، ثم أخرج من وسطه خريطة ففتحها ، وأخرج منها عيدانا وركبها ، ثم لعب بها ، فضحك منها كل من كان في المجلس ، ثم فكها وركبها تركيبا آخر ، ثم ضرب بها ضربا آخر ، فبكي كل من في المجلس ، ثم فكها وغير تركيبها ، وضرب بها ، فنام كل من في المجلس حتى البواب ، فتركهم نياما ثم خرج . ولو عنيينا بالأذكىاء من أبناء الفقراء لرينا كثيرين من الفلاسفة والعلماء كالغارابي .

٢ - هَلِيلُ الْعِبْرِي :

كان (هَلِيل) العبري يضرب به المثل في الفقر ، حتى كان يقال لمن يهمل التعلم من العبريين بسبب الفقر : أنت أفقر من (هَلِيل) ؟ وكان (هَلِيل) يشتغل بقطع الخشب نهارا ، فيكسب من عمله قرشا في اليوم ينفق نصفه ، ويعطى النصف الآخر لحارس باب المدرسة . وقد حدث في يوم جمعة أنه لم يكسب ذلك القرش ، فلم يستطع أن يعطى الحارس شيئا حينما ذهب يوم الجمعة مساء إلى المدرسة . فتنعه الحارس من الدخول مع شدة ولعه بحب العلم ، فانتهر فرصة غروب الشمس ، وتساق النافذة ، وأخذ يسمع من خلالها ما يقوله اثنان من علماء الدين من العبريين ، وهما (أَبْطَالْيُون وشَمَّى) في ليلة قارسة البرد ، كثيرة الثلج ، فتجمد (هَلِيل) حتى فقد شعوره وإحساسه . وفي الصباح قال (أَبْطَالْيُون) لرفيقه (شَمَّى) : إن الحجرة اليوم مظلمة على غير العادة . فنظرا إلى النافذة ، فوجدا شبح إنسان عليها ، فخرجا فوجدا طالبا ممسكا بالنافذة هو (هَلِيل) ، فأخذه إلى الحجرة ، وأمرأ بإيقاد النار يوم السبت على خلاف عادة بني إسرائيل ، ثم ذلك بالزيت ، وأعطى حماما ساخنا ، ومواد غذائية لجلب الحرارة ، حتى رُدَّ إليه روحه ، فأخبرها بأمره ، فشعرا بأن مثل ذلك الشاب

يستحق مخالفة القانون الديني في إيقاد النار يوم السبت عند اليهود . وقالوا : « سيكون لهذا الطالب شأن عظيم في المستقبل » . وسمح له بالحضور إلى المدرسة من غير أن يدفع شيئا للحارس بعد ذلك . وقد صدقت نبوءتهم ؛ فقد كان (هليل) من أعظم رجال العلم ، وأكبر علماء الدين من الإسرائيليين . وله مذهب ديني خاص به ، وأقوال مأثورة في الأدب العبري .

٣ - صمويل چونسون :

(الدكتور صمويل ^(١) چونسون) قد عده (توماس كارليل) بطلا من أبطال الكتاب ، وعظيما من العظماء . كان من أفقر الفقراء الذين لا مأوى لهم ، ومن البائسين الذين لا يجدون ما يكفيهم . تحمل كثيرا من الجوع والبرد ، ولكنه لم يتحمل ذل السؤال . فقد حدث وهو في جامعة (أكسفورد) أن لحظ أحد الطلبة أن حذاءه ممزق لا يحمي رجله من البرودة والرطوبة والثلج ، فاشترى حذاء ووضع له ليلا أمام حجرة (چونسون) وهو نائم . فلما رآه (چونسون) في الصباح عدّ ذلك إهانة ، فاشتدّ غيظه ورمى الحذاء من النافذة . ولا غرابة ؛ فقد كان حاد المزاج ، سريع الانفعال ، ولكنه كان مع شدة فقره عزيز النفس ، يكره أن يسأل أحدا . ولما توفيت والدته اضطر لأن يؤلف رواية (راسلاس) في أسبوع واحد ؛ كي يتمكن من دفع الدين الذي استداناه لدفن والدته .

وكثيرا ما كان يقبض عليه اسجنه بسبب عجزه عن الوفاء بما عليه من الديون ، فأمر له ملك إنجلترا في ذلك الوقت بثلاثمائة جنيه في السنة . وقد شعر كل إنكليزي بفضلته ونبوغه ، وآرائه السديدة ، وكتبه الثمينة .

(١) ولد في ١٨ من سبتمبر سنة ١٧٠٩ ، وتوفي في ١٣ من ديسمبر سنة ١٧٨٤ م .

كان إذا رأى أحدا من الفقراء نائما في الطريق ليلا وضع في يده بضعة دراهم ؛ حتى إذا استيقظ في الصباح وجد ما يكفي إفطاره .

كان (چونسون) نبیلا في شعوره ، غريبا في عصره المظلم ، ولكنه خلق لإصلاح ذلك العصر ؛ فأخذ يقاوم الطبيعة والطبيعة تقاومه ، ويغالب الحياة فغلبها . ولا عجب ؛ فالنبل لا يفارق الشقاء . غلب الطبيعة بقلبه المتقد نارا حباً للإصلاح . غلبها بإخلاصه وعبقريته ، وإبائه وعظمته ، وحبه للحقيقة والصدق . إذا تكلم تكلم من قلبه ، قلب الطبيعة ، وصرح بما يشعر به . وكان في ألم مستمر لما يراه وما يشعر به من أحوال الفقراء في القرن الثامن عشر ومعيشتهم ، وإهمال الإنسانية لهم . يحب الحق ، وينادي بالحق ، ويعيش لنصرة الحق . بعثه الله لإصلاح عيوب إنجلترا في ذلك العصر المظلم بنقده المستمر ، وبما وهب من عين ترى ، وأذن تسمع ، وقلب يشعر بما يكتنفه وما يحيط به . فكان في إخلاصه وشعوره مثل (ميرابو ، وكرامويل ، وناپليوت) ؛ لا يقول إلا ما يشعر به وما يقصده . لا يتفوه إلا بالحقيقة التي يحسها . لم يشعر بالراحة في حياته ؛ فقد كان ضميره دائما يحدثه بالعيوب والمظالم التي يمر بها . خلق ليرشد الضالين في عصر كان في حاجة إلى كثير من الإصلاح والقيادة والإرشاد ، والعلم والتعليم . وإنك تجد في كتبه آثار عقل كبير ، وقلب عظيم .

فبالتعليم ظهرت عبقرية (چونسون) ، وبه تمكن من أن يقوم بأجل الخدمات للإنكليز والأدب الإنكليزي ؛ فقد ألف كثيرا من الكتب التي تعد ذخيرة من الذخائر . وبعلمه ونبوغه ونقده نهض بأهله . ولو قمنا بتربية الفقراء في مصر - وبخاصة الأذكىاء منهم - لوجدنا فيهم أمثال (چونسون) يعملون لرق مصر والنهوض بها .

٤ - (اللورد ما كولى) :

كان (اللورد ما كولى) كاتباً ، شاعراً ، خطيباً ، مؤرخاً ، سياسياً . ولد فى ٢٥ من أكتوبر سنة ١٨٠٠ ، وتوفى فى ٢٨ من ديسمبر سنة ١٨٥٩ . أظهر حباً للقراءة وتعطشاً للعلم منذ الطفولة . لاحظ عليه أبواه علامات النبوغ والعبقرية منذ نعومة أظفاره ؛ فلقد حاكى (السير وولتر سكوت) فى كتابته وعمره سبع سنوات ، فكتب ثلاث قصائد ومختصراً تاريخياً عاماً .

كان محباً للعمل ، قوى الدأكرة ، مولعاً بالأدب . وكثيراً ما وبخه والده على قراءة الروايات . لحق فى أكتوبر سنة ١٨١٨ بجامعة (كمبردج) ، وحصل على أربع جوائز منها ، ولو أنه كان يكره العلوم الرياضية . كان معروفًا بقوة البحث والمناظرة ، اشتغل بالقضاء قليلاً ، ثم ترك القضاء واتخذ الكتابة مهنة له ، فأخذ يكتب لمجلة (إدنبرة) أكثر من عشرين سنة . فكانت مقالاته الأولى عن « ملتون » فاتحة لنجاحه فى الأدب ، وسبباً فى فتح أبواب السياسة فى وجهه . لكن (ما كولى) كان لا يفكر إلا فى أسرته الفقيرة ، فأخذ على نفسه الميثاق أن يعولها بقله وكتابته . وفى سنة ١٨٣٠ انتسب إلى أحد الأحزاب السياسية ، واختير بمجلس النواب نائباً عن « إدنبرة » ، فنجح فى حياته النيابية نجاحاً باهراً ؛ لحبه لوطنه ، وإخلاصه فى عمله ، وقوة تأثيره فى الخطابة . ولعظمته كان ينضم لأرائه المعارضون لحزبه . وفى سنة ١٨٣٤ قبل وظيفة مستشار قضائى بالهند بمرتب عشرة آلاف جنيه فى السنة ، فقام بأعمال جليلة هناك . وفى سنة ١٨٣٨ رجع إلى إنجلترا ، وعاد إلى الحياة السياسية . استمر فى الكتابة والتأليف حتى بعد مرضه الذى لازمه حتى الموت . توفى وترك وراءه اسماً حياً خالداً . ودفن مع العظماء فى (ويستمنستر) . ولم يفخر الشعب الإنكليزى

بأحد من رجال السياسة والأدب فخره بما كوفى . ولا عجب ؛ فقد كان مخلصاً في حبه لوطنه ، مولعاً بأقاربه ، وفيّاً لأصدقائه ، كريماً عادلاً شجاعاً . . . وكان سليم الذوق في كتابته ، جميل التعبير ، حسن الأسلوب ، واضح اللغة . ويرى في كتبه روح الخطابة والنقد المر الذي لا يخلو أحياناً من الشدة ، ومع ذلك فقد كانت كتابته تقابل بتشجيع كبير ، وحب عظيم من الجمهور . أما نقده فكان ينبىء عن إخلاصه وإيمانه بما يقول ، وحبه للإصلاح^(١) . أنعم عليه بلقب (لورد) في سنة ١٨٥٧ . ومن كتبه : « تاريخ إنجلترا » في خمسة أجزاء ، و « موضوعات تاريخية نقدية » في أربعة أجزاء . اقرأ :

« حياته ورسائله » تأليف (السير جورج أوتو تريبلان) سنة ١٨٧٦ .

٥ — (شارلز دكنز) :

وهاك الكاتب الإنكليزي الكبير ، والمصلح الاجتماعي (شارلز دكنز) الذي تدين له إنجلترا بما نراه فيها اليوم من إصلاح اجتماعي ؛ فقد كان في بدء حياته فقيراً جرب آلام الفقر . ولا يحس آلام الفقر من الجوع والعري والبرد إلا من شعر بالفقر ، وذاق مرارته . قاسى كثيراً من البؤس والشقاء وهو طفل ، وكان ينام في البرد كقطعة مشردة لا تجد لها مأوى . وكثيراً ما بات على الطوى .

ولد (شارلز دكنز) لسبع خلت من فبراير سنة ١٨١٢ . وحينما كان بالمدرسة أظهر ميلاً للدرس ، وحباً للقراءة ، وشغفاً كبيراً بالقصص . وقد كان دقيق الإحساس ، رقيق العواطف ، واسع الخيال ، حاد الذائكة ، قوى الملاحظة ، كثير الصبر والتفاؤل ، لا تسكاد الابدسامة تفارق شفتيه . قاسى كثيراً من الآلام في حياته .

(١) ويؤخذ عليه عدم الدقة في ذكر تاريخ الحوادث .

وأمام قسوة الحياة أُخرج من المدرسة وهو صغير ، وأرسل إلى المصنع ليكسب عيشه بنفسه ، ويتمكن من مساعدة أسرته ، ويتقن شر الفاقة والاستجداء ، فودع المدرسة مكرها ؛ ليعمل بالمصنع نهارا وهو غلام لم يَعدْ الثانية عشرة من عمره . اختلط بصناع تنقصهم التربية والتهذيب ، في أخلاقهم جفاف ، وفي طباعهم خشونة ، وفي معاملاتهم قسوة . وقد أفادته تلك الأيام التي قضاها في المصنع في حياته الأدبية ؛ إذ كانت منبعها فياضا لا تنضب موارده ، ولا يقل معينه حينما أخذ يصور حياة الفقراء في كتابته . اعتمد على نفسه في القراءة والاطلاع والدرس والتحصيل ، حتى بلغ من العمر خمس عشرة سنة ، فاشتغل كاتباً لدى أحد المحامين ، ثم اشتغل بالصحافة ، وأخذ يكتب مقالات للصحف ، فتفتحت له أبواب المجد والخلود ، واندفع إلى العمل يحدوه الأمل ، ويحفزه الرجاء . وجد القراءة لذة في قراءة ما يكتب ؛ لأنه كان يصف الحياة وما في الحياة بدقة كبيرة ، وأسلوب عذب ، فأقبلوا على مقالاته ، وأخذ حظه يرتفع ، وبدأت الحياة تبسم له ، وهو في الثانية والعشرين من العمر .

تعب (دكنز) كثيرا في حياته ، وأجهد نفسه في تأليفه ومحاضراته ؛ حباً لإرضاء الشعب . ألّف كثيرا من الكتب والروايات المملوءة بالمضحكات والمبكميات ، وثابر على عمله حتى وافاه القدر المحتوم في التاسع من يونيو سنة ١٨٩٠ م . وهو في الثامنة والخمسين من عمره ، بعد أن سطر اسمه في سجل الخلود . فحزنت إنجلترا لوفاته حزناً على (شكسبير) .

وبقوة ما كان يشعر به (دكنز) استطاع أن يخاطب القارئ بقلبه ، فيبكيه حيناً ، ويضحكه أحياناً . ينتقل بك من صور مبكية إلى أخرى مضحكة ، كأنه يشفق عليك من البكاء .

وإن نظرة واحدة إليه في حياته تبين لنا أنه وهب نفسه لبلاده . استطاع بنقده

اللاذع ، ووصف ما يقاسيه الفقراء من آلام أن يبكي كثيرا من قراء لم يروا تلك الحياة ، ولم يسمعوا عنها شيئا ، ويلفت قادة الأمة إلى تلك المخازى التى تودى بالشعب ، ويدعوهم إلى العمل لتحسين مستوى الطبقات الفقيرة من النواحي العلمية والخلقية والاجتماعية والعقلية والصحية . صور حياة الفقراء والمساكين واليتامى وأبناء السبيل بتلك الصور المحزنة التى جعلت الشعب الإنكليزى وقتئذ يلهس فى خزى وخجل ما يعانيه الفقراء من فقر ومتربة ، وذل وشقاء ، ومتاعب وصعاب ، فى أعمالهم ومساكنهم ، ومدارسهم ومستشفياتهم ، وملاجئهم وسجونهم ومصانعهم . وأبكت كتاباته آلافا من القراء .

وقد وصل إلى ما يبنى من العدالة وحسن معاملة الفقراء والمرضى والمعجزة واليتامى ، وإصلاح الفاسد ، وأداء الواجب نحو الإنسان . وبهذا أدى (دكنز) رسالته خير أداء ، وجازاه الله خير جزاء . ووفق إلى ما لم يوفق إليه المعاصرون له من الشعراء والكتاب بالجلثرة ، بعاطفته النبيلة ، ولسانه الفصيح ، وخياله القوى ، وبديته الحاضرة ، ومنطقه السليم ، ومثابرته العظيمة ، ونفسه المرحة . فملك قلوب الشعب ، وعمل لتقويم معوجه ، وإصلاح عيوبه .

وفى كل رواية من رواياته كان يتجه إلى نقد بعض نواحي الحياة . وإن كانت انجلترا مدينة لأحد فهى مدينة لدكنز فى إصلاح حياتها الاجتماعية . ولا عجب إذا أحبه الشعبان : الإنكليزى والأمريكى . فلو لم يتعلم (دكنز) ما استطاع أن يؤدى واجبه نحو نفسه وبلاده ، والعالم الأدبى .

٦ - (أبراهام لنكولن^(١)) :

ولد (أبراهام لنكولن) في الثاني عشر من شهر فبراير سنة ١٨٠٩ م . وكان أبوه نجارا . توفيت والدته قبل أن يبلغ من العمر عشر سنوات . وقد كان لأمه قبل وفاتها أكبر الأثر فيما طبع عليه من حب القراءة والميل الشديد إلى الاطلاع ؛ فبعد أن تعلم مبادئ القراءة والكتابة في طفولته أخذت أمه تعنى به العناية كلها ، فكانت مربية ماهرة تحسن اختيار الكتب التي تتصل بالمثل الأعلى ، وبث الروح الوطنية في نفسه . ومن الكتب التي قرأها في حياته الأولى وأعادها مرارا بإرشاد أمه قبل وفاتها : « الكتاب المقدس ، وحياة (واشنطن) ، وحياة (هنري كيلي) » . وهي الكتب التي استطاعت تلك الأم الفقيرة العاقلة البعيدة النظر أن تقدمها لولدها في طفولته . فوجد (لنكولن) فيها وفي قراءتها غذاء لعقله المتعطش ، وصقلا^(٢) لذهنه المتوقد . ولا ريب أن تكون تلك الكتب هي ثروته في حياته ؛ فقد أثرت في تربيته تأثيرا حسنا ، وأتمت ما قامت به أمه في سبيل تنشئته الأولى ، وكونت فيه الصدق والإخلاص ، والصراحة والتواضع . وقد أعطته حياة (واشنطن) مثالا عاليا في العظمة والبطولة والوطنية ، وألقت عليه حياة (هنري كيلي) درسا في العصامية ؛ فهو رجل ارتفع شأنه بعد عيش بئيس ، وعظم قدره بعد فقر شديد .

كان (أبراهام) منذ الصغر محباً للاعتماد على نفسه في كسب عيشه، وتوفير قوته؛

(١) ارجع إلى كتاب « قصص في البطولة والوطنية » للمؤلف ص ٣٣ - ٤٥ ،

ففيه الكثير عن حياة (لنكولن) .

(٢) صقالا : جلاء .

فكان وهو غلام يأخذ في بعض الأحيان قارباً لينقل به المسافرين وأمتعته من الشاطئ إلى الماخرة التي يرغبون في السفر بها .

احترف الزراعة حتى بلغ عمره تسع عشرة سنة ، ثم صار كاتباً في مخزن ريفي وسنه إحدى وعشرون سنة ، غير أن تلك النفس الكبيرة لم تقنع بهذا القدر الضئيل من الحياة . فما زال (أبراهام) يتقف نفسه بالآراء في أوقات الفراغ . وكان في الليل يوقد قطعاً من الخشب يصطلي بنارها ، ويقرأ على نورها . وقد درس القانون وهو رجل ، فكان محامياً مدرّهاً فصيح اللسان ، حاضر الذهن ، متقد الفكر ، قوى الشخصية . ومن ذلك الوقت سمت له الحياة ، وسار في طريق المجد والعظمة ، فاختر عضواً بمجلس النواب ، ثم صار سياسياً كبيراً ، ف رئيساً للولايات المتحدة بأمريكا . كان يقاسم الفقراء شعورهم ، ويكثر الإحسان إليهم ، والعطف عليهم ، وينسب إليه تحرير العبيد في الولايات المتحدة بأمريكا .

وبهذا قام (أبراهام) بعمل جليل تذكره له الإنسانية ، ويدكره له العالم المتمدين حتى يومنا هذا .

ومن كلماته المأثورة : « إن حكومة الشعب التي يحكمها الشعب ، لصالح الشعب - لن تفنى من الأرض » . ومن أقواله في الدفاع عن قضية تحرير العبيد : « أعتقد أن هناك إلهاً ، وأن الإله يكره الظلم والعبودية . إنى لست بشيء ، ولكن الحق كل شيء . الحرية حق . وإن بيتاً ينقسم على نفسه لا يستطيع البقاء . إن الإنسانية تنافى العبودية ، ولن أخيب بمعونة الله في الفضاء عليها . ربما لا أحيأ حتى أرى النتيجة ، ولكن النتيجة من تحرير العبيد ستتحقق » .

وفي ٢٢ من سبتمبر سنة ١٨٦٢ قرر (لنسكولن) : « أنه من أول يناير سنة ١٨٦٣ يجب تحرير العبيد في جميع أنحاء الولايات المتحدة بأمريكا » . وفي يوم عيد

الميلاد من السنة التالية أعلن تحرير العبيد نهائياً ، وتحققت آمال (أبراهام) . فقد زار وهو عامل من العمال سوقاً من الأسواق ، فوجد جارية تباع وتشرى ، فتألم لبيع الإنسانية وشراؤها الألم كله ، وتمنى أن يعطى سلطة ليضرب على هذا الاسترقاق بيد من حديد . وقد شاء القدير جل شأنه أن يحقق له أمنيته ، ويمهد له السبيل ؛ للقضاء على هذه التجارة التي سوت بين الإنسان والحيوان ، والإنسانية والحيوانية ؛ فجعله رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية بعد ثلاثين سنة . وبذلك يعد محرراً للعبيد ، مدافعاً عن الإنسانية المظلومة .

وبينما كان (أبراهام) في ملهى (فورد) بواشنطن ؛ ليرفه عن نفسه مع أسرته إذ قتلته يد أثيمة غيلة ، ثبات في الصباح التالي في ١٥ من إبريل سنة ١٨٦٥ ، فحزن عليه الشعب الأمريكي حزناً شديداً ، وشاركه العالم المتمدين في الحزن عليه .

وإذا كان (واشنطن) قد حرر الولايات المتحدة بأمريكا ، فقد قضى (لنكولن) على ما كان فيها من الاضطرابات ، وقام بكثير من الإصلاحات . وقد ترك (لنكولن) اسماً خالداً محبوباً ، لا من الأمريكيين فحسب ؛ بل من أبناء الإنسانية في جميع الشعوب .

٧ - (رَمَزِي مَكْدُونَالْد) :

ولنذكر مثلاً آخر يتضح به أن بالعلم قد يصل الإنسان في البلاد (الديمقراطية) إلى رئاسة الوزارة مهما كان فقيراً . ففي اليوم السابع من يونيو سنة ١٩٢٩ دعا الملك (جورج) ملك إنجلترا الراحل (المستر رَمَزِي ^(١) مَكْدُونَالْد » لتأليف الوزارة للمرة الثانية ، وقد تعلم التعليم الأولى ، وأخذ يكمل تعليمه معتمداً على نفسه ، يقرأ في وقت الفراغ .

(١) كان رئيساً للوزارة الإنكليزية للمرة الأولى سنة ١٩٢٤ .

وقد كان يفخر بأنه يعرف كل كتاب في مكتبة (جلد هول) بلندن . وقد بدأ حياته بالعمل في حانوت تجارى يكتب عنوانات الرسائل للمشتريين . وقد مرت عليه أوقات كان لا يجد فيها أجرة (الترام) ليعود إلى بيته راكباً . ومما يذكر عنه وهو طفل أن إحدى العرافات تنبأت بأنه سيكون في يوم من الأيام رئيساً للوزارة مرة واحدة ، وإن يعود للرياسة مرة أخرى ، ولكن قد خيب (رمزي) نبوءتها ، فعاد رئيساً للوزارة في السابع من يونية سنة ١٩٢٩ للمرة الثانية كما قلنا .

وقد زار قبل وفاته الولايات المتحدة بأمريكا ، وزار بعض جامعاتها ، وقال في إحدى خطبه مخاطباً طلبة الجامعة : « لاثوموني إذا لم تتح لى الفرصة فى الماضى لأنعلم التعليم الجامعى ؛ فإن الحظ لم يسعدنى فى بدء حياتى فى أن أعلم تعليماً منظماً » .

وقد أشرك معه فى الوزارة كثيراً من العمال الفقراء ، وكان منهم الساعى ، وسائق القطار ، والعامل بالمناجم ، والصانع بمعمل القطن ، ولكنهم بالتعليم والكفاية التى أظهروها وصلوا إلى مراكزهم السامية .

فلو وجد الفقراء فى مصر تشجيعاً من تربية كالترية التى تقدمها إنجلترا للفقراء من أبنائها بالجان لأظهروا مقدرة كامنة ، ونبوغاً مقبوراً فيهم ، وبخاصة الأذكىاء منهم . ولا أبالغ إذا قلت : إن التعليم عام بإنجلترا ، والأبواب مفتوحة أمام الفقراء . فالتلميذ الذكى ينتهى من التعليم الابتدائى الإجبارى وعمره أقل من إحدى عشرة سنة . وإذا فاز فى امتحان المجانية نقل إلى مدرسة ثانوية . وقد يحصل على جائزة أخرى للمجانية بعد انتهائه من التعليم الثانوى فيتم دراسته بالجامعة ، فينال حظاً من الحياة بقدر ما تسمح به مواهبه ومقدرته وكفايته . وبهذه الوسيلة لا يقبر ذكاء فرد من الأذكىاء فى إنجلترا ، فالأذكىاء فيها يلتقطون كما تلتقط الأزهار ، ويوضعون فى الأمكنة اللائقة بهم ، وتفتح السبل فى وجوههم ؛ لتنتفع الأمة بهم .

٨ - (اللورد بركنهيد):

ولنضرب لك مثلاً من المحافظين بالورد (بركنهيد^(١)) الذي كان من أكبر الوزراء العاملين في وزارة المحافظين بالإنجلترا سنة ١٩٢٩ ؛ فإنه كان من أسرة فقيرة ، توفي أبوه وهو طفل ، فعنيت والدته بتربيته وتربية إخوته بقدر ما استطاعت . عرفت ما خلق في ابنها من الذكاء فتعهدته بالعناية ، وسارت به إلى الأمام . ذهب إلى (أكسفورد) ليمتحن امتحاناً يفوز الناجح فيه بالمجانية في (أكسفورد) ، ولم يكن معه إذ ذاك من النقود ما يكفي رجوعه إلى بلده . وقد نجح في الامتحان ، ونال الجائزة الأولى التي كان يتوقف عليها مصيره ومستقبله ، وتعلم في (جامعة أكسفورد) مع أبناء الطبقة الخاصة من الأمة ، وظهرت عليه علامات النبوغ والمقدرة الخطابية ، وقوة الحجّة ، والتأثير في السامع بطريقة منطقية في محفل انتخابات كان يحضره الراحل «يوسف تشمبرلين» ، فأعجب به الإعجاب كله ، وسأله أن يقابله بعد الانتهاء من حياته الجامعية ، ثم قابله بعد سنوات ، فعرض عليه أن يشترك في حزب المحافظين ، ففعل ، وثابر حتى وصل بعلمه وعمله إلى الدرجة التي كان يتمناها . ولو لم يعط (الورد بركنهيد) فرصة التعليم لقبر ذكاؤه حياً كما يقبر ذكاء كثير من الفقراء في الأمم غير المتمدينة . وقد قال (المستر تشرشل) : لا ندرى ماذا كنا نفعل لو لم يتعلم أمثال هؤلاء العظماء من أبناء الفقراء .

(١) كان اسمه (فريدريك إدوين سميث) Frederick Edwin Smith .
ارجع إلى ما كتبه عنه (المستر ونستون تشرشل) رئيس وزراء إنجلترا سنة ١٩٤١ في كتابه : "Great Contemporaries"

٩ — (مستتر هربرت هوفر) :

انتخب رئيسا للولايات المتحدة بأمريكا في ٤ من مارس سنة ١٩٢٩ . وقد ولد في قرية صغيرة كان أبوه حدادا بها ، ولكنه في مدارس الأمة تعلم ، وأعطى فرصة التعليم التي يجب ألا يحرمها إنسان ؛ تلك الفرصة التي قادته إلى أن يكون مهندسا ، فسياسيا ، رئيسا لجمهورية الولايات المتحدة بأمريكا .

والأمثلة كثيرة لا حصر لها ولا حصر ؛ فقد يولد النبغاء في أكوخ الفقراء ، ولكن لن يظهر النبوغ إلا إذا تعهد بالتعليم في أمة تقدر كفاية الأفراد وحقوقهم وتعليمهم .

وإن كان للفقراء عذر في إهمال تعليم أبنائهم فليس للأغنياء أى عذر في ترك أبنائهم من غير تعليم ، أو في إرسالهم إلى مكاتب في قراهم يتعلمون فيها كيف يكتبون أسماءهم ، ثم يعتقدون بعد ذلك أنهم علموا أبناءهم ، وقاموا بواجبهم نحوهم ، وهم لا يستطيعون أن يقرءوا صحيفة ، أو يكتبوا رسالة وبعد ما قدمناه من الأمثلة للعظماء من أبناء الفقراء نسأل :

هل لدينا كثير من أمثال الفارابي و (هليل العبري ، وجونسون ، وماكولي ، وشارلز ديكينز ، وأبراهام لينكولن ، ورمزي مكدونالد ، والورد بركنهد ، وهوفر ، و... ؟) نعم لدينا كثير من الأذكاء من أبناء الفقراء . ويجب أن نبحت عنهم في المدارس الأولية والإلزامية ، ونختارهم بكل أمانة ودقة ، ونتيح لهم أكبر فرصة ممكنة ؛ ليتعلموا التعليم الذي يلائمهم ؛ لينتفعوا بعواهم ، وتنتفع الأمة بهم .

التعليم حق توجبُه الإنسانية

كما أن من حقوق الإنسان الحياة والملكية والحرية، فكذلك التعليم حق من حقوق الإنسانية، يجب ألا يختص به فرد دون آخر، وأن يعم الأغنياء والفقراء، بنين وبنات، مدنيين وقرويين، بحيث تتاح فرصة التعليم لكل مصرى ومصرية. فالتعليم هو الحق الأول الذى توجبُه الإنسانية، وتستدعيه المدنية، ويتطلبه حق المساواة بين الأفراد فى الفرص والتعليم. فليس من الإنسانية أن يعلم هؤلاء الأفراد لأنهم أغنياء، ويحرم هؤلاء التعليم لا سبب إلا أنهم فقراء. ولو اقتدينا ببعض الأمم الراقية فى إتاحة الفرصة للأذكاء من الفقراء فى التعليم — بأن تتولى الدولة الإنفاق عليهم فى جميع مراحل التعليم، على أن يردوا لها ما أنفقته عليهم مدة دراستهم بعد الابتداء فى الحياة العملية — لقمنا بأكبر عمل تقتضيه الإنسانية، وتحتاج إليه مصر فى العصر الحاضر؛ فإن مصر إن كانت فى حاجة فهى فى حاجة كبيرة إلى تعميم التعليم فى أقل وقت ممكن.

(پستالوتزى) أب لمدرسة الشعب :

لم تنجح الأمم الراقية فى تعميم التعليم إلا بعد عصر (پستالوتزى) المتوفى سنة ١٨٢٧؛ فكثيرا ما نادى ذلك المربي الكبير، والمصلح العظيم، بتعليم العامة والدماء. ولا غرابة إذا سُمى — وعدلاً سُمى — (أباً لمدرسة الشعب) أو العامة. ولقد أظهرت كل أمة متمدنة منذ ذلك العصر ميلا شديدا، ورغبة كبيرة فى تعليم

الدهاء من الناس ، فأنشئت المدارس الكافية ، وأوجد المال الكافى للإنفاق عليها وعلى مبانيها ، وأعدت المناهج ، ورُسِّمت الطارق والخطط ، وأعد المعلمون .

مثل لتعميم التعليم بالولايات المتحدة بأمریکا

ولأضرب مثلاً بالتعليم فى الولايات المتحدة منذ خمسين سنة فأقول : إن التعليم بها كان غير عام ، حتى إن بعض عظمائها أمثال (واشنطن ، وجكسون ، وهنرى كللى ، وأبراهام لنكولن) لم يتعلموا التعليم الحق . وكانت المدارس العالية قليلة ، والسنة الدراسية قصيرة ، والمواد محدودة ، وهى : (القراءة والكتابة والحساب فقط .) وكان البنون يتعلمون الأعمال اليدوية فى الحوانيت ، والزراعية فى المزارع والحقول ، أما البنات فكان تعليمهن مقصوراً على التدبير المنزلى ؛ فكانت الأسرة معهداً للتعليم الخلقى والدينى والاقتصادى . وكانت المعامل الكبيرة والمحازن العظيمة غير معروفة ، والناس يعيشون عيشة طبيعية ، والعامل يشتغلون بأيديهم أكثر من شغلهم بالآلات . وكان الفقر عامّاً ، والتعليم أولياً يكتفى الناس منه بالقليل . وكانت مهنة التعليم غير مقصورة على الأكفاء ؛ بل كان الباب مفتوحاً على مصراعيه ؛ فكان يشتغل بهذه المهنة كثيرون من الجهلة الذين يتخذون التعليم مهنة لهم ؛ فكان الأطفال ضحيّتهم ، وهى تضحية لا تقابل بالمال ، تضحية بوقتهم ونشاطهم ومستقبلهم وحياتهم الإنسانية الغالية . . .

احتجت الأمة وشعر الناس جميعاً بالخطأ فى التعليم ، والحاجة إلى الإصلاح ؛ فإن التعليم لم ينتج ما يريده الشعب الأمريكى من النتائج ، ولم يستفد الناس منه الفائدة المرجوة ، ولم يغير هذا التعليم السطحى شيئاً من خلقهم ، فكانت أصوات

الانتخاب تباع وتشتري ، والجرائم منتشرة . وكان العمال مظلومين يتحكم الأغنياء فيهم ؛ فيقبلون من يشاءون ، ويرفضون من يريدون ، فلم يغير التعليم السطحي من عاداتهم في الترف وحب النفس ، ولم يزيدوا على أسلافهم إلا أنهم كانوا يستطيعون كتابة أسمائهم .

كل هذه الأمور برهنت للرئيس (إليّت) بجامعة (هارفارد) على الحاجة إلى إصلاح التعليم ؛ ثقة بأن التعليم الصالح ينتج نتائج صالحة من الوجهة الخلقية ، والأدبية ، والاجتماعية ، والعلمية ، والصحية . فإذا وجدت عيوباً في شعب من الشعوب فاعلم أنها ناشئة عن عيوب في التعليم . فلو أصلح التعليم استرسلت العيوب الإنسانية ؛ فالعلم الذي لا يؤدي إلى السكال ليس بعلم . ولا خير في التعليم إذا لم يعمل للوصول إلى التهذيب والحياة الكاملة .

هذا المثل إذا تتبعناه وجدناه درساً نافعا لنا في الوقت الحاضر حيث نشكو من الشكوى من المستوى الخلقى والاجتماعى ، والعلمى والصحى . فإذا أردنا أن نهض ونصل إلى مستوى الأمم الأوروبية الراقية فلا علاج لنا إلا تعميم التعليم الصالح .

فبالتعليم - والتعليم فقط - يمكن إصلاح مصر من جميع وجوه الحياة . إننا لا نقول : في فتح مدرسة إغلاق سجون فحسب ؛ بل في فتحها نطلب حياة كاملة بأجلى معانيها في الحياة المصرية ، والمجتمع المصرى . وإذا قلنا بالتعليم قلنا بإيجاد مال ومدارس ومدرسين لتعميم التعليم ؛ حتى نرى مصر الحديثة قطعة من أوروبا - كما قلنا من قبل - فننفذ رغبة إسماعيل المصلح العظيم ؛ انراها كغيرها من الدول العظيمة علماً وصناعة وثروة واقتصاداً . وبذلك نقضى على الجهل والأمية ، ونقدم في الصناعة والزراعة والتجارة .

تسهيل سبيل التعليم بالولايات المتحدة بأمريكا :

كل مدرس أمريكي يعلم علم اليقين أن مدارس الشعب في الولايات المتحدة نتيجة عراك طويل ، و قتال شديد ضد النظرية الفاسدة التي كانت منتشرة في العالم الأوروبي والأمريكي في القرن الثامن عشر ، وفي النصف الأول من القرن التاسع عشر . تلك النظرية هي : « أن قليلا من الناس خلُقوا ليحكموا ، وأن الأكترية خلقت لتطيع طاعة عمياء ، وتخدم من غير أى اعتراض » . وقد كان الحكام المستبدون في خوف دائم من تعليم الدهماء ؛ لأن الحكام إذا كانوا ظالمين لا يأمنون على أنفسهم حينما يبدأ الناس التفكير لأنفسهم وبأنفسهم أما الحاكمون العادلون فيؤمن مستمر ، ولا يقدرهم حق قدرهم إلا الشعب المتعلم ؛ فالأمة الجاهلة لا تميز الحسن من القبيح ، والنافع من الضار . أما اليوم فقد شعر العالم أجمع بأن التعليم هو الوسيلة الأولى للتفاهم مع العامة . فبالعليم تستنير أفكارهم ، فيسيرون في الطريق المستقيم ، ويحكمون عقولهم ، فيميزون الفضيلة من الرذيلة ، والخير من الشر .

مدارس الشعب بأمريكا :

هي بساتين جميلة يتعلم فيها الأطفال الإخلاص لبلادهم ، والحب لوطنهم . وبها تحفظ حقوقهم ، وتصان حريتهم . وهي الوسيلة الكبيرة للتوحيد بين السكان على اختلاف نزعاتهم وميولهم ، وعاداتهم وأخلاقهم ؛ فقد استوطنها كثيرون من الأمم المختلفة . وليس التوحيد بين هؤلاء السكان بالأمر السهل ، ولكن مدارس الشعب قد جعلتهم أمريكيين ، ووحدت بينهم ، وبثت في نفوس أبنائهم حب بلد اتخذوه بلدا لهم ، والإخلاص لوطن جعلوه وطناً لهم .

والفضل كله لمدارس الشعب التي تصور فيها (الديمقراطية) الأمريكية بأجلى معانيها ، ويتربى بين جذرائها روح الوفاء والإخلاص ، وتصفق الأيدي لغرض واحد هو إعطاء كل طفل من الأطفال أكبر فرصة يتعلم فيها ؛ حتى يصل إلى أرقى درجة يمكنه الوصول إليها بقواه الشخصية . وهنا تظهر المقدرة والكفاية ، والنبوغ والعبقرية ، ويعطى كل ذى فضل فضله ، وكل ذى حق حقه ، وتحدث المنافسة بين الأفراد والجماعات فى الإصلاح والاختراع والإبداع ، والتكوين والتجديد ، والتهذيب والتقويم ، فيرقى العالم ، وتكثر المخترعات ، وتصل الأمة إلى أقصى درجات الحضارة والمدنية ، والعلم والعرفان ، فيعلو مستوى الشعب فى الحياة ، والصحة ، والمعيشة ، والسكن ، والمدنية ، وفى كل أمر من الأمور . والفضل كله لمدرسة الشعب أو لتعميم التعليم .

ولمدارس الشعب فى الولايات المتحدة بأمريكا منزلة كبيرة فى القلوب ، وحب عظيم فى الأفئدة ؛ فالأمريكيون ينظرون إلى هذه المدارس نظرة كلها حب وإجلال وإخلاص ، نظرة من يقدرها ويعرف قيمتها . ويعتقدون أن بالمدرسة - وبالمدرسة ليس غير - تستطيع أمريكا أن تقود العالم فى التفكير والاختراع ، والصناعة والتجارة والاقتصاد . لذلك تجدهم يدفعون ضرائب التعليم لمعاودة مدارس الشعب بقلوب راضية ، ونفوس مطمئنة ، ويعدون لها واجبا عليهم نحو أمتهم التي يقدرونها حق قدرها ، ويفخرون بالانتساب إليها ، ويعملون لإسعادها وترقيتها والنهوض بها . يعدون ضرائب التعليم من الضروريات لرفع مستوى الأمة والمحافظة على هذا المستوى . ويعملونها وقفا للمنفعة العامة ، والفائدة المشتركة بين طبقات الشعب ، فيعطون بسخاء من غير تدمير أو تألم .

وحبذا الأمر لو اقتدينا بالأمريكيين فى حب العلم والتعليم ، وقمنا بفرض ضرائب

خاصة بالتعليم تكفى إنشاء المدارس التى نحتاج إليها ، على أن تكون إجبارية بالمجان؛ حتى تغلب على الأمية ، وتنبأ مصر المكان الذى ترنو إليه بين الأمم الراقية .

وإذا استمرت الأمور كما هى ، وبقى الآباء وحدهم مكلفين القيام بتعليم أبنائهم فإن كثيرين من الأطفال يهملون من غير تعليم . فمن الواجب أن نجبر الآباء على إرسال أبنائهم إلى المدارس ، وأن نفتتح من المدارس ما يكفى لتعليم كل طفل مصرى ، وكل غلام أو شاب لم يصله التعليم . ومن المحال أن يعمم التعليم فى أى بلد من البلاد إذا لم تتقدم الدولة بنفسها على أنها وصية ومراقبة للتعليم ، وتعمل لتنفيذه وتعميمه . ويتضمن عمل الدولة إيجاد عدد كاف من المدارس النهارية والمسائية المجانية لنشر العلم والتعليم .

ولا يمكننا بحال من الأحوال أن نعمم التعليم ونجعله يعم كل طفل من الأطفال إلا إذا كانت هناك مدارس كافية لتعليم الجيل الجديد من الأطفال . حقاً سيبارك الله الشعب الذى يزين أوديته وقراه بالمدارس . سيبارك الله الجيل الذى يخصص شيئاً من ثروته وذخيرته بالتعليم ، فيجى به أرواحاً أماتها الجهل ، وقتلتها الأمية . ولا ضريبة أكثر شرعية من الضريبة التى توضع وتجبى لإزالة الجهل ، وإنارة العقول ، وإحياء الأرواح ، وتكوين رجال ونساء يخدمون بلادهم وأنفسهم .

انجلترا وتعميم التعليم

التعليم عام في إنجلترا :

إن التعليم القومى الآن إجبارى عام فى إنجلترا ؛ فلا تجد فيها اليوم أمياً لا يعرف القراءة والكتابة ، فالخادم تقرأ صحف الصباح والمساء كما تقرأها سيدتها . ولقد ضحت إنجلترا فى سبيل تعميم التعليم وترقيته بكل ما فى استطاعتها من مال ومعونة ورأى وإرشاد وتشجيع ، وبذلك كل ما أوتيت من قوة فى سبيل تنفيذه بالقانون ، وكانت النتيجة أن نسبة المعلمين فيها الآن ١٠٠٪ .

ويعد التعليم بها مدنيا لا ريفياً . فالمدرسة العادية التى تعد فيها مثلاً للتعليم مدرسة مدنية ، بها مدرسون بقدر عدد الفصول إن كانت مدرسة أولية - وهى والابتدائية سريان الآن - فإن كان بها أربعة فصول كان بها أربعة من المدرسين ، ويعد الناظر واحداً منهم إذا كانت المدرسة صغيرة . وقد يكون فى الفصل سنتان دراسيتان يقوم بتعليمهما مدرس واحد . ويقوم الناظر والمدرسون بالأعمال الكتابية التى تتعلق بالمدرسة من حضور وغياب . . .

وقد أثرت المصانع المنتشرة بها فى طريقة التعليم فى كثير من الجهات الصناعية ؛ ففى تلك الجهات تجد التعليم الصناعى منتشرًا يلحق به كثير ممن ينتهون من التعليم الأولى أو الابتدائى .

وقد كان للأخلاق الإنكليزية أثر فى نظام التربية والتعليم بمدارسها ؛ فقد روعى فى ذلك النظام تقاليد الشعب وعاداته القومية ، وأخلاقه التى يعرف بها بين

الأجناس البشرية من : الهدوء ، والمحافظة على القديم ، والقدرة على ضبط النفس ، وكتمان الشعور ، والثقة بالنفس . فإذا سألت الرجل الإنكليزي : هل يمكنك أن تعمل كذا ؟ قال : سأحاول . فالثقة بالنفس شعار التعليم الإنكليزي ، والحياة الإنكليزية . ويجب ألا ننسى أن الرجل الإنكليزي يحب الحرية الشخصية فوق كل شيء . وقد قاتل في سبيل تلك الحرية أكثر من ألف سنة . وهو مولع بالألعاب الرياضية ، رابط الجأش ، كثير الصبر ، محب للإحسان ، قليل القول ، كثير العمل ، صريح في قوله ، وفي بوعده . إذا سألته عن أمر أجابك بما في نفسه ؛ فهو يقول ما يعتقد ، ويعتقد ما يقول . لا يحب الملق ، ويكره المتكافين . يعرف ماله من حقوق ، وما عليه من واجبات . يحب العزلة والوحدة . لا يحادثك إلا إذا تعارف بك . وإذا حدثك كانت محادثته في الغالب عن الجو . والجو لحسن الحظ كثير التغير والانقلاب بالجلجلة ؛ من اعتدال في الطقس إلى ضباب ، أو مطر أو برودة ، أو عاصفة أوردع وبرق . وإذا زالت الكلفة تحدث معك في أي موضوع عام ، كالخيانة والتمثيل والألعاب الرياضية ، والموضوعات الأدبية والسياسية والاجتماعية ، وتجنب الأمور الشخصية . وهو يميل دائماً إلى التحفظ في الجواب ؛ فلا يجيب إجابة الجازم المتحقق ، ولكنه يجعل للشك دخلاً في كل ما يقوله ، ويجيب دائماً بكلمة « أظن » أو « ربما » . وهو بذلك يخالف الرجل الفرنسي الذي يميل كثيراً إلى الجزم واليقين .

وقد كان الذهاب إلى المدرسة اختيارياً يذهب إليها من يشاء من التلاميذ ، ثم تبين أن من المحال تعميم التعليم إذا ظل اختيارياً ، فغير هذا النظام ، وجعل إجبارياً . وكان التفتيش الطبي بالمدارس اختيارياً ، ثم غير وجعل إلزامياً .

ولدى المدرس الإنكليزي عموماً وناظر المدرسة خصوصاً حرية أكثر من الحرية التي يجدها المدرس أو الناظر في أي قطر آخر . وفي كل مدرسة ابتدائية أو ثانوية

يقوم الناظر والمدرسون بوضع المنهج وعمل جدول أوقات الدروس للمدرسة . وتحاف
انجلترا شيئاً واحداً هو أن يكون التعليم على نسق واحد في جميع أنحاءها كما في
ألمانيا وفرنسا .

وإن انجلترا أمة عملية لا تدين بالنظريات ، ولكنها لا تمتنع عن أن تعمل
بالنظريات التي يمكن تنفيذها ، والتي تؤدي إلى نتائج عملية . ولا ينكر أحد أن النظرية
التي لا يمكن تنفيذها لا فائدة منها . ولا خير في العلم إذا لم يصحب بالعمل . ولذا
كانت طريقة التعليم بها طريقة عملية توافق حاجات الشعب وحياته .

فمدارس انجلترا مدارس عملية ذات قوة كبيرة وتأثير عظيم في تهذيب الأخلاق
وتقويمها ، وإعداد رجال مخلصين عمليين يثقون بأنفسهم ، ويشعرون بما يجب عليهم
لغيرهم ، ولا يفرون من تحمل تبعة أى عمل يقومون به .

والحق أن المستوى العام للتعليم عال . والفضل في رقى مستوى التعليم بها يرجع
إلى المثل الأعلى الذي تدين به ، وهو التعلم رغبة في التعلم ، والعلم لذات العلم ، لا للأموال
المادية . وإن نظرة عامة إلى التعليم في انجلترا سنة ١٨٢٨ ، والتعليم بها اليوم تكفى
لبيان مقدار ما قامت به وزارة التربية والتعليم من العمل الجليل في نشر التعليم وتعميمه
وتنويمه ، وترقية مستواه ، وفتح الباب أمام الفقراء ، وإعطائهم الفرصة في الحياة ،
وفي التعلم .

لم تنجح وزارة الأحرار بانجلترا سنة ١٨٣٩ ولا وزارة المحافظين سنة ١٨٤٣ في حل
مشكلة التعليم الأولى . وفي منتصف القرن التاسع عشر وُضعت طريقة بها يتعلم نحو
٢٠٠٠٠٠٠ من الأطفال . وفي سنة ١٨٧٠ صدر قانون التعليم العام فلا الفراغ الذي
كان إذ ذاك ، وأزال النقص الظاهر حينئذ في التعليم ، وسوّى بين جميع الطبقات في أن
ينال كل فرد قسطه من التعليم الأولى ، فأعطى الكل حق المساواة في فرصة التعلم ، وأباح

لمجالس التعليم أن تفرض ضريبة خاصة به ، وصار النجاح محسباً ، وتضاعف عدد المدارس ، وتحسنت المواظبة كثيراً ، حتى صارت عادية .

وفي السنة التي جعل فيها التعليم إجبارياً كان عدد الأطفال في المدارس الأولية ١٤٠٠٠٠٠ . وفي سنة ١٨٩٢ بلغ عددهم ٥٠٠٠٠٠٠ . واليوم لاتجد أثراً للأمية بالإنجلترا .

وفي سنة ١٨٩٢ كان التعليم المجاني ممكناً ، وفي السنوات العشر التالية كان حقيقة .

قوانين الذهاب إلى المدرسة الإنكليزية :

كل طفل تثبت قدرته جسمياً وعقلياً يُكلف الذهاب إلى المدرسة من الخامسة إلى الرابعة عشرة . وتفتح المدارس الأولية أو الابتدائية ٤٢ أسبوعاً في السنة . ويذهب التلاميذ إلى المدرسة خمسة أيام في الأسبوع ؛ لأن السبت والأحد من أيام العطلة ، فجموع الأيام الدراسية في السنة ٢١٠ يوم . وللمدرسة الأولية الحق في أخذ الإعانة الحكومية على من يواظب من التلاميذ ؛ بحيث لا يقل الحضور عن مائتي يوم في السنة .

ويمتلك الطفل في المدرسة خمس ساعات ونصف ساعة كل يوم ، من تمام التاسعة صباحاً إلى منتصف الساعة الخامسة مساءً . ويعطى الأطفال فترة للغذاء مدتها ساعتان . فالطفل في التعليم الأولي يقضى تسع سنوات في التعلم . ونسبة المواظبة تسمون في المائة . ومن هذه النسبة والمدة نستنبط أن الأطفال في إنجلترا يقضون وقتاً كبيراً في المدارس الأولية والابتدائية .

ويسمح لهم بالذهاب إلى قسم صغار الأطفال من الثالثة إلى الخامسة من العمر ، ولكن ذهابهم في هذه السن اختياري ، وليس باجباري .

وكان القائمون بأمر التعليم في الماضي لا يشجعون ذهاب هؤلاء الصغار إلى المدرسة في تلك السن المبكرة ، ولكنهم اليوم يستحسنون ذهابهم إلى مدرسة الأطفال ؛ تلك المدرسة التي تراعى فيها طبيعة الطفل ونفسيته وغرائزه وميوله ، وتعنى بتربيته من النواحي الجسمية والعقلية والخلقية والاجتماعية . فهي خير للطفل من بيت فيه كثير من الإخوة والأخوات ، وليس به إلا أم فقيرة ليس لديها خادم ، وتقوم وحدها بإدارة منزلها وتنظيفه ، وشراء الطعام وإعداده ، وغسل الآنية وتجفيفها ، وغسل الملابس وكيها . فأم كهذه ليس لديها وقت يسمح لها بالعناية التامة بأبنائها كما ينبغي . فمدرسة الأطفال خير لهم من المكث في بيت لا يجدون فيه كل العناية ، وخير للأمهات ؛ لأنهن لا يستطعن القيام بما يتطلبه المنزل والأولاد في وقت واحد .

تيسير سبل التعليم بالجلترة :

في إنجلترا تسهل كل السبل أمام الآباء والتلاميذ ؛ فلمدارس الابتدائية والزراعية والصناعية والتجارية والتكميلية كلها بالمجان . وإذا كان الأطفال الريفيون يبعدون عن المدرسة ميلاً أو أكثر أمدتهم المجالس المحلية بعجلات تنقل الصغار منهم إلى المدارس بغير مقابل . أما كبار التلاميذ فيعطى كل منهم دراجة يستعملها في الذهاب إلى المدرسة على أن يردها في نهاية السنة . ويقبلون في القسم الداخلي إذا كان في المدرسة الابتدائية الريفية قسم داخلي . وبذلك لا يكون للآباء عذر في عدم إرسال أبنائهم إلى المدارس . ويسألون أمام القضاء إذا أهملوا إرسالهم . والفقراء في إنجلترا

يتعلمون من الخامسة إلى ما بعد الرابعة عشرة . وقد بذلت الحكومة الإنكليزية وتبذل كل جهدها في نشر الثقافة والعلم في بلادها بكل الطرق والوسائل . ولا تجد أبواب المدارس مقفلة في وجه أحد ؛ فإذا ادعى ناظر المدرسة الابتدائية أنه لا يستطيع أن يقبل تلميذا من التلاميذ لأن المدرسة مملوءة كُفأ أن يقبل هذا التلميذ بأى وسيلة من الوسائل . وحينما يدخل التلميذ المدرسة يفحص الطبيب عن أسنانه ونظيره وصحته ؛ فإن كان ضعيف النظر طوّل القائم بأمره بشراء منظار له . فإن كان فقيرا أمكنه الإتيان بمنظار بالمجان من إحدى الجماعات الخيرية التى تساعد الفقراء الضعاف النظر من التلاميذ . وإن كان لا يستطيع أن يرى أرسل إلى مدارس فاقدى البصر . وإن كان أصم أو أبله أرسل إلى مدارس الصم والبكم . وإن كان ضعيف الجسم أرسل إلى مدارس الهواء الطلق . وإن كان ضعيف العقل أرسل إلى مدارس ذوى العاهات العقلية . وبهذه الوسيلة يجد كل فرد ما يناسبه من أنواع التعليم ، ولا يحرم أحد التعليم ؛ فهو حق من حقوق كل إنسان ، فكما أن من حقوق الإنسان الحياة فلا يجوز أن يتعدى على حياته أحد ، والملكية فلا يصح أن يتعرض لملكه أحد ، والحرية فلا يجوز أن يستعبده أحد ، فكذلك من حقوقه التعليم ؛ بأن تقوم كل أمة بتعليم أبنائها الذين ينتسبون إليها . فالتعليم للإنسان من ضروريات الحياة كما ذكرنا أكثر من مرة .

مدارس الشعب بالإنجليزية

إنك تجد بين مدارس الشعب مدارس حديثة وأخرى قديمة . فالأولى صحيحة حديثة البناء، والأخرى لم يُعن فيها غالبا بكل الوسائل الصحية الحديثة، وهى مدارس دينية قديمة بنيت بجانب الكنائس، يتعلم فيها التلاميذ التعليم الدينى صباحا، بواسطة

مدرس أو معلم من الكنيسة ، ويتعلمون بقية العلوم بعد التعليم الدينى . ولا أبالغ إذا قلت : إن من المدارس التى رأيتها مدرسة تتصل حُجَرها بعضها ببعض ؛ فإذا أردت دخول حجرة اضطررت إلى الوصول إليها من حجرة أخرى ، فترعج المدرسين والتلاميذ ، ونقطع عليهم أفكارهم . وقد تنقسم الحجرة الواحدة فصلين ؛ بوضع ستارة أو حاجز من النسيج بينهما . والحق أن الإنكليز يعنون بتثقيف العقول ، وتربية الأخلاق والأجسام والأبدى أكثر من العناية بمظهر البناء . وغرضهم الوحيد أن ينال كل طفل حقه فى التعلم ؛ ليصل إلى السكال بالتدريج . ولو كان الجو فى إنجلترا كالجو فى مصر من : شمس جميلة ، وسماء صافية لعلم الإنكليز أبناءهم وبناتهم فى خيام فى الهواء الطلق معظم أيام السنة .

المباني المدرسية والملاعب بالجلترة :

لم تتقدم أوروبا فى نوع من المباني المدرسية تقدم الولايات المتحدة الأمريكية التى تفخر بمدارسها العظيمة . وأهم ميزة تمتاز بها المدارس الإنكليزية ملاعبها التسعة المنتظمة . وينص القانون الإنكليزى على أن الإعانة المدرسية لا تمنح إلا بالشروط الآتية وهى : —

- ١ — أن تكون المباني المدرسية صحية، آمنة فى حال الحريق ، ليس فيها خلل فى البناء .
- ٢ — أن تكون دورة المياه التى بالمدرسة صحية .
- ٣ — أن يكون بها حجرة يخلع فيها التلاميذ والمدرسون معاطفهم ، ويغيرون فيها أحذيتهم عند الضرورة .
- ٤ — أن يكون فيها الضوء الكافى ، ووسائل التدفئة والتهوية والنظافة .

٥ — أن تكون كافية لتعليم الأطفال الملحقين بها .

٦ — أن تكون إدارتها منظمة كما ينبغي .

٧ — أن تكون بها الأدوات الضرورية من مقاعد وأدراج وسبورات ... الخ .
ويراعى في المدارس الجديدة التى تنشأ قبل الموافقة عليها شرط ثامن ، وهو أن يكون بالمدرسة ملعب يلائم عدد التلاميذ ؛ بحيث يخص التلميذ الكبير عشر أقدام مربعة ، والطفل الصغير ست أقدام مربعة .

منهج المدرسة الأولية الابتدائية بالنجلثة :

فى أوائل القرن التاسع عشر كان التلميم فى تلك المدارس مقصورا على ثلاث مواد ، وهى : القراءة والكتابة والحساب : « The Three R's » ^(١) . أما اليوم فتطالب وزارة التربية والتعلم بالنجلثة باختيار منهج الدراسة من المواد الآتية :
« اللغة الإنكليزية ، والحساب ، والجغرافية ، والتاريخ ، والرسم ، والخط ، ودروس مشاهدة الطبيعة ، والغناء ، وتدريب الصحة ، والرياضة البدنية ، والتدريب المنزلى للبنات ، والأشغال اليدوية ، وفلاحة البساتين ، ودروس الدين والأخلاق ، وصناعة الألبان . »

ولكن الوزارة لا تطلب أن يشمل المنهج كل هذه المواد ؛ فالتقانون ينص على أنه « ليس من الواجب تعلم جميع المواد السابقة فى مدرسة أو فصل » . ويجوز أن يختلف المنهج فى المدارس على أن « تقتنع الوزارة بأن التغيير فيه ناشئ عن حاجة التلاميذ ، أو حاجة المدرسة ، أو أنه وضع بقصد التجربة . » فنظار المدارس يتمتعون

بحرية كبيرة في تحديد المناهج في مدارسهم ، وهم أكفاء يستحقون كل ثقة . ونظرياً نجد في إنجلترا من المناهج بقدر ما نجد من المدارس ، وعملياً نجد مقاييس معينة ، ومستوى معيناً للدراسة ، ولو أن هناك اختلافات كبيرة في المناهج .

ويراعى التنوع في المنهج وفقاً لتقتضيه البيئة المدرسية ، وبذلك يلائم التعليم حاجة الجهة التي بها المدرسة من زراعة أو صناعة أو ملاحاة أو تجارة . ويتوقف اختيار ناظر المدرسة للمنهج على معلوماته وتجاربه ومقدرته وكفايته وشخصيته .

وليس المنهج وجدول أوقات الدروس كل شيء ؛ بل المهم الروح الذي ينفذه ؛ روح العمل الحق ، روح الإخلاص ، روح التعاون بين الجميع . وقد يستطيع الناظر أن يقنع المفتش بحسن مشروعه ، ومع هذا قد يكون روح المدرسة روحاً سيئاً ، ويكون التعليم فيها غير ناجح ؛ لإهمال أو ضعف أو تقصير ، أو لعدم التعاون والإخلاص ، أو للخطأ في الطريقة المتبعة في التعليم .

ويؤخذ التلاميذ مرة في الأسبوع بعد الظهر للاشتراك في ألعاب منظمة في ملعب عام بالمدينة ، فينتفعون كل الانتفاع بهذه الألعاب . وفي المدن التي بها حمامات للسباحة مثل : (مَنشستر ، وإكسستر ، وليفرهول ، وبرادفورد) يشمل المنهج السباحة ، ويتعلمها كل تلميذ تقريباً في أثناء وجوده بالمدرسة .

ويمكننا أن نقول : إن المبادئ الهامة في التربية والتعليم قد روعيت في المدرسة الأولية الإنكليزية ؛ فقد أدرك أولو الأمر منزلة « اليد والعين » في التربية ، فعنوا بالنجارة ، والأشغال اليدوية ، والفنون الجميلة . وقد نظمت الرياضة البدنية وفقاً للعلم الحديث ، حتى صارت المدارس الإنكليزية تفوق غيرها في الألعاب والرياضة البدنية في الهواء الطلق . وليست أشغال الإبرة مقصورة الآن على عمل نموذج واحد طول

العام . ويشجع التلاميذ على كثرة القراءة والاطلاع والاستعارة ، فيبث في نفوسهم من الصغر حب القراءة والكتابة .

ولا غرابة إذا كثرت في إنجلترا العلماء والكتّاب ، والمؤلفون والقراء ، والباحثون ورجال الفن . وهناك يعرف الناس كيف ينتفعون بأوقات فراغهم في قراءة أو كتابة ، أو تصوير ، أو رياضة ، أو رحلة ، أو في تقدير ما في الطبيعة من جمال وفن .

وفيما مضى كانت الفصول مكتظة بالتلاميذ ؛ لأن دراسة عقول الأطفال كانت مهمة ، وكنت لا تجد في المدرسة إلا النظام الآلي المبني على العقاب والإرهاب ، لا الترغيب والتشويق . أما اليوم فالمدارس الأولية تقوم بقسط كبير جداً من التربية والتهديب ، وتعمل لتقويم لغة الكتابة والمحادثة ، وتربية اليد والصوت . قال (الدكتور بالآرد) - وهو من كبار علماء التربية بإنجلترا ، وأحد مفتشي التعليم بلندن - : « إن كانت اليد الإنسانية هي الاختراع العظيم للقرن التاسع عشر فاللسان الإنساني هو الاختراع العظيم للقرن العشرين ؛ فبتثقيف اللسان تثقف العقل في الوقت نفسه . » فالخطابة والإلقاء ، والتمثيل والغناء لها الآن مكان كبير في المدرسة والتعليم .

العناية بالطفل في إنجلترا :

في إنجلترا اليوم عناية كبيرة بتربية الأطفال تربية صالحة . وإن نظرة واحدة إلى صورهم اليوم وصورهم منذ ثلاثين سنة تظهر لك فرقاً كبيراً بينهم اليوم وبينهم بالأمس . وهذا يدل دلالة واضحة على مقدار العناية بالطفل ، والنهضة الكبيرة في التربية والتعليم .

والحق أن الطفل يجد من يفكر فيه كل التفكير في البيت والمدرسة والمجتمع ، ولا يقف الفقر عائقاً في سبيل تعلم أى فرد من الأفراد التعلم الذى يلائمه .

قال (السير شارلز تريفلين) وزير المعارف بأنجلتره سنة ١٩٣١ في المؤتمر الصحى العام^(١) : « إنى لسرور كل السرور ؛ لأن حال الطفل اليوم أحسن منها كثيرا فى الماضى ؛ فالطفل فى أيامنا أطول قامة ، وأثقل وزنا ، وأفضل تغذية من الطفل منذ عشرين سنة . لقد نجحنا فى مكافحة ضعف الأطفال الناشئ عن عيب فى البصر ، أو نخر فى الأسنان ، أو تضخم فى اللوز والغدد . . . ولقد اتجهت العناية فى المدة الأخيرة بضعاف الأطفال الذين تستدعى حالهم الخاصة أن يتوافر لهم القدر الكافى من الهواء النقى ، ونور الشمس ، والراحة ، والتغذية المناسبة فى المدارس التى تدرس فى الهواء الطلق . . . » .

وقال أيضا : « ليس هناك شئ جذب اهتمامى العظيم ، ولقى منى كل عناية وتشجيع أكثر من مسألة تقديم الطعام لأطفال المدارس » . وقد تمنى أن تعم هذه الطريقة جميع المدارس ؛ لأن الطعام من مستلزمات الصحة . وقد ذكر أثر اللبن فى صحة الأطفال الذين يرزحون تحت عامل سوء التغذية وقال : « إن كمية اللبن التى يقدمها المجلس الوطنى لأطفال المدارس كبيرة جدا ؛ فاللبن يقدم الآن (كان ذلك سنة ١٩٣١) لخمسة ألف طفل صغير . وإن كل طفل دون الثامنة يعطى رطلا كاملا منه » . ولقد تحسنت صحة هؤلاء الأطفال الفقراء كثيرا على اللبن^(٢) . ولا ينكر أحد اليوم أثر الغذاء فى الصحة ، وأثر الجسم فى العقل . وما أشد حاجة الأطفال فى البيئة الفقيرة إلى المساعدة فى التغذية .

(١) ارجع إلى كتاب : « التربية الإنكليزية » للمؤلف .

(٢) وقد بدأنا فى مصر بتغذية عدد كبير من تلاميذ المدارس الإلزامية والأولية وهى خطوة مباركة ، تذكر للوزارة بالشكر ، ونرجو أن تعم التغذية جميع المدارس فى كل الجهات الفقيرة من البلاد .

العناية بالشئون الصحية في المدرسة الإنكليزية^(١) :

لقد عنيت إنجلترا عناية تامة من أوائل القرن العشرين بالشئون الصحية والتربية البدنية في مدارسها ، فسنت قانونين :

١ — قانون إطعام الأطفال في المدارس . ٢ — قانون التفتيش الطبي .
فنجحت نجاحا كبيرا في تحسين صحة النشء ، وجعل الطفل صالحا للتعليم ، قادرا على التعلم ، وصار التعليم موافقا لمدارك الأطفال ومستواهم . ولا عجب إذا ظهر نشء جديد ، وجيل حديث ، نشأ في عصر يخالف العصر الماضي ، ويفوقه رقيًا في المستوى ، وفي العناية بالصحة والتربية البدنية . وكان للتفتيش الطبي والعناية بالشئون الصحية ، وحسن معاملة الأطفال أثر كبير في تحسين أحوال التعليم والتلاميذ والمدارس .
وليس الغرض من التفتيش الطبي في المدارس الإنكليزية إعطاء إجازات مرضية ، ولكن الغرض الفحص عن المريض فحفا دقيقا ، ثم معالجته بعد معرفة المرض وأسباب الوقاية منه . فطبيب المدرسة يعرف كل ما يتعلق بالحال الصحية للتلاميذ ، ونموهم الجسمي ؛ بالبحث عن الأمراض المدرسية ، ونصح التلاميذ بطريقة العلاج الملائمة ، وتعويدهم العادات الصحية .

وفي (لندن) تقوم الممرضات باختبار التلاميذ كل ثلاثة أشهر ، ووزنهم وقياسهم ؛ لمعرفة مقدار نموهم الجسمي ، واختبار بصرهم ، وإرسالهم إلى طبيب العيون إذا اقتضت الحال ذلك .

(١) قد عنيت وزارة المعارف في السنوات الأخيرة بالتفتيش الطبي ، وإنشاء الوحدات العلاجية في المدارس المختلفة ، للفحص عن المرضى من الأطفال ومعالجتهم بالمجان . وهو مشروع جدير بكل شكر وتشجيع .

وفي كثير من المدارس فصول لمعالجة الأطفال الذين يحتاجون إلى علاج
واللعناية بالشئون الصحية والتربية البدنية قلَّت نسبة الوفاة بين الأطفال . ولإرشادات
الأطباء والمرضات وعناية الآباء أثر كبير في تحسين مستوى الصحة والجسم .
والطفل اليوم أكثر نظافة ، وأحسن سلوكا ، وأذكى عقلا ، وأسعد حياة ، وأقوى
جسما ، وأجود صحة .

تعميم التعليم في فرنسا

لقد أصبح التعليم الابتدائي بالمجان في مدارس العامة بفرنسا منذ صدور قانون
سنة ١٨٨٠ ، ثم صار إجباريًا من سن ٦ إلى ١٣ بقانون سنة ١٨٨٢ . ويبلغ عدد
المدارس الابتدائية في فرنسا ٨٥٥٠٠ مدرسة ، وعدد التلاميذ بها ٢٣٢ ٥٣٠ ٥ ،
وعدد المدرسين أكثر من ١٥٦ ٦٠٠ مدرس . وفي سنة ١٩٠٢ بلغت نفقات
الحكومة على هذا النوع من التعليم ١٥٨ ٠٠٠ ٠٠٠ (فرنك) .

ولا يسمح لأحد بالتدريس في (فرنسا) إلا إذا نال المؤهلات الضرورية لمهنة
التعليم . والحكومة وحدها هي التي تمنح درجات الجامعة وإجازات التدريس . وهي
التي تحدد منهج الدراسة لهذه الدرجات والشهادات . لهذا تجد التعليم متحدا ،
والنظام واحدا ، والمناهج متحدة في مدارس الشعب بفرنسا ، سواء أكانت حكومية
أم غير حكومية .

وينتهي التعليم الابتدائي بنيل شهادة الدراسة الابتدائية التي تبيح لحاملها الالتحاق
بالمدراس الثانوية ، وقد صار التعليم فيها بالمجان ؛ فالتلميذ الفرنسي الفقير يستطيع أن
يسير في دراسته الابتدائية ثم الثانوية حتى ينال نصيبه من التعليم الجامعي .

وتنتهى الدراسة الثانوية بنيل شهادة الدراسة الثانوية (البكالوريا) التى تخول صاحبها حق اللحاق بالجامعة . ويتبدى التعليم الجامعى من سن ١٨ .
وإذا لم تسمح حال الطالب العقلية أو الاجتماعية باللاحق بالمدارس الثانوية ؛ ففى استطاعته أن يكمل نفسه بالدراسة فى المدارس الابتدائية الراقية ، والمدارس الفنية : من زراعية أو صناعية أو تجارية ، وهى متوسطة بين المدارس الابتدائية والمدارس الثانوية .

وقديما كان من الصعب على الطفل الفقير - الذى تعلم بالجان فى المرحلة الابتدائية من التعليم - أن يدفع مصروفات المدرسة الثانوية وهى مدرسة (الليسيه) ، ثم فتحت أبواب المجانية بالمدارس الثانوية لمن ينال إجازة المجانية . وكان عدد الجوائز حتى السنوات الأخيرة محدودا جدًّا ؛ فقد كانت لا تمنح إلا بشروط خاصة ، ولهذا لم يستفد منها الفقراء من التلاميذ كثيرا ؛ فلمادة الأولى من قرار المجانية الذى صدر فى ٦ من أغسطس سنة ١٨٩٥ تنص على أن « جوائز المجانية تمنح أطفالاً جنسيتهم فرنسية ، ظهرت مقدرتهم ، وبخاصة هؤلاء الذين قامت أسرهم بخدمة للشعب . ولا تمنح الجائزة إلا إذا ثبت بالبحث والاستقصاء عجز الأسرة من الناحية المالية » . وإذا نظرنا إلى هذه الشروط وجدنا فيها شيئا من الغموض ؛ فمثلا : ماذا يقصد بالخدمة التى تقوم بها الأسرة ؟ وما الذى تتضمنه كلمة أسرة ؟ وهل يراد بها الأب أو الجد ؟ وقد فتحت هذه الشروط بابا للأغراض .

واليوم تجد المدارس الابتدائية ، والابتدائية الراقية ، والثانوية وكليات المعلمين بالجان ، فى حين أن الجامعات بمصروفات قليلة جدا .

ويعتقد الآباء الفقراء من الفرنسيين أن الفرص أمام أبنائهم محدودة ؛ لأنه لا يكفى أن تقوم الحكومة بدفع أجور التعليم ؛ لأن من الضروري الإنفاق على التلميذ فى

أثناء دراسته ، والقيام بنفقاته الخاصة في الوقت الذي لا يستطيع فيه أن يكسب شيئاً مطلقاً ، فكان الفقراء من الآباء يقتصدون من قوتهم ، ويفضلون أن يعلموا أبناءهم مهنة من المهن ، أو حرفة من الحرف التي تساعدهم في كسب عيشهم .
وفي سنة ١٩٢٣ فكرت الحكومة الفرنسية في إعانة الفقراء من التلاميذ لمساعدتهم في نفقات معيشتهم في أثناء التعلم . ومن خلال هذا الباب الضيق في مسابقة المجانية قد مر كثير من عظماء الرجال من أبناء الفقراء . وقد ساعدت هذه المجانية في تخفيف الروح (الأرستقراطية) في التعليم الثانوي بفرنسا .

اليوم المدرسي في المدرسة الابتدائية الفرنسية :

واليوم المدرسي بالمدارس الابتدائية الفرنسية يبدأ من $\frac{1}{8}$ صباحاً إلى $\frac{1}{11}$ ، ثم من ١ إلى ٤ بعد الظهر . ويعد يوم الخميس عطلة أسبوعية .
وتقوم المدرسة عادة بعمل ترتيبات لإعداد أكلات رخيصة للتلاميذ بالمدرسة . وتوضع ترتيبات خاصة لإعداد الدروس بعد اليوم المدرسي تحت رقابة أحد المعلمين .

المنهج الدراسي الابتدائي بفرنسا :

وكل ما يؤخذ على المنهج الدراسي من النقد أن المدرس لا يعطى حرية في التغيير فيه بالزيادة أو النقص . ويشمل المنهج القراءة والكتابة والحساب والتعليم الخلاق ، والجغرافية والتاريخ ، ومبادئ العلوم ، والأشغال اليدوية والرسم والغناء ، والألعاب الرياضية . وقد بذلت جهود لربط دروس مبادئ العلوم والأشغال اليدوية بالأعمال الزراعية والصناعية في الجهة المحلية ؛ لتطبيق العلم على العمل . والعقوبة البدنية محرمة .

المباني المدرسية بفرنسا :

وتقوم المجالس البلدية بإنشاء المباني والمحافظة عليها ، وهي تؤدي الغرض منها ، ولكن يعترض عليها بأن وسائل التدفئة والتهوية فيها ناقصة ، والشروط الصحية غير كاملة ، والكتب المستعملة قليلة ولا تعطى بالمجان ؛ بل يقوم الآباء بدفع ثمنها . وجدران الحجر مجردة من الزينة والزخرفة . وفي المكتبات المدرسية ما يشجع التلاميذ على القراءة والاستعارة والاطلاع .

وكانت (فرنسا) قبل الحرب الحالية تعد عنواناً للمدنية والحضارة ، والتفكير الواضح ، واللغة المنطقية ، والبحث العلمي ، والاقتصاد والاختراع . ولا ينكر أحد أثر العلم في المدنية الفرنسية . وكان يقال : إن (فرنسا) تعد قلباً لأوروبا وروحاً لها ؛ فإذا أصيب القلب أصيبت أوروبا .

تعميم التعليم في سويسرة

التعليم الابتدائي في سويسرة إجباري بالمجان ، ونظامه من أحسن النظم . وكل مقاطعة في سويسرة مستقلة في إدارة مدارسها . ولذا تختلف السن المدرسية قليلاً باختلاف المقاطعات ؛ ففي الشمال الشرقي منها تجدد المقاطعات (البروتستانتية) تعنى عناية كبيرة بالتعليم ، وفيها ينفذ قانون التعليم الإلزامي بكل دقة ؛ ونسبة التلاميذ في المدارس خمس السكان . أما مقاطعات الروم الكاثوليك فلا ينفذ فيها قانون التعاليم الإجباري كما ينبغي . ولذا تجد نسبة التلاميذ في المدارس الكاثوليكية التسع من السكان ؛ أي بنسبة واحد إلى تسعة . ويستمر التعليم إلى سن ١٥ في المرحلة الأولى من التعليم .

عدد المدارس الابتدائية بسويسرة :

وفي سنة ١٩٠١ بلغ عدد المدارس الابتدائية في سويسرة ٤٦٦٣ مدرسة . وكان عدد مدارس الأطفال ٧٦٧ مدرسة ، بها ٤٠٣٤٤ طفل ، وعدد المدارس الثانوية ٥٤٩ مدرسة ، بها ٣٧٩٤٥ طالب . وفي سويسرة كثير من المدارس الخصوصية والعالية والصناعية للطلبة والطالبات ، وفيها كذلك ست جامعات ، ومجمع علمي في (نيو كاتل) ، وبها ٤٤٨٥ طالب .

نفقات التعليم العام بسويسرة :

بلغت نفقات التعليم العام في سنة ١٩٠١ (١٢٦ ٩٧١ ٤٩ فرنك) ، دفعت منها الحكومة (١٩٦ ٩٥١ ٢٤ فرنك) ، وقامت المجالس المحلية بدفع الباقي . ومن هذا نرى أن الحكومة تقوم بنصف نفقات التعليم العام تقريبا بسويسرة . وبعد فقد عرفت من تلك الكلمة الموجزة أن التعليم عام في إنجلترا والولايات المتحدة بأمريكا وفرنسا وسويسرة وغيرها من الأمم المتحضرة . وإننا نرجو ونتمنى بكل قلوبنا أن يأتي اليوم الذي تقضى فيه على الأمية بمصر ، وينال كل مصري حظه من التعليم الذي يلائمه ، ونحتفل بدفن آخر أميٍّ من المصريين إن شاء الله .

حاجة مصر إلى تعميم التعليم

إن كانت مصر في حاجة فهي في حاجة إلى تعميم التعليم فالتعليم — كما قلنا غير مرة — حق لكل فرد من أبناء الأمة . . . ولكي نصل إلى تعميم التعليم نحتاج إلى كثير من المال والمدرسين . أما المال فلا طريقة للحصول عليه إلا فرض ضرائب خاصة بالتعليم، وفرض ضرائب باهظة على الكماليات ، وعلى التبغ والمشروبات الكحولية؛ لنحصل على الأموال الكافية لنشر التعليم ، وإنشاء المشروعات الحيوية لمصر .

وأما المدرسون فمن السهل إيجادهم بالإكثار من مدارس المعلمين والمعلمات ، وتشجيع المتخرجين فيها ليفرغوا لأداء واجبهم ، ويخلصوا في عملهم .

أحقيقة أنه لا يزال لدينا عدد قليل من المكاتب الريفية التي لا يزيد النكتب منها على حجرة واحدة لا شمس فيها ولا نور، ولا نوافذ؟ يجلس الأطفال فيها على الأرض أو على الحصر ، ويشربون الماء المكر في أكواز من الصفيح . وليس فيها من الأدوات المدرسية أكثر من ألواح من الصفيح أو الإردواز . يجتمع في تلك الحجرة أكثر من مائة طفل ، وأحيانا تجد بها مقاعد متعبة ، وأدراجا مكسرة ، وسبورة واحدة تصعب الكتابة عليها . ولا ندرى أهذا مكتب أم مقبرة؟ وهل نحن نعيش حقاً في عصر المدنية والحضارة ، والعلم والعرفان ، والصناعة والاختراع، أو في عصور أخرى؟ إننا لا نلوم القائمين بهذا النوع من المدارس أو الكتاتيب؛ فإنهم فقراء ، قاموا بأنفسهم بإنشائها، ولا غرض لهم إلا نشر التعليم الديني ، والربح القليل منها . لقد قاموا بشيء من التعليم ، وشيء خير من لا شيء . ولكن أفليس من الواجب أن نقوم بإصلاح هذه المكاتب ، والعمل لتعليم أمة عطشة إلى التعليم ، رغبة في

العلم ، ولكنها في حاجة إلى مدارس كافية لتعليم جميع أبنائها وبناتها . إن الأمة تشعر بذلك النقص ، وبالحاجة إلى التعليم ، وبالحاجة إلى آلاف من المدارس للقضاء على الأمية ، ونشر العلم والأخلاق ، كما تشعر بالحاجة إلى التربية البدنية والخلقية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ؛ كي تحيا حياة كاملة بين أرقى الأمم المتحضرة .

إن مصر قد مضى عليها سنوات وسنوات كثيرات وهى تصرخ وتستغيث بمن يعلمها ، ولكن هل تجد من يغيثها وينقذها أو يداويها من داء الجهل الذى طالما اشتكت منه ، وكثيرا ما تأملت منه ؟

نعم ستجد أبناء بررة يتألمون لألمها ، ويشعرون بشعورها ، ويحققون رغبتها ، وينقذونها من شر الجهل المنتشر فيها .

اذهب إلى القرى والأحياء الوطنية فى كل مدينة من المدن ، ثم انظر فى كل طريق تجد كثيرا من الأطفال فى سن التعليم أهملوا ليتربوا فى الطرق ، أو يسألوا الناس ، أو يجمعوا بقايا اللقائف ، فإذا ما كبروا وبلغوا مبلغ الرجال اتخذوا النشل والسرقه ، وقطع الطرق والإجرام - حرفة لهم . وفى النهاية يسجنون . ولو قمنا بتعليمهم تعليما حقا لأنقذناهم من الفقر وذل السؤال ، وأنقذنا أنفسنا من نشلهم وسرقتهم ، واقتصدنا كثيرا من الأموال التى تنفق على المحاكم والسجون . لو علمناهم لقلت السجنون أو عُدِمَت ، وقلَّ عدد المحاكم . فهل نلومهم أو نلوم أنفسنا لأننا أهملناهم ، ولم نعلمهم التعليم الذى ينفعهم ، ويعدهم لأن يعيشوا عيشة راضية ؟

اذهب إلى القرى تجد كثيرا ممن تعلموا كتابة أسمائهم يجلسون ولا عمل لهم حول الحوانيت ، وبجانب الحيطان ، وليس لديهم شئ يفكرون فيه ؛ لأنهم لم يتعلموا كيف يقضون أوقات فراغهم ، وكيف ينتفعون بأوقاتهم ، وكيف يستفيدون من حياتهم ، ويكسبون عيشهم ، ويحيون حياة مثمرة . فالحياة هى العمل ، والعمل

هو الحياة . وإن الرجل الذى لا يعمل هو الحى الميت . هل تجد فى يدهم صحيفة يومية يقرأونها ليعرفوا شيئاً عن الحياة وما فيها ؟ طبعاً لا . فربما تجد بلدة عدد سكانها عشرة آلاف نسمة لا يشترك فى صحيفة واحدة من الصحف فيها أكثر من عشرة ، أما البقية من القوم فحياتهم ضائعة ، ولا يشتغل بالزراعة إلا ذلك الفلاح المسكين ، الذى يضرب به المثل فى الصبر على العمل .

التعليم واجب مقدس

قلنا إن التعليم حق لكل فرد من أفراد الأمة لا فرق بين البنين والبنات منهم . ويقول كل رجل مخلص لبلاده : إن تعميم التعليم أول واجب مقدس يجب أن نعمل لتنفيذه اليوم قبل الغد ، والتخلص من الصعوبات التى تعترضه ، والعوائق التى تعوقه ، سواء أ كانت علمية أم مالية ، فنية أم إدارية .

يظن بعض الناس أن الجهل خير من العلم إذا كانت نتيجة العلم أن المتعلم لا يجد له عملاً بعد انتهائه من حياته المدرسية ، فهل هذا صحيح ؟ إن نسبة التعليم فى إنجلترا مائة فى المائة ، ونسبة التعليم فى الولايات المتحدة بأمريكا تقرب من مائة فى المائة ، فماذا يفعل الشبان فى هذه الأمم المتحضرة بعد خروجهم من مدارسهم ؟ إن كلا منهم يبحث عن عمل يلائمه ، والحاجة تفتق الحيلة . وليس من الضرورى أن يكون الجميع من السكتبة والموظفين ، فليشتغل المتخرج فى المدارس الصناعية بالصناعة التى أعد نفسه لها ، وليعمل المتخرج فى التجارة بالتجارة الحرة ، والمتخصص بالزراعة فى عمل

زراعى ، والمتخرج فى الحقوق بالمحاماة وهكذا . إن الواجب علينا يقضى بأن نعلمهم ونساعدهم على نجاحهم فى حياتهم العملية ، بالسؤال عنهم حتى بعد خروجهم من المدرسة ، ونتابع خطواتهم ، ونصح لهم إذا احتاجوا إلى النصيحة ، ونرشدهم إذا كانوا فى حاجة إلى الإرشاد .

يجب أن يأخذ التعليم قسطه من العناية فى نظر الشعب ، وأن يتيقن كل منا أن التعليم يحل أرفع مكان وأكبر مركز فى عقول الأمة . يجب أن يعمل كل وطنى على أن ينال كل مصرى نصيبه الوافر من التعليم ؛ فالمدارس فى حاجة إلى المساعدة من كل وطنى من أبناء الشعب ، فى حاجة إلى المساعدة المالية والشخصية .

فعلى الأغنياء واجب مقدس هو التبرع بنفس راضية لتعميم التعليم . وعلى الفقراء من الآباء واجب آخر لا يقل عن واجب الأغنياء هو أن يرسلوا أبناءهم إلى المدارس ليتعلموا ، وأن يحملوهم على المواظبة لينتفعوا بالدراسة . وفى إنجلترا يقال : إن إنجلترا تنتظر من كل فرد أن يؤدي واجبه :

“England expects everybody to do his duty.”

وفى مصر أقول : إن مصر تنتظر من كل مصرى أن يقوم بواجبه نحو القضاء على الأمية ، ونشر العلم ، وتعميم التعليم .

يقول زعيم النهضة الأدبية فى مصر والشرق الدكتور طه حسين بك المستشار الفنى لوزارة المعارف :

التعاون والعلم أساس الحضارة والاستقلال^(١)

لعميد الأدب العربي بمصر والشرق الدكتور طه حسين بك

« الموضوع الذى أريد أن أدير فيه هذا الحديث هو مستقبل الثقافة فى مصر التى ردت إليها الحرية بإحياء الدستور، وأعيدت إليها الكرامة بتحقيق الاستقلال. فنحن نعيش فى عصر من أخص ما يوصف به أن الحرية والاستقلال فيه ليسا غاية تقصد إليها الشعوب ، وتسمى إليها الأمم ، وإنما هما وسيلة إلى أغراض أرقى منهما وأبقى ، وأشملى فائدة وأعم نفعا .

وقد كانت شعوب كثيرة من الناس فى أقطار كثيرة من الأرض تعيش حرة مستقلة ، فلم تغن عنها الحرية شيئا ، ولم يجد عليها الاستقلال نفعا ، ولم تعصمها الحرية والاستقلال من أن تعتدى عليها شعوب أخرى تستمتع بالحرية والاستقلال ، ولكنها لا تكفى بهما ، ولا تراهما غايتها القصوى ، وإنما تضيف إليهما شيئا آخر أو أشياء أخرى .

تضيف إليهما الحضارة التى تقوم على الثقافة والعلم . والقوة التى تنشأ عن الثقافة والعلم ، والثروة التى تنتجها الثقافة والعلم . ولولا أن مصر قصرت طائفة أو كارهة فى ذات الثقافة والعلم لما فقدت حريتها ، ولما أضاعت استقلالها، ولما احتاجت إلى هذا الجهاد العنيف الشريف لتسترد الحرية ، وتستعيد الاستقلال .

وليس من النافع أن نندم على ما فات ، ولا من الممكن أن نستدرك ما كان ؛

(١) ارجع إلى كتاب : (مستقبل الثقافة فى مصر . الجزء الأول) للدكتور

بل من الخير الذى يشجذ العزم ويقوى الأمل أن نفكر فيما أتيج لنا من الفوز ،
ونبتهج بما كتب لنا من الظفر فى هذا الجهاد الطويل الشاق الذى انتهى بنا إلى أن
نسترد الاستقلال ، ونحمل العالم المتحضر على أن يعرفه لنا ويؤمن لنا به ، ويتلقانا
فى عصابة الأمم كما يتلقى الأمم الحرة الكريمة .

من الخير أن نعتبط بهذا ونبتهج له ، ولكن على ألا نكتفى بالاغتياب والابتهاج ،
وعلى ألا نشغل بالفرح عن النشاط ، وألا يصرفنا الأمل عن العمل ، وألا نقف أمام
الاستقلال والحرية موقف المعجبين بهما ، المطمئنين إليهما . إنما نأخذها كما تأخذها
الأمم الراقية على أنهما وسيلة إلى الكمال ، وسبب من أسباب الرقى ، لا يكفان عن
العمل ، وإنما يدفعان إليه ، ولا يحدان الأمل ، وإنما يمدانه ويزيدانه قوة وسعة
وانبساطا .

وما أعرف أنى أشفقت من شيء كما أشفق من الاستقلال بعد أن كسبناه ، ومن
الحرية بعد أن ظفرنا بهما . أشفق منهما لأنى أخشى أن يغرانا عن أنفسنا ، ويخيلنا
إلينا أننا قد وصلنا إلى آخر الطريق حين وصلنا إليهما ، مع أننا لم نزد أن
بهما الطريق .

وأشفق منهما لأنهما يحملاننا تبعات جساما حقاً أمام أنفسنا أولاً ، وأمام العالم
المتحضر ثانياً .

وأنا أخاف أشد الخوف ألا تقدّر هذه التبعات ، أو ألا نقدرها حق قدرها .
أخاف أن نقصر فى ذات أنفسنا ، فنهمل مرافقنا ، أو نأخذها فى غير حزم ولا جد ،
فتأخر ونحن خليقون أن نتقدم ، وننحط ونحن خليقون أن نرقى ، ويعود الاستقلال
والحرية علينا بالشر ، وهما خليقان ألا يعودا علينا إلا بالخير كل الخير .

وأخاف أن نقصر فى ذات أنفسنا ، وعلينا من الأوروبيين عامة ، ومن أصدقائنا

الإنكليز خاصة رقباء ، يحصون علينا الكبيرة والصغيرة ، ويحاسبوننا على اليسير والعظيم . ولعلمهم أن يكبروا من أغلاطنا مانراه صغيرا ، وأن يعظموا من تقصيرنا مانراه هيناً ، وأن يقولوا : طالبوا بالاستقلال وأتعبوا أنفسهم ، وأتعبوا الناس في المطالبة به ، حتى إذا انتهوا إليه لم يذوقوه ولم يسيغوه ، ولم يعرفوا كيف ينتفعون به .

أخشى هذا كله ، وأريد كما يريد كل مصرى مثقف يحب وطنه ، ويحرص على كرامته وحسن رأى الناس فيه - أن تكون حياتنا الحديثة ملائمة لمجدنا القديم ، وأن يكون نشاطنا الحديث محققاً لرأينا في أنفسنا حين كنا نطالب بالاستقلال ، ومحققاً لرأى الأمم المتحضرة فينا حين رضيت لنا عن هذا الاستقلال ، وحين أظهرت لنا ما أظهرت من الترحيب وحسن اللقاء في (جنيف) .

نعم وأريد كما يريد كل مصرى مثقف ، يحب لوطنه ، حريص على كرامته ، ألا نلقى الأوروبي فنشعر بأن بيننا وبينه من الفروق ما يبيح له الاستعلاء علينا ، والاستخفاف بنا ، وما يضطرنا الى أن نزدري أنفسنا ، ونعترف بأنه لا يظلمنا فيما يظهر من الاستطالة والاستعلاء .

إن أبغض شيء إلى الرجل الكريم الذى يشعر بالعزة والكرامة ، ويحرص عليهما أن يرى نفسه مضطراً إلى أن يعترف بأنه لم يصلح بعدلها أهلاً .

فليحرص كل مصرى على أن يجنب نفسه وأمه هذا الخزي . وسبيل ذلك أن نأخذ أمورنا بالحزم والجهد منذ اليوم ، وأن نعرض عن الألفاظ التى لا تغنى إلى الأعمال التى تغنى ، وأن نبدأ فى إقامة حياتنا الجديدة من العمل الصادق النافع على أساس متين . »

موازنة بين إنجلترا وألمانيا والولايات المتحدة بأمريكا في الحرية العامة

إن (جون ستيو كارت ميل) هو الأب الروحي للسياسة الإنكليزية . وقد تشبع معظم السياسيين من الإنكليز بمبادئه عن الحرية الشخصية ، وتمسكوا بآرائه ، وجعلوها آراء لهم . ولا عجب إذا قلنا إن في جامعتي (أكسفورد) و (كمبردج) - حيث يتعلم كثير من القادة السياسيين - يعد كتاب (ميل) «عن الحرية»^(١) من أتمن الكتب . ولا غرابة؛ فإن إنجلترا معروفة بين أمم العالم بأنها أمة الحرية . ويرى (ميل) أنه لا يسوغ التدخل في الحرية إلا لحماية النفس ، ولا يجوز استعمال القوة ضد أي فرد من المجتمع إلا لمنع الضرر عن غيره ؛ فللفرد في نظره شخصية مطلقة ، وله سلطان على نفسه وجسمه وعقله .

وهو في رأيه هذا يخالف آراء (تريشك) الألماني القائل في علاقة الحكومة بالفرد : « الحكومة قوة . » « إن روح الحكومة لا يمكنها أن تحمل قوة عالية فوقها . » « ليس لدى الحكومة قاض أعلى منها . » فالألمان يرون أن الحكومة يجب أن تطاع إطاعة عمياء كلها ثقة ، لا ؛ بل يجب أن تعبد تقريباً . ويعتقدون أنها منزهة عن الخطأ ، معصومة من الهفوات ، وأن قانون الأحكام الذي يحاكم به الفرد لا ينطبق على الحكومة . وفي نظير الإطاعة العمياء ، والثقة التامة بسلطتها لا تحمي الحكومة الفرد من التعدي الأجنبي فحسب ؛ بل تكفل له أيضاً عيشه ؛ بأن تمدّه بتعليم صحيح في التجارة والصناعة ، وتعطيه نموذجاً من المساكن الحسنة في مدن صحية ، وتمنحه معاشاً عند عجزه عن العمل ؛ لعاهة أو ضعف أو كبر سن . فيجد الألماني حياة سهلة ، وتموت فيه ملكة النقد ؛ لأن الحكومة تقوم مقامه ، وتنوب

On Liberty (١)

عنه في التفكير ، فهي تريجه وتخليه من التبعة ، وتقوده وترشده بشدة إلى الطرق التي تراها صالحة .

أما الحكومة في إنجلترا فتسمح لكل فرد بأن يختار الطريقة التي بها يخدم بلاده ، من غير أن تمل عليه إرادتها ؛ فلدى الفرد في إنجلترا قوة الحكم ، وبها يمكنه أن يفعل ما يشاء لأمته ، وأن يتصرف بنفسه في الأمور التي تفيدها ، بالوسيلة التي يراها صالحة . وما دام الفرد الإنكليزي يفكر في مبدأ واحد هو خدمة المجتمع ، فلا تهم الطريقة التي يستعملها للوصول إلى غرضه ، وهو خدمة المصلحة العامة .

أما ألمانيا فتضع أبنائها في المكان الذي يلائمها ، وتعين لهم الطريقة التي تراها مؤدية إلى أغراضها ومقاصدها ، والتي تزعم نجاحها ، ولا تترك للفرد حرية اختيار الوسيلة التي بها ينفذ العمل مثلاً ؛ ففكره مقيد بالخطة التي عينت له . فهي تضحي بقوة التفكير والإرادة التي لدى الفرد ، وتحول دون نمو مواهبه وإرادته . وهذه تضحية كبيرة . ولا يحتمل خضوع أو استسلام كهذا لأي خطة في إنجلترا في الأوقات العادية ، أما في أوقات الحرب فيخضع الأفراد لكل التعليمات والإرشادات من غير تدمير أو معارضة .

وفي الولايات المتحدة بأمريكا لا يطاق الاستعباد بأي شكل من أشكاله ، فالحكومة في إنجلترا وأمريكا تفكر في حرية الأفراد ، وتشجعهم على التفكير المستقل . ولا مرية في أن هذه الطريقة حسنة ؛ لأنها تعطي الفرد فرصة ليفكر بنفسه ، ويحكم عقله وحواسه في العمل الذي يقوم به ، وإن كانت قد تؤدي أحيانا إلى بعض الضرر المالى إذا لم ينجح المشروع ، أو إلى عدم إجادة العمل .

واجب المدرس نحو التعليم

ليس في يدنا - نحن المدرسين - تعميم التعليم ؛ بل في يدنا شيء واحد تتوقف عليه سعادة مصر ، هو الإخلاص في العمل والتعليم . فالأمة تنتظر الخير على أيدي المعلمين ، فليعلموا أبناءها ليكونوا رجالا يرشدونها إلى ما ينفعها ، وليعلموا بناتها ليسكنن خير الأمهات ، وخير المربيات ، وليعلموا كل فرد أن يثق بالآخر ؛ فإننا في حاجة شديدة إلى انتشار روح الثقة بيننا . ففي أمريكا وإنجلترا ومعظم الأمم الراقية تسود الثقة بين الأفراد . ولذلك يستطيعون القيام بأى مشروع من المشروعات . أما نحن فالثقة لدينا معدومة ؛ فإذا أردت أن تقوم بمشروع فلن تجد كثيرين يثقون بك ، ولن تجد من يشجعك . والثقة معدومة حتى بين الإخوة أو الأصدقاء . فمن الواجب أن يثق المعلمون الثقة في نفوس التلاميذ ؛ وإذا وثق التلميذ اليوم بتلميذ انتخب في فصله ليقوم بعمل من الأعمال فإنه يثق بغيره في الغد حينما يكون رجلا .

أما التشجيع فمعدوم ، فإذا قمت بعمل من الأعمال ، أو أظهرت رأيا من الآراء ، أو نظرية من النظريات وجدت الجميع مشبطين لهمتك ، حاقدين عليك . ولن تجد من يشجعك بالقول أو العمل . ولن ترق أمة لا تشجع المخلصين من أبنائها ، العاملين على الخير لها .

ففقوا أيها المعلمون بإخوانكم ، وشجعوهم في أعمالهم التي يريدون القيام بها ، وعلموا تلاميذكم الثقة بغيرهم ، وتشجيع المجيدين منهم ؛ فإننا في حاجة إلى تمكن هاتين الصفتين من نفوسهم ، وهما الثقة والتشجيع ؛ حتى نسير في الطريق الذي سار فيه غيرنا من الأمم الراقية . علموهم إرشاد العامة إلى الوسائل الصحية والاجتماعية والخلقية

في بلادهم وقراهم . كلفوهم نشر المشروعات الخيرية والعلمية والصناعية في قراهم ؛ حتى تتحسن حالة مصر من كل وجهة . عرفوهم حقوقهم الإنسانية ، وعلموهم معنى (الديمقراطية) ، وقيمة الحرية ، وكيف يستعملونها مع احترامهم لغيرهم ، واحترامهم لأنفسهم . علموهم ألا يكونوا آلات في أيدي غيرهم . علموهم كيف يستعملون مواهبهم التي وهبها الله لهم . علموهم التفكير في كل عمل يعملونه ، والإقدام على كل ما فيه الخير لهم ولبلادهم . علموهم كيف يكونون قادة للآراء والأفكار ، قادة للرجال في صالح الأعمال .

علّموهم أن الأمة تنتظر من كل فرد منهم أن يقوم بواجبه نحوها . علموهم الوسائل التي بها ينجحون في حياتهم . علموهم كيف ينفذون إراداتهم . علموهم المثابرة حتى يحصلوا على رغباتهم . فهِمّوهم أن قوة العزيمة والعمل الشاق من وسائل النجاح في الحياة . عودوهم الثقة بالنفس والاعتماد عليها ، وشجعوهم على إظهار قدرتهم وقوتهم في عملهم . فهِمّوهم ألا يشغلوا بالهم بمن يحقد عليهم إن أرادوا النجاح في الحياة ؛ فإن العالم مملوء بالحقد والغيرة والحسد . ولن ينجح إلا هؤلاء الذين يعملون متجاهلين الحاقدين ، غير مباليين بالحاسدين .

علّموهم كيف يكونون رجالا مهذبين كاملين ، يتحلون بالأخلاق الفاضلة ، والآداب السامية ؛ فإن أهم أمر يجب أن نفكر فيه في الوقت الحاضر هو إيجاد رجال مهذبين فضلاء . والحق أننا لسنا في حاجة إلى كثير من العلم ، ولكننا في حاجة إلى كثير من الأخلاق الفاضلة .

علموهم الزراعة والصناعة والتجارة ، وأعدوهم لتلك الحياة الحرة ؛ فإن ميدان الوظائف قد ضاق ، وهو لا يكفي العدد الذي تخرجه المدارس كل سنة . بشوا في نفوسهم أن الأعمال الحرة خير لهم وخير لبلادهم من الأعمال الكتابية التي يتطلبونها .

فهمّوهم أن مصر في حاجة إلى زراع وصناع وتجار ؛ فإن مصر التي كانت في زمن
الفراعنة معروفة بالصناعة أصبحت الصناعة فيها محدودة . أما التجارة فمعظمها بيد
الأجانب .

وعجيب جدا أن المتخرجين في المدارس الزراعية والصناعية والتجارية يهتمون
الأعمال الحرة ، ويجرون وراء البحث عن وظائف كتابية لا تسمن ولا تغني من
جوع . فهمّوهم أن المالين وأصحاب الضياع وأرباب الثراء هم من الزراع والصناع
والتجار .

قد يأتي الأجنبي إلى مصر فقيرا معدما ، فيبدأ حياته ببيع شيء من الحلوى ،
وبعد قليل يفتح حانوت لبان ، وربما لا يمر عليه بضع سنوات حتى تجده صاحب
حانوت كبير . قد يبتدئ حياته خادما في مقهى وبعد سنوات قليلة تجده قد اتخذ
لنفسه مقهى خاصا به .

إذا نظرت إلى الصيدليات والمحابر الإفرنجية ، والمطاعم المعروفة ، والمقاهي
الكبيرة ، والمشاوي العظيمة ، وجدت أصحابها من الإفرنج . أما المصري وبخاصة
المتعلم ذلك التعليم السطحى - فيعد من العار أن يشتغل بعمل حر كهذه الأعمال التي
هي مورد الغنى والثروة . فيجب أن نبث في نفوس التلاميذ حب الأعمال الحرة على
اختلاف أنواعها .

في مصر معامل ومصانع أنشأها الأجانب ، وقد حصلوا على ثروة كبيرة منها ؛
لأن أجور العمل زهيدة ، وساعاته كثيرة في مصر . ولا عجب ؛ فالعامل المصرى في
الريف كان يتقاضى على الأكثر أربعة قروش في اليوم قبل الحرب . أما العامل في إنجلترا
فيتقاضى خمسة قروش في الساعة على الأقل . وليته مقتنع بذلك ؛ فالعمال باستمرار
يطلبون من أصحاب المصانع والمناجم زيادة الأجور . فلم لا ينتفع خريجو كلية الهندسة

والمدارس الصناعية بكثرة الأيدي العاملة في البلاد فينشئوا مصانع لهم بالاشتراك مع غيرهم من أصحاب الأموال .

وإذا قلتم إن التعليم في المدارس الصناعية لدينا لا يؤهل الطلبة بعد خروجهم من مدارسهم للقيام بالأعمال الصناعية قلت لكم : ولماذا لا يخصص جزء كبير من أوقات الطلبة بالتمارين العملية ؟ فالنظريات التي في الكتب لا تكفي ؛ بل يجب أن تصحب بالعمل والتدرب والتمرن ؛ حتى يجيدوا الصناعة التي يميلون إليها ، وبذلك تستطيع الأمة أن تنتفع بعملهم وصناعاتهم ، وتحيا الصناعة في مصر بعد موتها .

الآباء والتعليم :

يجب ألا تسمح وزارة التربية والتعليم للآباء بعدم إرسال أبنائهم أو بناتهم إلى المدرسة إلا إذا اقتصعت بأنهم قاعون بتعليمهم في منازلهم ، لا بإحضار أي نوع من المدرسين لهم فحسب ؛ بل بإحضار مدرسين قديرين أكفاء . وفي إنجلترا لا يكتفى بأي مدرس في البيت ؛ بل يرسل مفتش ليفتش على الدروس التي يأخذها الطفل في المنزل ، فإذا أعجب بالعمل أقره ، وإلا قُدم الأب إلى القضاء . فإذا وجد القاضي أن نتيجة التعليم في المنزل مرضية في القراءة والكتابة والحساب حفظ القضية ، وإلا عوقب أبو الطفل . أما في ألمانيا فالأطفال يجبرون على اللحاق بمدرسة الشعب إلا إذا كان الأب مدرسا قديرا يتعهد بتعليم أبنائه . ولا ينكر أحد أن ملاحظة التعليم بالمنزل واجبة ؛ كي لا يهمل الآباء ما يجب عليهم من تعليم أبنائهم . وفي نيوزيلندا مدرسون يسافرون من جهة إلى أخرى للمساعدة في نشر التعليم . ويجب ألا ننسى الفائدة التي يجنيها الطفل بالمدرسة من الوجهة الاجتماعية ، والضرر الذي يلحقه من العزلة والتعليم في بيئة ضيقة ، وخاصة إذا كان يعيش في منزل بضيقة منعزلة .

يجب أن نحرم على الآباء استخدام أبنائهم قبل أن يبلغوا الرابعة عشرة من العمر ؛ حتى لا يحرموا التعلم في طفولتهم . وإذا أردنا السكال وجب أن نعطي الأذكىاء من أبناء الفقراء الفرصة للتعليم الابتدائي فحسب ؛ بل للتعليم الثانوي أو التكميلي ؛ بأن يكملوا تعليمهم بالمدارس الزراعية أو التجارية أو الصناعية . ومن الواجب ألا نكتفي بتعليم الطفل في الدور الأول من الحياة وهو عهد الطفولة ؛ بل يجب أن نلاحظ تربيته في الطفولة والغلومة والشباب ؛ حتى يكون رجلا قادرا على أن يستقل بنفسه وعمله في المستقبل . وعلى هذا لسنا في حاجة إلى مدارس ابتدائية فحسب لتعميم التعليم ؛ بل نحن في حاجة إلى عدد كبير من المدارس الثانوية والمتوسطة ؛ بحيث تكفي لتعليم الأذكىاء الذين ينتهون من التعليم الابتدائي .

نصيحة للآباء :

اقتصدوا أيها الآباء من قوتكم وعلموا أبناءكم ؛ فإن الواجب عليكم أن تربوهم قبل أن تتركوا لهم شيئا . وخير لهم أن تربوهم من أن تتركوا لهم من الميراث ما لا يسمن ولا يغني من جوع . إن لم تستطيعوا أن تتركوا لهم شيئا من الميراث فقوموا بتربيتهم تربية تمكنهم من الاعتماد على أنفسهم في الحياة .

هناك في الريف آباء يستطيعون القيام بالإنفاق على أبنائهم في جميع مراحل التعليم ، ولكنهم يرضون عليهم ، ويكتفون بإرسالهم إلى مكاتب القرية ثم إلى الأزهر سنة أو سنتين لا يثقفوا ثقافة دينية ؛ بل للإعفاء من التجنيد . وبعد ذلك يعودون إلى بلادهم ليقضوا بقية حياتهم متعطلين لا عمل لهم . فأمثال هؤلاء الآباء لم يقوموا بواجبهم نحو أبنائهم . وإن عاملا في (الترام) أو خادما من الخدم ، أو حارسا من الحراس يقتصد من مأكله ومشربه ومسكنه ، ليقوم بتربية ابنه وتعليمه في المدرسة خير في نظري من رجل لديه ستون فدانا لا يعرف كيف ينفق دخله ، فيجمع من المال ما يدفنه تحت

الأرض ، ويهمل تربية أبنائه . فيعيشون ليأكلوا ويشربوا ، لا يعرفون عن الحياة أكثر مما يعرفه الإنسان العادى . فالرجل الأول رجل يعرف الحياة ، ويقدر التعليم ، ويستحق التشجيع فى نظر كل مصرى عاقل ، ولا عيب فيه إلا الفقر — إن كان الفقر يعد عيباً — أما الثانى فرجل لا يعرف معنى الأبوة وواجباتها ، والبنوة وحقوقها ؛ فقد أضاع حياة أبنائه ، ولم يعرف حقوقهم ، وما يجب عليه نحوهم . فمثل ذلك الرجل يجب أن نجبره على تربية أبنائه وتعليمهم التعليم الحق ؛ حتى تنتفع مصر بشمراهم ، وينتفعوا بأنفسهم ، فيفخر بهم أكثر من فخره بماله . مثل ذلك الرجل يجب أن يحاكم على إهماله فى تربية أبنائه ، فإن كان للفقراء عذر فى عدم تعليم أبنائهم ، فليس للأغنياء أى معذرة فى التقصير والإهمال .

فيأيتها الآباء قوموا بواجبكم نحو أبنائكم ، وربوهم ولا تهملوهم ؛ فهم ثمرة من ثماركم ، ينسبون إليكم . واعملوا لتركوا أثرا حسنا من بعدكم إن كنتم لأبنائكم من الأوفياء المخلصين .

شجعوهم على الأعمال الحرة إن كنتم قادرين على أن تمدوهم برءوس الأموال التى يحتاجون إليها ، فإن كان لهم دراية بالصيدلة فافتحوا لهم صيدليات . وإن تخصصوا بالتجارة فأنشئوا لهم متاجر . وإن تخصصوا بالهندسة فأنشئوا لهم المصانع لصنع الآلات ، وإصلاح السيارات والدراجات وغيرها . وإن تخصصوا بهندسة البناء أو الأمور الزراعية فليشتغلوا بالمباني والزراعة الحرة ؛ فبالأعمال الحرة يسعد الأفراد ، وترقى الأمم .

الحاجة إلى جماعات لنشر التعليم

إننا في حاجة إلى إنشاء جماعات في أنحاء القطر المصرى للتعاون على نشر التعليم بين جميع الطبقات من الأمة ؛ بحيث يكون في كل مديرية أو مركز جماعة تسمى مثلاً « الجماعة التعاونية للتعليم » ، يكون من عملها إيقاظ الناس في كل قرية وضيفة من المديرية أو المركز إلى فوائد التعليم ، وتفهمهم الحاجة إلى تربية أبنائهم وبناتهم ، وما يعود عليهم من تعليم أطفالهم ، والضرر الذى يلحقهم إذا أهملوا تعليمهم ، وحث الناس - وبخاصة الأغنياء منهم - على التبرع لمساعدة التعليم بالمال والمباني والأراضي ، وكل ما يمكن التبرع به . أما أعضاء هذه الجماعات التعاونية فيختارون من المصريين المتعلمين ذوى النفوذ فى المركز أو المديرية ، من المدرسين والنظار والأطباء والمهندسين ، والمحامين والقضاة وغيرهم من المعروفين بحب المنفعة العامة ، والناحية الإنسانية ، والأعمال الخيرية .

وعلى كل جماعة أن تبحث عن الشبان الذين يصلحون لمهنة التعليم ، ويرغبون فيها ، وتلحقهم بمدارس المعلمين ليكونوا مدرسين فى قراهم وضياعهم بعد الانتهاء من دراستهم ، وأن تعنى بجمع الإحصاءات عن الأطفال الذين بلغوا الخامسة من العمر فى كل قرية كبيرة وصغيرة ؛ كي يُعرف العدد الضرورى من المدارس لتعليم الأطفال فى مركزهم أو مديريتهم . وعليهم أن يفحصوا عن البلاد التى انتشر فيها الجهل ، وعمت فيها الأمية ، لينيروها من ظلماتها بفتح المدارس فيها ، وأن يشرحوا للعامة فوائد التعليم ومضار الجهل ، ويستعينوا بكبار الطلبة فى أثناء العطلة الصيفية على تنفيذ أغراضهم العلمية ، ونشر التعليم ، والمعاونة على إعطاء دروس بالمدارس النهارية أو

الدليلية ، وقد استعملت هذه الطريقة في إنجلترا في أوائل القرن التاسع عشر ، ونجحت تلك الجماعات التعاونية التعليمية نجاحا كبيرا في تعليم الأكثرية من السكان .

إجبار الآباء على تعليم الأبناء:

وقد لوحظ بالتجربة أنه لا وسيلة لتعميم التعليم إلا جعله إجباريا بالجمان ، وتكليف كل مقاطعة أن تتولى النفقة على التعليم فيها بسن ضرائب خاصة بالتعليم . لهذا سن قانون سنة ١٨٧٠ بإنجلترا وهو قانون التعليم الإلزامي ؛ فقد كان هناك آباء لا يفكرون إلا في أنفسهم ، فيضحون بأبنائهم ، ويهملون تعليمهم ؛ رغبة في كسب دراهم ينجونها من وراء الطفل في الأسبوع ، باستخدامه في مصنع أو معمل قبل التعليم . وأمثال هؤلاء الآباء - ولدينا الكثير منهم - لا يصلح فيهم الوعظ والإرشاد ؛ كي يرسلوا أبنائهم إلى المدرسة . ولا يلائمهم إلا القانون الذى يلزمهم إرسال أبنائهم للتعليم بالمدرسة حينما يبلغون سن التعليم .

ولو اتبعنا خطوات إنجلترا في تعميم التعليم لنجحنا في أعمالنا ، ووصلنا إلى صف الأمم الراقية ؛ فإن جميع الأمم الشرقية تتطلع إلى ما تظهره مصر من الكفاية والمقدرة . ومحال أن تصل مصر إلى المستوى الذى تنشده والجهل منتشر بين كثيرين من الأفراد ، والأمية كثيرة في الشعب .

ولما كانت السكثرة في القرى والأرياف لا تقدر قيمة التعليم وجب أن نجبرهم على تعليم أولادهم . ومن حيث إن روح حب الخير والإحسان التى كانت منتشرة فيما مضى بين الأغنياء في مصر يوم أن كان كثير من محبي العلم والدين يقفون أوقافا لنشر العلم والتعليم بالأزهر ومدارس الأوقاف - قد أصبحت معدومة تقريبا -

فلا وسيلة للحصول على المال الكافي لتعميم التعليم إلا فرض الضرائب . ونحن على ثقة بأن الأمة متطلعة إلى التعليم ، وهي تقابل هذا الأمر بالثناء والتشجيع .

روح التعاون في سبيل نشر التعليم :

وفي كثير من الأمم المتحضرة نجد روح التعاون منتشرا في سبيل تعميم التعليم ؛ فالأغنياء يتبرعون بكثير من الأموال لمساعدة التعليم . فهذا يتبرع ببناء ليكون مدرسة ، وذاك يتبرع بحديقة لتكون ملعبا لها ، وذلك بقطعة من الأرض لتكون خزانة للكتب ، وكل الأغنياء مستعدون لمعاونة التربية والتعليم بأموالهم الخاصة ، فضلا عما يدفعون من الضرائب لهذا الغرض نفسه .

وتقوم الحكومة الإنكليزية في إنجلترا بمعاونة التعليم بالمال والرقابة ؛ فقد أنفقت عليه في سنة ١٩٢٤ أربعة وعشرين ألف ألف من الجنيهات . وتقوم السلطات المحلية للتعليم بإتفاق ضعف هذا المبلغ في سبيل التعليم الإجباري ؛ فالمدارس والجامعات لا تستطيع أن تقوم بجميع نفقات التعليم من أوقافها وأجور الطلبة . لذلك تقوم الحكومة بمعاونتها مالياً . وفي نظير الإعانة التي تتناولها تقبل القوانين والنظم التي تضعها الوزارة وتراها صالحة للأمة من الناحية التعليمية . وإن العلاقة بين المدارس والوزارة علاقة لا تتعارض مع حريتها في اتخاذ طرق التربية التي تريدها . تلك الحرية يقدرها المدرسون حق قدرها ، فإن تقدير الشعب الإنكليزي للحرية الشخصية فوق الوصف ؛ فالإنكليز يعبدون الحرية ، وفي سبيلها يحجون ، ومن أجل الحرص عليها يموتون . وكلهم لا يحسنون حريتهم .

فروح التعاون في سبيل تعميم التعليم المجاني عام بإنجلترا بين الأفراد والجماعات والسلطات ؛ فكلهم يتعاونون في سبيل التعليم ، وكلهم يشعرون بواجب التعليم ؛ فقد مضى الزمن الذي كان يقال فيه في القرون الوسطى : لو علمت الفقراء اليوم قاموا

ضدك غدا ، أو إن إقبال الطبقات الفقيرة على التعليم خطر على المجتمع ، كما كتب وزير روسى فى منشور له سنة ١٨٢٤ يقول : « العلم نافع إذا أخذ منه قليل كملح الطعام » ؛ لأنه كان يعتقد أن كثرة العلم مضرة ، كما أن كثرة الملح مضرة . ولكن التجربة قد برهنت على خطأ هذه الفكرة ، وعلى أن للتعليم أكبر أثر فى الرقى والتقدم ، وحسن السلوك .

التعليم بالمجان

فى كثير من أجزاء كندا والولايات المتحدة بأمريكا تجد التعليم بالمجان فى أدواره الثلاثة : الابتدائى والثانوى والعالى ، أما فى إنجلترا فبعد أن كان التعليم بالمجان فى مرحلة التعليم الابتدائى فقط ، أصبح بالمجان أيضا فى المدارس المركزية والتكميلية : من زراعية وصناعية وتجارية ؛ لأن جميع الأحزاب السياسية قد شعرت بأن تعليم الشعب خدمة عامة للأمة ؛ فهو كالماء والصحة والهواء لا يمكن الاستغناء عنه .

وتوافق الكثرة على أن التعليم العالى يجب أن يكون بمصروفات ، ولا مانع يمنع من جعله بالمجان إذا استطاع الشعب أن يقوم بنفقاته أيضا . فحبذا الأمر لو اقتدينا بالأمم الراقية ، واتخذنا كل طريقة ووسيلة ممكنة لتعميم التعليم الإلزامى الذى يشعر كل مخلص بأنه أول أمر يجب أن نعى به فى الوقت الحاضر ؛ لأن التعليم أقوى وسيلة للنهوض بالمجتمع المصرى ، ولإعداد الأفراد لخدمة الأمة نظير ما تحمته من النفقات فى سبيل تعليمهم .

المواظبة وكيف نصل إليها

يقول (الدكتور فندلي) أحد علماء التربية المعروفين بالإنجلترا : « إن الواجب الأول على الحكومة هو أن ترى التلاميذ يأتون إلى المدرسة ، وأن تحضرهم إليها إذا تخلفوا عن الحىء » . وحينما صدر قانون التعليم الإلجبارى بالإنجلترا كانت الصعوبة الأولى أمام المجالس المحلية للتعليم هى مسألة إحضار الأطفال إلى المدرسة ، والعمل لاستمرارهم فى الذهاب إليها ، وخاصة فى القرى والريف والجهات الزراعية والصناعية . ولكن بتحسين طرق التعليم ، وجعله شائقا ، وتحسين حال المدرسين ، وتشجيعهم ، وجعل التعليم إلجباريا بالمجان ، تغلبت إنجلترا على هذه الصعوبة ، وأصبح إرسال الأطفال الذين فى سن التعليم أمرا عاديا . ولا تزال المجالس المحلية بالإنجلترا متمسكة بالقانون الذى يجبر الآباء على إرسال أبنائهم إلى المدرسة ؛ لأنها واثقة بأن من المحال تعميمه بدون ذلك القانون . وهى تخاف تساهل بعض الآباء أو المدارس ؛ فقد يدفع الأب مصروفات المدرسة لابنه فى مدرسة خاصة ، ثم يمنعه من الذهاب إليها . وربما لا تهتم المدرسة ما دامت قد تسلمت المصروفات .

فلمنع هذا الإهمال يجب التشدد فى مواظبة التلاميذ على الحضور إلى المدرسة ، سواء أحره كانت أم أميرية ، وسواء أبمصروفات كانت أم بالمجان ؛ كي لا يتخلف طفل عن الذهاب إلى المدرسة التى تلائمه كالمدرسة الأولية والابتدائية والثانوية ، أو المدرسة الخاصة لمن به نقص جسمى أو خلقى أو عقلى ، حتى ينال كل طفل ما يصلح له من التعليم .

وإذا انتقل التلميذ من مدرسة إلى أخرى لنقل والده من تلك الجهة وجب ألا نعطيه فرصة فى إضاعة الوقت والتأخر عن الذهاب إلى المدرسة المنقول إليها .

ويجب أن نعد جميع الأطفال أبناء للشعب لا أطفال جهة أو مديرية خاصة . فلا يصح أن تمتنع مديرية من المديريات أو مدرسة من المدارس من قبول طفل من مديرية أو مدرسة أخرى ، وأن يكون الجميع متساوين أمام القانون العام الإجبارى للتعليم ؛ فإن نشر التعليم ونجاح الفرد في مدرسته يتعلقان بالأمة عامة أكثر من علاقتهما بجهة معينة . ويجب أن يُنظر إلى المنفعة العامة قبل المنفعة الخاصة دائماً .

وللقانون الإجبارى أثر كبير في التعليم والمواظبة والأخلاق ؛ فهو العامل الوحيد لتعليم كل فرد من أبناء الشعب ، ففي إنجلترا مثلاً قبل التعليم الإجبارى كان بعض النظار يهددون التلاميذ بالطرد من المدرسة إذا لم يواظبوا أو ينجحوا في عملهم ، أما بعد القانون الإجبارى فقد انعكس الأمر ؛ فأصبح النظار لا يستطيعون التهديد . وإذا هرب التلميذ من مدرسته بُحث عنه ووضع فيها . ويستمر الطفل في الذهاب إلى المدرسة ولو كان غير محب لها .

ومن الواجب ألا يكلف التلميذ الحضور إلى المدرسة فحسب ؛ بل يجب أن تعمل كل وسيلة لإصلاح المدرسة ؛ كي تكون محبوبة للتلميذ ، فيستفيد منها الفائدة المرجوة . أما أثر القانون الإجبارى من الوجهة الخلقية فلن يسمح للطفل بقضاء جميع أوقاته في الطرق ؛ بل يؤخذ إلى المدرسة فيتعلم بدلاً من وقوفه في الأمكنة المزدهمة ليتعلم النشل أو السُّؤال . وقد يتصل بجماعة فاسدة الأخلاق فتؤثر فيه ، وتسممه بسموم الرذيلة . وربما يكون يتيماً لا أب له ولا أم . ولا مأوى له إلا الطرق ، ولا وسيلة لديه للحصول على قوته إلا السؤال والسرقة . ولو علمنا أمثال هؤلاء من الفقراء لقومنا أخلاقهم ، ومكناهم من كسب عيشهم ، واستفدنا من أعمالهم وذكاهم إن كانوا أذكاء ، واتقينا العار الذى يعود على مصر من هؤلاء السائلين الذين لا عدد لهم .

كل أمر في أوله صعب :

حينما يبتدئ تعميم التعليم قد تجد تلاميذ كبارا مع آخرين صغار . وقد يهمل الكبار واجباتهم ، وقد يعارضون معلمهم ، وربما لا ينقادون إليهم . وإذا عوقبوا فربما لا يخضعون للعقاب . وربما يعبثون بالنظام . وإذا سمحت لهم الفرصة هربوا من المدرسة إلى المنزل حيث يجدون آباء قد يشاركونهم في شعورهم ضد المدرسة ومعلميها . وقد يستاء الآباء إذا أُجبروا على إرسال أبنائهم إلى المدرسة في وقت يستطيعون فيه كسب شيء من المال ، فيشاركون أبنائهم في معارضة السلطة المدرسية .

والمدرس في تلك الظروف غير سعيد؛ فالأحوال المحيطة به مكدره ، والآباء يعادونه ، وحجر الدراسة مملوءة بالتلاميذ ، والتلاميذ في الوقت الذي لا يخلون فيه بالنظام يجلسون عابثين لا يطيعون ولا يفهمون ، فالإدارة سيئة ، والنظام رديء ، والمدرس مكتوف اليد بقوانين تحرم العقاب البدني ، والمناهج قد تكون منفرة ينفر منها الجميع ، والجو المدرسي جو عدائي ، والمدرس في واد والتلاميذ في واد آخر ، فالمدرس يريد أن يعلم ، والتلاميذ الكبار ينفرون من التعليم .

وليس معنى هذا أن نفور التلاميذ عام أو معاداة الآباء عامة ؛ فالنفور من أخذ الولد بعد كبره لتعليمه على غير رضا أبيه أمر عادي ، فبعض الجهلة من الآباء يفضلون إبقاء أبنائهم أميين في سبيل دراهم يربحونها من استخدامهم في العمل وهم صغار . وفي الوقت نفسه هناك تلاميذ مؤدبون يحبون التعليم ويرغبون فيه ، ويسعون إليه ، وآباء راقون يعملون لتربية أبنائهم وإرسالهم إلى المدرسة بكل وسيلة من الوسائل ، مهما يلاقوا في ذلك من الصعوبات . وكل أمر في أوله صعب ، وليس من السهل ترك العادة؛ فالرجل الذي يألف أمرا يصعب عليه أن يتركه ، ولكن بالترغيب والإرهاب

يمكن إقناع الآباء بوجوب تعليم الأبناء حتى يحين الوقت الذى ينتشر فيه الولاء بين المنازل والمدارس ويزول العداء .

وهنا أذكر أنى حينما كنت مدرسا بالسويس سنة ١٩٢٣ ذهبت مرة لقسم من أقسام المدارس الليلية، فوجدت إقبالا عظيما على القسم الليلي من شبان ورجال تتراوح سنهم بين الخامسة عشرة والخمسين ، وكانوا جميعا مصغين يلوح عليهم روح الحب للعلم والتعلم : أذان مصغية ، وقلوب واعية ، يسمعون ما يقال لهم ، ولا يعارضون فيما يؤمرون به ، يطيعون طاعة عمياء ؛ خوفا من أن يطردوا ويقبل غيرهم فيحرموا التعليم وقد أتوا إليه طائعين مختارين .

وفي سنة ١٩٣٢ بعد عودتى من إنجلترا بسنتين طفت بالأقسام الليلية ببعض المدارس الإلزامية فى القاهرة مع عالم كبير من أساتذة الحقوق إذ ذاك ، فوجدنا تلك الأقسام خالية ليس فيها إلا نفر قليل يعد على الأصابع من الغلمان ، فكنا نجتمع الصبية من الطرق، ونأخذهم إلى تلك الأقسام الليلية؛ حتى ينالوا نصيبهم من التعليم . وكثيرا ما أوصينا المعلمين بتشجيعهم وترغيبهم فى الحضور ، والعمل على ملء تلك الأقسام ممن حرموا التعليم فى طفولتهم .

نشر التعليم الصناعى

ولنشر التعليم الصناعى فى مصر يجب أن ننشئ فى كل قرية من القرى مدرسة صناعية تعلم فيها الصناعات المختلفة ، أو ننشئ فى بعض المدارس الإلزامية أقساما صناعية يذهب إليها كبار التلاميذ للتعلم فيها فى أوقات خاصة ، بحيث يعين النصف الأول من اليوم المدرسى لمدرسة من المدارس ، والنصف الثانى لمدرسة أخرى وهكذا .

إننا لا نريد أن نهمل صناعة من الصناعات التي يمكن إحيائها في مصر ، والتي نرى الأمة في حاجة إليها . ولرخص الأجور في مصر ، وكثرة ساعات العمل ، يمكن أن تكون المنتجات رخيصة . ولدينا موارد طبيعية عند الخزانات والقناطر بها يمكننا توليد الكهرباء ، وإدارة الآلات والمصانع . وقد وهب الله لمصر مواهب كثيرة ، ولكنها لا تنتفع بها ولا تستخدمها .

وكثيرا ما ينادى المفكرون من المصريين بإحياء الموارد التي بها تكثر ثروة الأمة ، ويحيا العلم والصناعة ، ولكننا مع الأسف كثيرو القول ، قليلو العمل . ومن المؤلم حقاً أن الأثرياء لدينا وأصحاب الأموال يفضلون أن يضعوا أموالهم في المصرف أو في الحائط ، أو تحت الأرض ، ولا يقدمون كثيراً على أن يشتركوا في عمل مصانع للورق ، أو الزجاج ، أو النجارة ، أو الغزل والنسيج أو الحلج أو الأحذية أو المنتجات الزراعية فيربحوا ربها كثيراً ، وينفعوا بعملهم هذا غيرهم من الفقراء . ومن الخطأ أن ننتظر من الحكومة أن تقوم لنا بكل شيء ؛ فذلك فوق مقدرة كل حكومة في العالم . وكل ما تستطيع الحكومة أن تفعله هو أن تسهل لك الأمر ، ولا تضع العقبات في سبيلك . أما أنت فعليك أن تفعل وتقدم ، وتعتمد على نفسك ، وتنسى حياة الاتكال على غيرك .

ماذا نفعل وقد كثر المتعطلون من المتعلمين؟

كثيرا ما سمعت من بعض المتعلمين وغيرهم : ماذا يفعل كل الشبان إذا علمناهم؟ وماذا يجدون من العمل؟ وإنى أسأل هؤلاء وأمثالهم : ماذا يفعل الشبان بعد انتهاءهم من (أكسفورد أو كبرديج) بالجلترة ، وبعد أن تكبد آباؤهم في سبيل تعليمهم آلافا من الجنيهات في (إيتون أو هارو ، وفي ونشستر أو رجبى ؟ إن مصر التى تراها تؤوى كل من يلتجئ إليها ، وتغنى من يرد إليها من المتعطلين من فقراء الأجانب ، فى وسعها أن تؤوى أبناءها ، وتغنيهم وتوجد لهم عملا ، وتفتح لهم الأبواب إن أظهروا لها مقدرتهم وكفايتهم . وإن مصر التى اتسعت لمئات الآلاف من الأجانب ، واستطاعوا أن يجدوا وسائل المعيشة السهلة فيها ، وأصبح كثير منهم من الأثرياء - تتسع لأبنائها من المصريين .

وإن هؤلاء الشبان الذين نخاف تقاعدهم وتعطلهم يجب أن يستيقظوا ، ويعتمدوا على أنفسهم ، ويتخذوا الأعمال الحرة سبيلا لثروتهم . وفى ميدان الأعمال الحرة متسع كبير لهم جميعا . لم لا يفتح الصيدلى منهم صيدلية ؟ ولم لا ينشئ الصانع منهم له مصنعا صغيرا ؟ ولم لا يتخذ المتخرج فى الزراعة الزراعة مهنة له ؟ ولم لا يفتح له معملا للألبان ، أو حانوتا لمنتجاتها ، أو لبيع الأزهار والفواكه ؟ ولم لا يشتغل المختص بالتجارة فى التجارة ؟ إن أبواب العمل كثيرة مفتوحة أمام المصريين ، فلم لا يقدمون عليها ؟ لم لا يقدمون على الأعمال الحرة ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ؟ لم لا يجتهدون فى أن يظهروا كفايتهم إن كانوا أكفاء ، ومقدرتهم إن كانوا من القادرين ؟ لم لا يستيقظون ويقدمون على ما فيه الخير لأنفسهم وبلادهم فيعملوا من غير تباطؤ

أو تردد ؟ وإلى متى نستمر في ذلك السبات العميق ، وفي تلك الحياة الاتكالية ؟ ومتى نسير إلى الأمام ، ونرى كل مصرى نشيطا عاملا مجداً ، حريصا على وقته ، مخلصا في عمله ، معتمدا على نفسه ، سائرا إلى الأمام بهمة لا تعرف الكلل ، وعزيمة لا تعرف الملل ؛ حتى ينجح كل فرد في أى طريق من طرق الحياة ، وفي أى سبيل من سبلها - وما أكثر تلك الطرق والسبل - فترق مصر والمصريون ؟

إن في مصر كثيرا من الشركات الأجنبية ، وفي كل شركة من الشركات الأجنبية في البلاد المتمدينة يشترط أن يكون تسمعون في المائة من موظفيها على الأقل من أبناء الأمة التي أنشئت فيها الشركة الأجنبية . فلم لا نفرض على الشركات الأجنبية في مصر - وما أكثرها - الانتفاع بمن لدينا من الشبان المتعلمين ؟ ولم لا نشترط عليها اليوم إن فاتنا ذلك في الماضي أن يكون تسمعون في المائة من موظفيها من المصريين ؟ إننا لا نجد في تلك الشركات الأجنبية بمصر من المصريين سوى بعض العمال من الحراس والخدم ، أما غيرهم من الموظفين فمعظمهم من الأجانب أو ممن تجنسوا بالجنسية المصرية لغرض في أنفسهم ، ولمصلحتهم الذاتية ، لا لحب مصر ولا المصريين .

إننا يجب أن نفتح عيوننا ، وأن نطالب بحقوقنا ، ونعمل للوصول إليها إن أردنا الحياة في بلدنا . رحم الله الشيخ عبدالعزيز جاويش ، حيث كان يقول : « المصرى غريب في بلاده . » ولا عجب ؛ فالأجنبي لتعلمه متمتع بما فيها من خيرات نحن محرومون إياها . وإنه يجب أن نعمل لمساعدة الشبان من المصريين في إيجاد أعمال ملائمة لهم ، ليكونوا أعضاء نافعين في المجتمع المصرى ، ولا يكونوا عالة على أهلهم وذويهم .

يجب أن نؤلف لجانا وجماعات للعناية بمصير الناجحين من أبنائنا وشباننا ،

وتسهيل سبل العيش أمامهم بما يتفق وميولهم واستعدادهم العلمى والعملى ، كما يحدث فى إنجلترا والولايات المتحدة بأمريكا وفرنسا وسويسرة .

إنه لا يكفى أن نعلمهم ؛ بل يجب أن نعمل لإرشادهم ، ومساعدتهم فى إيجاد أعمال لهم ؛ حتى لا يتكون لدينا أحد من المتعطلين الذين يرغبون فى العمل ولا يجدونه ، ويبحثون عنه ولا يرون سبيلا للوصول إليه ؛ لئكى ننتفع بمجهود هؤلاء المتعلمين فى كل ناحية من نواحي الحياة .

وبإنجلترا قد صدر قانون للتعليم سنة ١٩١٠ يبيح للسلطات المحلية إنشاء جماعات خاصة بمساعدة التلاميذ الفقراء الذين انتهوا من الدراسة الابتدائية فى إيجاد عمل يلائمهم ، والنظر فى شئونهم ، وتسهيل لحاقهم بالمدارس التكميلية الليلية ليتمموا دراستهم بها .

وإن أنس لا أنس نص الرسالة التى ترسلها جماعة (ليثربول) إلى كل تلميذ ينتهى من مدرسته الأولى تبين له فيها استعدادها لمساعدته ومعاونته على إيجاد عمل له وتشجيعه على كسب العيش نهارا ، والاستمرار فى التعلم ليلا . وهذا نص تلك الرسالة : من كتابنا « التربية الإنكليزية » ص ١٢٧ :

« إن أعضاء الجماعة يريدون أن تنظر إليهم نظرة أصدقاء لك ، يودون مساعدتك ، ويفسحون فى أمرك . وهناك نقطة يحبون توجيه انتباهك إليها ، وهى : يجب ألا تظن أن تعليمك قد انتهى بتركك المدرسة النهارية . وينبغى أن تلحق بمدرسة تكميلية ليلية تقرب منك . وإن معلمك مستعد دائما لمعاونتك وإرشادك إلى المدرسة التى تناسبك » .

وحبذا الأمر لو اقتدينا بإنجلترا مثلا فى إنشاء جماعات كهذه ، تعمل وتعمل حقاً لتيسير سبل العمل أمام أولئك الشبان المتعلمين . لا نريد جماعات اسمية لا عمل لها إلا

الذهاب إلى المكاتب والعودة منها ، وإنما نريد قوما يعملون ، ويفكرون في الخير ، ويوجدون أعمالاً للشبان ، ويوجهون كلا منهم إلى العمل الذي أعد نفسه له .

قرأت ذات يوم في إحدى الصحف الإنكليزية أن وزيراً من وزراء إنجلترا السابقين قد أتم ابنان له دراستهما الجامعية . وما كان أشد سروره حينما رأى أن أحدهما قد اشتغل بمصنع ، والآخر بمحل تجارى وقال : « إن التربية للحياة تقتضى أن يتبدى الإنسان عمله من أسفل السلم ، ويسير بالتدريج في الحياة حتى يصل إلى الذروة » . وكان من السهل عليه أن يستعمل سلطته ونفوذه في إيجاد عمل لهما أرق من العمل الذي وجداه . فإذا كانت الشبان لدينا يتهافون على الوظائف ، وينفرون من الأعمال الحرة ، فهذا الخطأ لم ينشأ عن العلم ، ولكنه نشأ عن تلك الحياة الاتكالية في المنزل والمدرسة . ولو عرف الشبان من الصغر أن العمل شريف مهما يكن ضئيلاً ، وأن العار كل العار في الكسل والعجز والخمول - لأقدموا على الأعمال الحرة وفضلوها على الوظائف .

إن مشكلة التوظيف كما نجدها في مصر نجدها في غيرها من الأمم الراقية كإنجلترا وفرنسا وأمريكا . ولعدم وجود وظائف تكفى من يتخرجون في الجامعات ينزل الشبان إلى ميدان الأعمال الحرة ، فشباننا لا تنقصهم إلا العزيمة وقوة الإرادة والثقة بالنفس . إننا ما زلنا نستورد من الخارج كثيراً من الجبن والزبد والمربيات والفواكه المحفوظة في العلب ، والزجاج والورق والمنسوجات مع توافر موادها الأولية لدينا .

أفليس من الممكن أن نصنع هذه الأشياء في مصر ؟ ألا يمكننا أن نحاكى الأجانب في إنشاء بعض شركات صناعية وزراعية وتجارية وهندسية حتى نستطيع

أن نحيا سعاداء في مصر ؟ يجب أن نبث في نفس كل مصرى من الطفولة أن الأعمال الحرة شريفة ، وأن الصناعة شريفة ، ولا عيب في العمل أبًا كان ذلك العمل . إننا لسنا في حاجة إلى موظفين ، ولسكننا في حاجة إلى صناع وزراة وتجار ؛ لننمى ثروة مصر الداخلية ، وتأخذ مصر مكانتها بين الدول المتحضرة .

ومع أن انجلترا كان بها ثلاثة آلاف ألف من المتعطلين قبل الحرب الحالية لم تفكر في إغلاق مدارس أو جامعات ، ولكنها على العكس أطالت مدة التعليم ، وجعلته في متناول الجميع من أبناءها .

فمن الواجب أن نشجع دائما نشر العلم والتعليم ، في كل مرحلة من المراحل ، بين كل طبقة من المصريين ، ونفتح السبل أمام الشبان ، ونساعدهم في النجاح في حياتهم العملية . ونرشدهم إلى الاستمرار في البحث والتعلم في أوقات فراغهم ، ونموذهم من الصغر الاعتماد على النفس ، والاستقلال في العمل ؛ حتى يُقدموا على الأعمال الحرة وكلهم ثقة بالله وبأنفسهم معتمدين على مواهبهم ومقدرتهم وكفاياتهم ، وإخلاصهم في عملهم . وعلى الإنسان أن يعمل ، ويعمل بذمة وضمير وأمانة ، ويترك النتيجة لله . وعلى الله التوفيق .

هل هناك خطر من التوسع في التعليم العام^(١)؟

حضرة صاحب العزة زعيم النهضة الأدبية بمصر والشرق

الدكتور طه حسين بك

« على أن بين المصريين الذين يفكرون في شئون التعليم قوما يكرهون التوسع في التعليم العام ، والتوسع في التعليم العالى ، لأسباب أخرى غير الغنى والفقر ، وغير الإيسار والإعسار ، وغير التفكير في نظام الطبقات . فقد يقولون : إن التوسع في هذا التعليم العام منته بطبيعة الحال إلى نتائج خطيرة يظهر أننا لا نقدر خطورتها كما ينبغي .

فهؤلاء الشبان الذين يقبلون في المدارس والكلليات بغير حساب ، ثم يخرجون منها وقد ظفروا بالإجازات والدرجات ، ما عسى أن تصنع بهم الدولة ؟ إن مناصبها محدودة لا تزداد إلا في بطاء شديد جدا ، وفي فترات متقطعة . وهؤلاء الشبان يكثر ، ويضخم عددهم في كل عام ، وهم لا يقبلون على الأعمال الحرة . والأعمال الحرة نفسها محدودة ، وتوشك أن تضيق بهؤلاء الشبان إذا اطرده توسع الدولة في نشر التعليم العام .

فأمر هؤلاء الشباب صائر إذن إلى البطالة ، والبطالة منتجة للقلق ، ثم إلى

(١) ارجع إلى الجزء الأول من كتاب : « مستقبل الثقافة في مصر » للدكتور

السخط ، ثم إلى اضطراب النظام الاجتماعى ، ثم إلى هذه العواقب التى قد لا نتصورها الآن ، ولكنها شديدة الخطر على كل حال .

وإذن فينبغى أن تقتصد الدولة فى التعليم العام ، وألا تقبل الشبان فى المدارس ، ولا تخرجهم منها إلا بمقدار يلائم حاجتها وحاجة الأعمال الحرة إلى العاملين . ومعنى هذا أن مصر يجب أن تتخذ الجهل أساسا من أسس سياستها القومية ؛ وألا تزال هذا الجهل إلا عن عدد ضئيل جدا من أبنائها فى كل عام ، وأن تمسك الكتلة من أبنائها فى الغفلة والعناد ، وفى الخمود والخمول ، وفى الضعة والانحطاط . ومعنى ذلك أيضا أن مصر التى أعفاها الله من نظام الطبقات يجب أن تخلق هذا النظام خلقا ، وتقرضه على نفسها فرضا ، وأن تكون لنفسها أرسقراطية ثقافية تحتكر القيادة والسيادة وأمور الحكم ، وتتسلط على هذه الكتلة الضخمة الجاهلة الغافلة تسلط القوى على الضعيف ، وتتحكم فيها تحكم السيد فى العبد .

ومعنى ذلك أيضا أن مصر التى ارتضت لنفسها النظام الديمقراطى ، والحكم الدستورى ، والحياة النيابية التى تقوم على الانتخاب العام المباشر ، يجب أن تختار بين اثنتين : إما أن تعدل من الديمقراطية إلى حكم القلة ، فتلغى الانتخاب العام المباشر ، وتقصر الحقوق السياسية على هذه الطائفة الضئيلة طائفة المتعلمين الممتازين ، وإما أن تبقى الديمقراطية والدستور والحياة النيابية ، والانتخاب العام المباشر ، على أن تكون هذه الأشياء كلها مظاهر لا تدل على شئ ، وصورا لا تصور شيئا ، وألفاظا لا غناء فيها .

فالديمقراطية لا تتفق مع الجهل إلا أن تقوم على الكذب والخداع . والحياة النيابية لا تتفق مع الجهل إلا أن تكون عبثا وتضليلا .

إن الذين يريدون أن تصير أمور الشعب إلى الشعب يريدون بطبيعة الحال أن

يثقف الشعب حتى يرشد ، وحتى يأخذ أموره بحزم وقوة ، ويصرفها عن فهم وبصيرة ، وحتى يصبح بمأمن من تضليل المضللين له ، وتغفل المتغفلين إياه ، لا يستجيب لكل ناعق ، ولا ينخدع لكل مخادع ، ولا يدفع إلى الشر كلما أريد دفعه إلى الشر ، ولا يتخذ أداة لتحقيق أغراض الطامعين ، وإرضاء شهوات الساسة ، الذين كثيرا ما يتخذون الشعب الجاهل الغافل مطية إلى كثير من الجرائم والآثام .

ولست أدري أخطئ أنا أم مصيب ؟ ولكنى لا أكاد أتصور رجلا يؤمن بالديمقراطية والدستور ؛ ويحرص على الحياة النيابية الصحيحة ، وما تستلزمه من الانتخاب العام المباشر ، ثم يجمع في قلب واحد وعقل واحد بين هذا الحرص وذلك الإيمان ، وبين الرغبة في تضيق التعليم العام وقصره على فريق من المصريين دون فريق ! .

فهذان أمران لا يجتمعان في قلب واحد ، ولا يتفقان في عقل واحد . وإنما هما مذهبان مختلفان أشد الاختلاف في تصور الشعب وتقديره ، وتقدير ماله من حق ، وما عليه من واجب .

فإما أن نتصور الشعب على أنه سيد نفسه ، وعلى أنه مصدر السلطات جميعا كما تقرر ذلك في دستورنا المصرى . وإذن فلا ينبغي للقانون أن يفرق بين أبناء الشعب وأن يبيح لبعضهم من أسباب الرق ووسائل الامتياز والطموح إلى الكمال ما يحظره على بعضهم الآخر .

وإما أن نتصور الشعب على أنه كثرة ضخمة ، جاهلة غافلة ، وخاضعة خانعة ، تسودها طبقة ضئيلة جداً من هؤلاء الممتازين بالدم والنسب ، أو بالثروة والغنى ، أو بالثقافة والذكاء . وإذن فيجب ألا نخدع أنفسنا ، وألا نخدع الناس ، وألا نترك

الدستور المصرى كما هو يقدر المساواة بين المصريين فى الحقوق والواجبات ، ويقرر أن الأمة مصدر السلطات .

فالسُّلطات لا تصدر عن الجَهِل ولا عن الغفلة ، ولا عن الغباء . والسلطات لا تصدر عن الرق ، ولا عن الذلة ، ولا عن الخنوع ، وإنما تصدر السلطات عن النفوس المثقفة المهذبة ، الكريمة العزيزة ، التى تعرف ما لها فتحصر على الاستمتاع به ، وتعرف ما عليها فتحصر على أدائه والنهوض به .

وإنه لمن المضحك حقاً أن يقال إن الشعب مصدر السلطات ، وأن يظن أن هذا الكلام يدل على شيء فى بلد كثرته جاهلة غافلة ، وقلته ذكية مثقفة . هذا مضحك حقاً ! فمن ذا الذى يصدق أن الرجل المثقف المهذب الذى أخذ من العلم ما استطاع ، وبلغ من الرق العقلى ما أراد ، ثم نهض بالأعمال العامة فى الحكومة أو البرلمان ، من الذى يصدق أن هذا الرجل المثقف الممتاز يؤمن فيما بينه وبين نفسه بأنه يستمد سلطانه الذى يصرف به الأمور العامة من هذا الشعب الجاهل الغافل الذليل ، وبأنه مسئول حقاً أمام الشعب ، يؤدى إليه حساباً دقيقاً عما عمل فى أثناء الحكم أو فى أثناء النيابة البرلمانية ؟

كلا ! إن هذا الرجل بين اثنتين : فإما أن يكون طيب القلب ، كريم النفس ، رضى الخلق ، دقيق الحس ، حى الضمير ، وإذن فسيؤثر العدل والنصح للشعب فى سيرته ، كما أو نائباً ، لا لأنه يؤمن بالشعب ، أو يحسب له حساباً ، أو يرجو له وقاراً ؛ بل لأنه يؤمن بالعدل فى نفسه ، ويريد الخير لنفسه ، ويخشى الله فيما يأتى وما يدع ، ويكره أن يخلو إلى ضميره ، فلا يطمئن حين يحاسبه هذا الضمير .

وهذا الرجل نادر ، نتصوره ونحب أن نتصوره ، ولكن الإنسانية لا تظفر به إلا قليلاً ، بل أقل من قليل . وإما أن يكون رجلاً فضولياً يحب نفسه ويؤثرها بالخير ، ويخضع عقله وقلبه وضميره وملكانه كلها لإرضاء شهواته وتحقيق أغراضه . وإذن

فسيستبد إن وجد القوة ، وسيظلم إن مُدَّت له أسباب الظلم ، وسيظنى إن هُيئت له وسائل الطغيان . فإذا لم تهياً له القوة ، ولم تمد له الأسباب ، ولم تتح له الوسائل فسيستبد وسيظلم وسيظنى ، ولكنه يصطنع الخداع والتضليل ، ويعبث بالعقول والألباب ؛ ويخيل إلى الشعب أنه مؤمن به ، مدعن له ، ذائد عنه ، مدافع عن حقه . وهو فى ذلك كله لاعب بالشعب ، والشعب غافل عن لعبه ؛ لأنه لم يتقف ، ولم يعلم ، ولم يهياً لمحاسبة الحكام والنواب .

كل هذا ينتهى بنا إلى أن الديمقراطية الصحيحة إذا فرضت المساواة بين أبناء الشعب فى الحقوق والواجبات ، فهى لا تقبل أن يفرق بينهم فى حرية التعليم ، وأن يقصر لون من ألوان هذا التعليم على جماعة من أبناء الشعب ، يخرج منهم القادة والسادة والمدبرون . ومن الحق أن مشكلة البطالة عظيمة الخطر ، وأنها أعظم خطراً مما نظن إلى الآن ، ولا سيما حين يُضطر إليها الشباب الذين أتموا دروسهم فى المدارس الثانوية أو فى الجامعة .

هذه المشكلة خطر على الأخلاق ، وهى خطر على النظام الاجتماعى نفسه ؛ لأنها تدفع الشباب الذين لا يجدون عملاً يكسبون منه القوت إلى كثير من الآثام والموبقات ، ولأنها تذيب السخط فى نفوس الشباب ، وتدفعهم إلى بغض النظام الاجتماعى والضيق به ، ثم إلى إنكاره والخروج عليه .

كل هذا خطر لا شك فيه ، ولكنه لا يعالج بتضييق التعليم ، ولا بإنشاء نظام الطبقات ، ولا باحتكار العلم لطائفة قليلة ، وفرض الجهل على كثرة الشعب . وإنما يعالج بإصلاح النظام الاجتماعى نفسه ، وجعله قادراً على أن يتيح لأبناء الوطن جميعاً أن يعيشوا على أرض الوطن ، وأن يعيشوا من كدهم وجدهم وعملهم ، لا أن يعيش بعضهم على حساب بعض ، ولا أن يتكلف بعضهم الجد والكد وألوان العناء ،

لينعم بعضهم الآخر بالبطالة والكسل والفراغ ، ولا أن يذوق بعضهم البؤس الذى ليس بعده بؤس ، ويشقى بعضهم بالضنك الذى ليس بعده ضنك ؛ ليستمتع بعضهم الآخر بهذا النعيم الآثم البغيض الذى يمدد فيه المال ، وتمتحن فيه الكرامة ، وتبتذل فيه الفضيلة ، ويستحيل فيه الإنسان إلى حيوان تقوم حياته كلها على إرضاء الخسيس من الفرائز والشهوات .

لن تعالج أزمة البطالة بإكراه الشعب على الجهل ، وإنما تعالج بفتح أبواب التعليم للشعب على مصاريعها ، وبالإسراع فى ذلك حتى يرشد الشعب ، وحتى يرى ما فى حياته من خير فيستزيد منه ، وما فى حياته من شر فيصاحه أو يلفيه .

يجب أن يتعلم الشعب إلى أقصى حدود التعليم ؛ ففى ذلك وحده الوسيلة إلى أن يعرف الشعب مواضع الظلم ، وإلى أن يحاسب الشعب هؤلاء الذين يظلمونه ويذلونه ، ويستأثرون بثمرات عمله وجده ، فيردم إلى الإنصاف والعدل ، ويضطرم إلى أن يؤمنوا بالمساواة قولاً وعملاً ، وإلى أن يحققوا المساواة فى سيرتهم ، لا فى هذه الألفاظ الجوفاء التى يضللون الناس بها تضليلاً .

إذا تعلم أبناء الشعب عرفوا ما لهم من حق فى حياتهم الداخلية ، فلم يسمحوا لقلّة مهما تكن أن تظلم الكثرة ، وعرفوا ما لهم من حق فى حياتهم الخارجية ، فلم يسمحوا لدولة - مهما تكن - أن تظلم مصر أو تستذلها . التعليم ، والتعليم وحده - على أن يكون صحيحاً مستقيماً الأساليب - هو الذى يضمن للمصريين العدل والمساواة فيما بينهم وبين أنفسهم ، والعزة والكرامة فيما بينهم وبين الأجنبي .

وبعد ، فهل من الحق أن أزمة البطالة قد وجدت فى مصر ، ووجدت بهذه الصورة الحادة المخيفة التى تحمل كثيراً من المفكرين على أن يضيقوا بنشر التعليم العام ، ويودوا لو اقتصد فى ذلك ؟ أما أن كثيراً من الشباب مضطرون إلى البطالة

والفراغ ، ثم يضطرون إلى الفقر والبؤس ، فهذا حق واقع لا سبيل إلى إنكاره ولا إلى الشك فيه . وأما أن هذه البطالة ناشئة عن أزمة واقعة بالفعل لا سبيل إلى علاجها ، فهذا هو الذى أشك فيه كل الشك .

وأنا واثق كل الثقة بأن بيننا وبين هذه الأزمة آمادا لا تزال بعيدة ، وأعواما لا تزال طويلة ، إذا أخذنا أمورنا بالحزم والعزم ، وآمنا بأننا مستقلون فى بلادنا ، وبأن الدستور يحقق المساواة فيما بيننا . فما ينبغى أن يضطر الشباب المصريون إلى البطالة على حين يستمتع كثير من الأجانب فى ظل مصر بالحياة الناعمة الميسرة التى لا يجدونها ولا يجدون قريبا منها فى أوطانهم .

وأنا أعوذ بالله أن يظن بى بغض الأجانب أو الإغراء بهم ، وإنما أريد أن أسوى بينهم وبين أبناء الوطن ، ولم يظلمك من سوى بينك وبين نفسه . ونظرة يسيرة إلى معاملة الأجانب فى البلاد الأوروبية على اختلافها تكفى لإقناعنا وإقناع الأجانب أنفسهم بأن من حق الحكومة المصرية ، بل من الواجب عليها ، ألا تأذن للأجانب باستغلال أى مرفق من مرافق الحياة المصرية إلا إذا كانت كثرة العاملين فى هذا المرفق من المصريين . وما أشك فى أننا ما نزال بعيدين عن هذا كل البعد . قد يقال : ولكن الشباب المصريين لا يهيئون تهيئة صالحة للعمل فى الشركات والمصارف وهذه المرافق التى يستعملها الأجانب . فإذا كان هذا فليس معناه أن يضيق التعليم ؛ بل معناه أن يصلح التعليم بها ليهيئ هؤلاء الشباب لمشاركة الأجانب فى استغلال المرافق المصرية .

هل من الحق أن مناصب الدولة نفسها تضيق بالموظفين ، وأن الشباب الذين يخرجون من الجامعة والمدارس العالية مضطرون إلى البطالة ؛ لأن الدولة لا تجد ما تكلفهم إياه من العمل ؟ ربما كان هذا حقاً ، ولكن لأن نظام التوظيف عندنا

ردىء يحتاج إلى كثير من الإصلاح . والشىء الذى لا شك فيه أن إعادة النظر فى أمر المناصب والموظفين خليفة - إذا أخذت بالحزم - أن تقتصد للدولة كثيرا من المال ، وأن تفتح للشباب كثيرا من أبواب العمل . فما أكثر الموظفين الذين يتقاضون الأجور الضخمة ولا يعملون شيئا ! وما أكثر الشباب الذين لا يجدون ما يعملون وهم قادرون على العمل بأيسر الأجر وأقله ! وما أكثر المصالح العامة التى تضيع بين نعيم أولئك وبؤس هؤلاء ، وكلهم مع ذلك متبطل ، ولكن فريقا منهم ينعم بالبطالة ، وفريقا آخر يجد فيها البؤس والجوع .

وهل من الحق أن الدولة محتاجة إلى هذه الكثرة الضخمة من الموظفين الأجانب الذين يتقاضون منها أجورا باهظة يكفى قليل منها لدفع البؤس والشقاء عن كثير من الأسر المصرية ؟ اللهم لا ، ولكنها العادة من جهة ، وبقية من الإيمان بالأجنبي والشك فى المصرى من جهة أخرى . وأنا مؤمن بأننا محتاجون ، وسنحتاج وقتا طويلا إلى فريق من الموظفين الأجانب الممتازين ، ولكن هذا شىء ، وإغداق المال على الأجانب لأنهم أجانب ، وإبعاد المصريين عن العمل لأنهم مصريون شىء آخر .

وليس بنا أن نخفى فى هذا الاستطراد إلى أبعد من هذا الحد ، وإنما أردنا أن نبين أن أزمة البطالة للشباب المتعلمين فى مصر لم تنشأ عن طبيعة الأشياء ، وإنما نشأت عن الإهمال والتقصير ، وعن أخذ الأمور بالضعف والوهن والفتور . وهب هذه الأزمة واقعة بالفعل ، وهبها ناشئة عن طبيعة الأشياء ، فإنها لا تعالج بالجهل الذى يفرض على الشعب ؛ لأن الجهل فى نفسه شر ، ولن يكون الشر علاجا للشر . وفى الأرض أمم راقية رشيدة قد سبقتنا إلى الرقى والرشد ، وقد عرفت قبلنا أزمة البطالة للشباب المتعلمين وغير المتعلمين ، وقد عالجتها وما تزال تعالجها ، ولكنى

لا أعرف أمة واحدة فكرت في أن تعالجها بتضييق التعليم ، وقصره على فريق من الناس دون فريق .

ولعل قليلا من البحث والاستقصاء ينتهى بنا إلى أن الأمم الراقية إنما تمضى في نشر التعليم وتيسيره وترقيته ، ولكنها تعالج هذه الأزمة بتحقيق الصلة بين التعليم النظرى والحياة العملية ، وبتنوع التعليم نفسه بحيث لا يصب المتعلمون جميعا في قالب واحد ، ولا يصاغون صيغة واحدة ، وإنما يتحقق بينهم شئ من التنوع والاختلاف يدفعهم إلى التنافس ، ويمكنهم من الجهاد ، ولعله يتيح لهم الابتكار ، وهو على كل حال يعدم إعدادا حسنا للقاء الحياة في غير عجز ولا يأس ولا قنوط .

فمن خطئ رأى إذن أن يظن أن في تضييق التعليم العام حلاً لأزمة البطالة ، أو تيسيرا لهذا الحل ، أو نفعاً من أى وجه من الوجوه .

وإنما يجب أن يكون التعليم العام كاسمه ، مباحا للمصريين جميعا ، يقبل فيه من استطاع أن يؤدي أجره ، وييسر أمره للعاجزين عن أداء هذا الأجر على النحو الذى قدمناه .

وبعد ، فهذه كلمة ثمينة صادرة من قلب رجل عظيم يفيض بحب الإصلاح ، هو (الدكتور طه حسين بك) نشرها في كتابه : « مستقبل الثقافة في مصر » منذ سنوات . وقد عمل لتحقيقها حينما أتيت له الفرصة وهو مستشار فنى لوزارة المعارف . فالتعليم الجامعى قد أصبح ميسرا كل التيسير بعد أن أنشئت جامعة فاروق الأول بالإسكندرية . وإنى واثق كل الثقة بأنه لا خوف من البطالة والتعطّل ، وأن ميدان العمل الحر متسع أمام من يريد أن يعمل .

تعليم البنات

لسنا في حاجة إلى ذكر الفوائد التي تعود على الأمة من تعليم البنات ؛ فقد مضى الوقت الذي كان يعد فيه تعليم المرأة عارا ، يوم أن كان الألمان يقولون : إن خزانة الملابس هي مكتبة المرأة . ويوم كان الفرنسيون يعتقدون أن المرأة يجب أن تكون بين أربعة جدران . فإذا التمسنا العذر للرجل الجاهل في إهمال تعليم ابنته ، فإننا نلوم الرجل المتعلم كل اللوم إذا لم يفكر في تعليم ابنته .

إننا إذا قمنا بتعليم الابن ، فالتعليم لا يتعدى فردا واحدا ، ولكن البنت إذا علمت فكأننا قمنا بتعليم أسرة ؛ لأن بنت اليوم أم في المستقبل ، تقوم بتربية أبنائها وبناتها .

ولو ألقينا نظرة واحدة إلى التاريخ لوجدنا للأمهات فضلا عظيما في تكوين العظماء من الأبناء ؛ فهناك (نابليون ، وجورج واشنطن ، وأبراهام لينكولن ، واللورد بركنهد ، والمستر هـ . ج . ويلز ، وجورج برنارد شو) - كل هؤلاء من العظماء والقادة والأدباء ، قد استمدوا العظمة من أمهاتهم ، وكان لهن أكبر الفضل في تربيتهن ، وبث المثل العليا في نفوسهم ، وقد اعترفوا جميعا بأنه قد كان لأمهاتهم أكبر الأثر في نجاحهن في الحياة .

إن المرأة الأوروبية والأمريكية اليوم عضو عامل في الحياة ، وقد وصلت بعلامها إلى كل ما وصل إليه الرجل . أما المرأة الشرقية فنسكودة الحظ ، تعسة الجد ، لا لسبب إلا أنها خلقت في بيئة لا تقدر الإنسانية ، ولا تعرف حقوقها . فلا عجب

إذا وجدناها مهضومة الحقوق ، مهملة في التعليم . فمتى يأتي يوم نرى فيه كل فتاة مصربة قد أخذت نصيبها من التعليم الخلق والدينى ، والتدبير المنزلى ، والعلم بتربية الأطفال وتمريض المرضى ، حتى ترقى الأمة ، ويرتفع مستوى أبنائها ؟

لا ينكر أحد فضل التعليم ، ولا ينازع منازع في وجوب تعليم الابن والبنت . لقد ترقى المرأة الإنكليزية بعلمها ، وتنهت تركيا الحديثة إلى حقوق المرأة ووجوب تعليمها ، ومساواتها بالرجل ، ففتحت أمامها المدارس والوظائف ، واستيقظت الصين الجنوبية ، فابتدأت تشعر بوجوب تعليم المرأة .

وإني أرجو أن يأتي اليوم الذى تشرق فيه الشمس في مصر وفتياتها جميعهن متعاملات مهذبات ؛ كي يستطعن القيام بالواجب نحو أبنائهن وأزواجهن إذا تزوجن ، ونحو أنفسهن إذا لم يتزوجن . وإني أقصد بالتعليم التعليم الذى يؤدى إلى الفضيلة والرق والسكال في كل ناحية من نواحي الحياة .

إننا لا ننسركر أن البيت هو مكان المرأة ، ولكن ماذا تفعل إذا كان لديها أخوات كثيرات لم يتزوجن ؟ هل يقضين حياتهن متمطلات أو يعاملن كي يستطعن القيام بواجبهن نحو أنفسهن ونحو الأمة ، ولا يكنّ كلاً على أب قد يكون فقيراً ؟

ماذا يكون موقف المرأة المتزوجة إذا كانت لا تعرف القراءة والكتابة وسافر زوجها لعمل خاص يستغرق سنة أو أكثر ، ولم تسمح له أحواله بأخذها معه ، إذا أرادت أن ترسل له رسالة عن أمور لا تريد أن يطلع غيرها عليها ؟ وماذا تفعل إذا تسلمت رسالة من زوجها ؟ أليست في تلك الحال مضطرة إلى أن تبحث عمن يكتب أو يقرأ لها ؟ أليس في ذلك إفشاء للأسرار البيتية ؟ أليس من الغريب أننا ما زلنا نرى بعض النساء لا يزلن يذهبن إلى رجال ليكتبوا لهن رسائلهن الخاصة ؟

أليس من الخطر في بعض الأحيان أن تترك بعض الأدوية في المنزل إذا كانت الزوج غير عالمة بالقراءة ؟ فقد تستعمل صبغة اليود ظناً منها أنها قطرة ، وفي ذلك ما فيه . إن المرأة الغربية لم تتعلم العلوم الأولية فحسب ؛ بل شاركت الرجل في كل علم من العلوم ، وفن من الفنون . وفي انجاعة مثلاً نجد المعلمات أكثر من المعلمين .

قال (المسترمان) في تقريره ص ٧ : « إن الجميع يقررون بأن من النقص الجسيم في نظام التعليم بالقطر المصري أن الوسائل المعدة حتى الآن لتعليم البنات ضئيلة بالنسبة إلى ما هو معد للبنين . على أن وزارة المعارف قد وجهت عنايتها إلى هذا الأمر أيضاً ؛ فهي الآن تواصل جهودها المحمودة في إيجاد المحال المطلوبة لإجابة للرأى العام الذي أخذ يتجه اتجاهها سريعاً إلى هذه المسألة ، بيد أنه قد يكون من المناسب أن نذكر في هذا المقام أن كثيراً من كبار المفكرين المصريين يرون أن جانباً كبيراً مما ينتاب الحياة الاجتماعية المصرية في الوقت الحاضر من العيوب الجسمية يرجع في الغالب إلى نقص نظام التعليم النسوى ؛ فإحصاءات الصحة العامة لا يمكن عدّها الآن مرضية . والسبب في ذلك أن كثيراً من التدابير الصحية التي لا تراعى الآن في تقويم الصحة العامة وتربية الأطفال ، وعلاج الأمراض الخفيفة الفاشية بوجه خاص في مصر لا يمكن أن يقوم بها على الوجه الأكمل سوى الزوجات والأمهات اللاتي يتبعن في حفظ الصحة وإدارة الشؤون المنزلية تلك الفطرية الراقية والعادات الحسنة ، التي هي ثمرة غرس التربية الصحية السديدة في طور الطفولة حين يسهل انطباع الأشياء في النفس البشرية . وذلك غير متوفر في مصر .

إن الإنفاق على تعليم الفتيات المصريين يمكن أن يعد بحق إنفاقاً على تحسين الصحة العامة ، بشرط أن يسير ذلك التعليم دائماً على نهج عملي معقول . وعلى هذا

الرأى يعد الإنفاق المذكور مشمرا من الوجهة الاقتصادية على الأقل . ولا يقلل من فائده وثمرته أن ربحه لا يظهر على الفور في شكل جنهيات وقروش . هذا ما قاله (المسترمان) في أثر تعليم المرأة ، وليس في حاجة إلى تعليق .

ماذا تفعل المرأة إذا طلقها زوجها وكانت يتيمة فقيرة ؟ أليس من الحزم أن نعلمها من العلم ما يقيها شر السؤال ؟

وماذا تفعل الفتاة إذا تركت غير متزوجة ولا أخ لها ولا معين ولا نصير ؟ ماذا تفعل إذا توفي عنها زوجها وترك معها كثيرا من الأطفال الصغار ولا مال يقوم بتربيتهم أو معيشتهم ؟ ماذا تفعل إذا ترك لها زوجها فتيات لم يتزوجن ، وليس لديها ما يقوم بالنفقة عليهن ؟ هل يتركن كلاً على تلك الأم المسكينة العاجزة عن الكسب التي قسا عليها الدهر ، أو يتعلمن من الصغر العلم الذي يناسبهن ، والحرفة التي يملن إليها حتى إذا تركت الواحدة منهن من غير زواج ، أو طلقت أومات عنها زوجها ، أومات أبوها أمكنها أن تعتمد على نفسها وتكسب عيشها من وسيلة شريفة هي العمل والاعتماد على النفس ، والأكل من عرق الجبين ؟ وأيهما أشرف العلم أم الجهل ، والكسب من عمل شريف أم من عمل دنى ، والاعتماد على نفسك أم على غيرك ؟ ليس هناك مضرة ولا منقصة ولا عار في تعليم الفتاة التعليم الذي يمكنها من كسب عيشها والاعتماد على نفسها إذا ابتليت بيوم أسود ، أو أصابت بفقر أو فقد زوج أو أب . أمن العيب أن نجعل المرأة حية بالعلم قادرة على العمل ؟ هل العار في العمل والقدرة على كسب العيش من طريق شريف أو في الاستجداء من الناس والالتجاء إلى وسائل غير شريفة ؟ ماذا تستطيع المرأة المصرية أن تفعل إذا تركت وحولها خمسة أطفال لا دخل لهم ولا معين ؟

فيأيها المصريون ، علموا المرأة ، ولا تعطوا نصف الأمة ؛ فحال أن ترق مادام نصفها الذي يقوم بالتربية المنزلية متمطلا جاهلا ، لا يعرف عن الحياة شيئا . ساعدها

بالتربية ، ورقوها بالعالم والتعليم . واحترموها ؛ فما هي إلا مخلوق مثلكم . ولا تتركوها جاهلة مهمة . وفكروا في تربية بناتكم ، كما تفكرون في تربية أبنائكم .

إن المرأة ضعيفة فتوردها بالعالم وحسن الخلق ، ولا تقبروها بالجهل وهي حية . احفظوها من الخرافات العتيقة . أعطوها حقوقها ، وافتحوا سبل التعليم أمامها ؛ فإن المرأة إذا تعلمت استطاعت أن تقوم بما يقوم به الرجل : استطاعت أن تكون معلمة وطبيبة للنساء والأطفال ، وممرضة للمرضى ، ومربية ، وكاتبة ومؤلفة ، ومدافعة عن حقوق المرأة ، واستيقظوا من سباتكم إن كنتم نائمين ؛ فالأمة التي يعم فيها التعليم البنين والبنات إذا حاربت أمة تفكر تعليم البنات - كانت تحارب بيدين ، أما الثانية فتحارب بيد واحدة . والنصر للأولى من غير شك . ورحم الله حافظ إبراهيم إذ يقول :

الأم مدرسة إذا هذبها أعددت شعبا طيب الأعراق
ورحم الله شوقي إذ قال :

وإذا النساء نشأن في أمية رضع الرجال جهالةً وخمولا
ليس اليتيم من انتهى أبواه من هم الحياة وخلفاه ذليلا
إن اليتيم هو الذي تلقى له أمّا تخلّت أو أباً مشغولا

وليس الذكاء مقصورا على الأبناء ، وليس خاصا بالبنات ؛ بل هو شركة بين النوعين . ومن النقص أن توجه العناية إلى نوع ويهمل الآخر . ومن الحكمة أن ننتفع بذكاء البنات في دائرة حياتهن كما ننتفع بذكاء البنين ، حتى نجد شعبا جمع بين الحسينين ، ينهض ببلاده ، ويعيد إليها تراثها التالذ .

الفقراء والتعليم العالى

إذا قلنا بتعليم الفقراء التعليم الابتدائى بالجان - فإننا نقول يجب أن يعلم الأذكىاء منهم التعليم الثانوى ، ثم التعليم العالى ولو بالدين على أنفسهم ، حتى ننتفع بذكائهم ومواهبهم . ولقد اعترف (المستر تشرشل) فى كتابه « الماصرون العظماء »^(١) بأن من الواجب إعطاء الفرصة للأذكىاء من أبناء الطبقات الفقيرة والمتوسطة ، فى كل سبيل من سبل التعليم والحياة . وإنه يقول : « إننا لا ندرى ماذا كنا نفعل لو لم يظهر من بيننا أمثال هؤلاء العظماء من أبناء الفقراء كاللورد كينيدى ، ومستر رمزى مكدونالد وغيرهما من عظماء إنجلترا . »

إننا لا نؤيد رأى القائل بأن التعليم العالى للفقراء خطر على المجتمع ، ولا نؤمن بمبدأ أولئك المحبين لأنفسهم ، القائلين بحرمان الأمة بمجهود العنصر العامل المثار فيها ، إن كان هناك من يقول بحرمانهم التعليم العالى . إن الأمة بأفرادها ، سواء أكانوا فقراء أم أغنياء ؛ فإذا وقفنا بالأذكىاء من أبناء الفقراء عند باب التعليم العالى كنا حجب عثرة فى سبيل تقدم الأمة ورقبها . إن المجتمع يحكم عليه بالمدينة أو التأخر بالنظر إلى مستوى الفقراء فيه . ولا يعد المجتمع راقيا إلا إذا فكر فى حقوق هذه الطبقات الفقيرة من المصريين .

إن الفقراء يشعرون بما يشعر الأغنياء ، ويحسون ما يحسون . ولهم من الحقوق ما لهم ، وعليهم ما عليهم . فإن شجعنا الأغنياء على التعليم العالى وجب أن نشجع الأذكىاء من الفقراء عليه ، ولا فرق بين الغنى والفقير إلا أن ذاك غنى وهذا فقير . ولا عيب فى الفقير إلا أنه فقير ، إن كان الفقر يعد عيبا . يجب أن نحل لهم ما أحل

لغيرهم ، ولا نحرم عليهم ما أحلّ الله لغيرهم ؛ فالناس سواسية كأَسنان المشط ، ولا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى .

إننا لا نريد أن نغلق أبواب التعليم العالى فى وجوه الطبقات الفقيرة ، ونفتحها فى وجوه قوم قد لا يفكرون فى العمل ؛ لأنهم لا يشعرون بالحاجة إليه ، ولا ينظرون إلى أن الحياة هى العمل ، والعمل هو الحياة . إن الأمة التى تريد النهوض لا يمكنها أن تعتمد على الطلبة الأغنياء الذين يرهبون العام بعد العام ، ولا ينتفعون بأوقاتهم ، ولا يتعظون إذا قلت لهم إن الوقت هو الحياة ، والحياة قصيرة ، ويجب أن تملأ بالأعمال الجليلة ، والآثار الخالدة . قد يهزون أكتافهم إذا أرشدتهم وقلت لهم : استفيدوا من أوقات فراغكم ، وحافظوا على دروسكم ، وقوموا بأداء واجباتكم ، وواظبوا فى حضوركم ؛ فإن النظام هو الحياة . إنهم قد يسخرون فى أنفسهم إذا قلت للمعلم منهم إنك لم تخاق عبثا ، بل خلقت لتعمل ، ولتقوم بعمل جليل تتركه أثرا حسنا ، وذكرا جميلا من بعدك .

أما الفقير فيلاحظ عليه فى التعليم العالى أنه مثل للمواظبة وأداء الواجب ، والعمل والنشاط ، يتقبل كل نصيحة أو إرشاد مع الشكر والتقدير بلسانه ، وعلى صفحات قلبه .

إذا قرأنا التاريخ وجدنا أن العظمة كثيرا ما تنمو فى الأكواخ ، وتجد تربة صالحة بين الطبقات الفقيرة والمتوسطة .

يجب أن نعلم الأذكياء من الفقراء التعليم العالى حتى لا يقبر ذكاء طفل مصرى ؛ فقد نجد من بينهم رجلا عظيما كأبراهام لينكولن ، أو مصاحا مثل (دكنز) ، أو مثالا للعظمة العقلية مثل (اللورد ماكولى) ، أو مثالا للأدب مثل (صمويل چونسون) ، أو كاتبا

علما مؤرخا مثل (هـ . ج . ويلز) ، أو كاتبا روائيا عظيما مثل (جورج برنارد شو) ، أو كاتبا قصصيا مثل (أرنولد زينت) .

يجب أن يعطى الأذكىاء من أبناء الفقراء الفرصة ليقوموا بالتعليم الابتدائى ثم الثانوى ثم الجامعى ، حتى ينالوا نصيبهم من الحياة ، وتنتفع الأمة بمجهودهم ، وعزيمتهم وصبرهم . لقد حرّموا التربية المنزلية فيجب أن نعوضهم ما فقدوه بالتربية المدرسية العلمية إن سمحت لهم مواهبهم واستعداداتهم . وإذا أردنا رقى المجتمع المصرى وتحسين مستواه الصحى والاجتماعى والخلقى ، فليس أمامنا سبيل سوى التربية الحقّة ، والتعليم الصحيح ؛ فإن أنصاف المتعلمين خطر على أنفسهم وعلى الأمة والنظام الاجتماعى . ومهما يكلف التعليم من النفقات فهو العلاج الوحيد لتحسين حال الفقراء ، وجعلهم أسعد حالا ، وأحسن نظاما .

يجب أن نشجع الأذكىاء أينما وجدوا ، ونفتح السبل أمامهم ، ولا نضع العقبات فى سبيلهم . وإذا وجد منا طائر وابتدأ يطير وجب أن نساعد على الطيران ، ولا نقص أجنحته بالنقد أو عدم التشجيع .

إن الفقير الذكى إذا تعلم تعليما جامعيا ارتفع مركزه ومستواه فى الحياة ، ومن مصلحة الشعب أن يرتفع مستوى المعيشة والحياة الصحية والمساكن بين الفقراء . فمن حياة الفقراء ومعيشتهم يمكن الحكم على مستوى الأمم . ولا تزال إنجلترا تعد من العار عليها أن يوجد بين أحياء السكان فى الناحية الشرقية من لندن أحياء قذرة ، ضيقة الطرق .

إننا لا نريد تشجيع الأذكىاء من أبناء الفقراء على التعليم العالى للمحافظة على حاضرنا ؛ بل لإعادة ماضينا ، ماضى قدماء المصريين ، وتحسين مستقبلنا .

ولو استطعنا أن نكلف مفتشى التعليم الإلزامى اختيار أذكى أطفال المدارس الإلزامية بكل أمانة وإخلاص ، ووجدنا - مثلاً - في كل مدرسة طفلاً واحداً ذكياً ، لتكوّن لدينا أطفال أذكىاء بعدد المدارس الإلزامية وهى لا تقل عن (٤٥٠٠ مدرسة) في جميع أنحاء القطر المصرى. إننا لو أخذنا هؤلاء الأطفال الأذكىاء وألحقناهم بالمدارس الابتدائية بالمجان ، أو أنشأنا لهم مدارس خاصة بهم تدعى مدارس الأذكىاء ، وتمهّدناهم بالتربية والتعليم إلى آخر مرحلة ممكنة من التعليم العالى ، لتكوّن لدينا ذخيرة كبيرة من شباب تستطيع مصر أن تنفع بمواهبهم وذكائهم ، ومقدرتهم وكفائتهم في شق طريق الحياة ، والنهوض بها إلى مستوى الأمم المتحضرة . وعلى أكتاف هؤلاء الذين لا يعتمدون على شيء سوى ذكائهم ومواهبهم الفطرية ومقدرتهم العالمية يمكننا أن نستعيد مجد آبائنا الأقدمين .

وإن من يوفقه الله لتنفيذ هذه الفكرة يقوم بأداء أكبر خدمة لترقية

الشعب .

وفي الوقت الذى نادى فيه بتعليم الأذكىاء من أبناء الفقراء التعليم الجامعى يؤلّنا أن نقول : إن هناك عدداً كبيراً من الطبقة المتوسطة من المصريين ومن الموظفين القادرين ، يريدون أن يعلموا أبناءهم التعليم الجامعى بما يقتصدونه أحياناً من قوتهم ، ويودون أن يدفعوا لهم المصروفات المدرسية ، ولكنهم لا يجدون الكلية التى يرغبون إلحاق أبناءهم بها : يذهبون إلى كلية العلوم فتلفظهم إلى كلية الهندسة ، ويذهبون إلى هذه فتحولهم إلى كلية الزراعة ، وهكذا يتنقلون بطلبتهم من كلية إلى أخرى ، ولا يجدون من يشجعهم على تحقيق رغباتهم ، فى تكميل تعليمهم الذى يميلون إليه ، ويجدون فى أنفسهم رغبة فيه ، ويحاولون الوصول إليه

بكل وسيلة من الوسائل : بالرجاء حيناً ، والإلحاح حيناً آخر ، ولكنهم يردون عن رغباتهم بحجة أنهم لم يحصلوا على نسبة معينة من الدرجات . وغريب أن ترفض هذه الطلبات من أية كلية من الكليات في الوقت الذي تقبل فيه في أى جامعة من الجامعات الأوروبية والأمريكية إذا وجد الطالب الوسائل التي تساعد على السفر لإتمام تعليمه بأوروبا أو أمريكا . وكان الأجدر بجامعة أن ترحب بطلبتنا وأبنائنا ، وتفتح أبوابها لمن يريد أن يتعلم رغبة في العلم والبحث العلمى ، ولكن الجامعة تحتاج أحياناً بمجموع الدرجات ، وترفض أحياناً لضيق الأمكنة وقلة المعامل .

أما مجموع الدرجات فيعلم كل من له صلة بالامتحانات في التربية والتعليم أن هذا المقياس لا يعد المقياس الحقيقى الذى يوزن به الطالب كما توزن الجواهر ؛ فالممتحن قد يصلح ورقة في الصباح فيضع لها درجة خاصة ، ثم يصلحها في المساء فيغير رأيه ويضع لها درجة أخرى . فإذا كان الشخص الواحد يختلف في تقدير الورقة الواحدة فما قولك إذا كان المصلحون كثيرين ، يختلفون في التقدير والميول والأذواق ، والحكم والدقة فيه ، والشدة أو التساهل ؟ وهناك مواد يختلف المصلحون في تقديرها كل الاختلاف ؛ فقد تقرأ ورقة أمامهم ليقدر كل منهم درجة لها ، فتسمع العجب العجيب عند التقدير ، فمنهم من يقدر لها ثمانى عشرة درجة ، ومن يقدر لها خمس عشرة درجة ، ومن يحدد لها اثنتى عشرة درجة ، ومن يضع لها ست درجات . فبأى تقدير نأخذ ؟ وعلى أى ميزان نعتمد ؟ وبأى مقياس نثق ؟ وهناك اثنتا عشرة درجة بين تقدير الأول والأخير ؟ فإذا كان الفرق بهذا المقدار في فرع واحد لمادة واحدة ، فماذا يكون الحال في الإنشاء الإنكليزى والإنشاء الفرنسى

والتاريخ والجغرافية والأدب ؟ وقد أجريت تجارب في إنجلترا وأمريكا لإصلاح بعض الأوراق في مواد محدودة الدرجات كالحساب والهندسة والجبر ، ثم وزعت الأوراق فيها على عدد من العلماء في أوقات مختلفة ؛ فكان الاختلاف في التقدير واضحا . فكيف بعد هذا نحاسب الطالب على نصف درجة أو درجة ، أو خمس درجات في المجموع ؟

أما ضيق المعامل الذى يحتجون به فيمكن التغلب عليه بجعل الدراسة في الصباح لفريق ، وفي المساء لفريق آخر ، كما يمكن الانتفاع بما في معهد التربية للمعلمين من العمل الذى نقل إليه من مدرسة المعلمين العليا عند إلغائها . ولم لا ننشئ المعامل الكافية التى تحقق رغبات الشعب في تعليم من يرغب من أبناء الشعب التعليم الذى يميل إليه ؟ لم لا ننشئ المعامل ونبنى الأماكن ، وقد كثرت الشكوى في أول كل عام من بدء الدراسة ، حتى أصبح الآباء يعدون أبناءهم مشكلة من المشاكل ، لأنهم - إن وجدوا المال لتعليمهم - لا يجدوا السكينة التى يرغبون في تعليمهم بها . ولو كنا ممن ينتفعون بالتجارب لتداركنا هذا بعد الشكوى مرة أو مرتين أو ثلاثا ، ولكن الشكوى تكرر كل عام ولا نفكر في بناء تلك المعامل التى يجعلونها حجة لهم^(١) .

يقولون : إننا نريد التشديد في القبول لرفع مستوى الجامعة ، وهل يرفع المستوى بخمس درجات أو عشر يزيدها الطالب في مجموعته ، وقد وضعت على أساس واه كما ذكرنا ؟ إن رفع المستوى يكون من الأساس لا من القمة ، فإذا عنيينا بالتعليم في رياض الأطفال وفي المدارس الابتدائية والثانوية وعودنا للتلاميذ البحث والاطلاع

(١) كان هذا كله قبل إنشاء جامعة فاروق الأول بالإسكندرية سنة ١٩٤٢ .

وشجعناهم على الاعتماد على النفس في الدراسة ، وعلى القراءة في أوقات الفراغ ارتفع مستوى التعليم ، ووصلنا إلى النتيجة التي ننشدها من النهوض بالتعليم في جميع مراحله .

وقد يقصد من التشدد في القبول تحديد عدد المتخرجين كي لا يكثر المتعطلون منهم بعد التخرج ؛ ولكننا نقول : علموهم الاعتماد على أنفسهم لا ليكونوا موظفين ؛ بل لينفعوا الأمة بثقافتهم العالية في النواحي العلمية والاجتماعية . علموهم وكفى . فالتعليم غاية ، والحاجة تفتق الحيلة . ومن أراد كسب العيش فأمامه ألف وسيلة ووسيلة لكسبه . وكثيرا ما نادى ذلك الرجل العظيم الدكتور طه حسين بك في كتابه « مستقبل الثقافة في مصر » ، وفي محاضراته وفي مقالاته في الصحف بفتح أبواب الكليات لمن يريد أن يتعلم ، ولكن لن يئأس ، ولن يئأس تلاميذه معه ، حتى تحقق تلك الفكرة وهي تعليم من يريد أن يتعلم من المصريين التعاليم التي يلائمها .

وهناك نقطة يجب أن ننتبه إليها كل الانتباه هي : أن علماء التربية من إنكليز وفرنسيين وأمريكيين نادوا جميعا بمراعاة ميول الطالب في دراسته ؛ كي تثمر تلك الدراسة ، وينبغ فيها ويظهر مهارته ؛ بأن يوجه الراغب في الأعمال الهندسية إلى الهندسة ، والراغب في الطب والجراحة إلى الطب والجراحة ، والمحب للزراعة إلى الزراعة ، والشغوف بمهنة التعليم إلى التعليم . وهكذا .

ولكن نظرة واحدة إلى الطريقة التي نسير عليها في مصر تبين لنا أن الراغب في الطب يوجه إلى معهد التربية ، والراغب في هذا يحول إلى الزراعة أو التجارة ، والشغوف بالطبيعة أو الكيمياء أو الرياضة يحول إلى كلية الآداب ، وهكذا توجه الميول إلى غير ما خلقت وأعدت له ، فلا عجب إذا انخفض مستوى التعليم . ولا غرابة

إذا قبر ذكاء كثيرين من الطلبة بكتب رغباتهم وميولهم وتوجيههم إلى حيث يكرهون. فلا عجب إذا قل ذوو الكفايات الماهرون في كل ناحية من النواحي الأدبية والعلمية والعملية . في كل عام يضح الآباء والمربون ، وليس هناك من يسمع ضجيجهم ونداءهم. فإلى متى نسير في هذا الطريق ؟ ومتى نعطي كل طالب من الطبقة المتوسطة أو الغنية أو الفقيرة الفرصة ليثقف الثقافة التي يميل إليها ؛ كي تنتفع به الأمة ، وتظهر الكفاية والمقدرة في كل مادة أو علم .

وفي الوقت الذي يعلم فيه الطلبة التعليم العالي بالبحان في بعض الأمم ، وفي الوقت الذي يمنح فيه الأذكىاء من الطلبة الفقراء قروضا مالية للاستعانة بها على إتمام تعليمهم الجامعي على أن يردوها بعد تخرجهم ونجاحهم في حياتهم العملية ، نجد أحيانا الأبواب موصدة أمام الطلبة المصريين الذين لا يعوزهم المال ، ولكن يعوزهم إيجاد مكان في كلية من الكليات ، أو مدرسة من المدارس. فهم يريدون أن يتعلموا على نفقتهم ، ولكنهم يجدون كثيرا من العقبات في سبيلهم . ولأذكر لكم مثلا مما يقاسيه الطالب المصري في سبيل قبوله بالمعهد الذي يميل إليه .

تقدم طالب يقيم من القسم العلمي في سنة ١٩٤٠ إلى إحدى كليات الجامعة ، وكانت مجموعته خمسين في المائة ، فرفض العميد قبوله مستندا إلى شرط القبول الذي يحتم فيه على الطالب وقتئذ الحصول على خمس وخمسين في المائة . وبعد إلحاح رضى بقبوله في فرع الجامعة بالإسكندرية .

شرحت للعميد أحوال هذا الطالب من أن خاله يقوم بالإئفاق عليه وعلى إخوته لفقد أبيهم . وإذا استطاع خاله أن ينفق عليه بإبقائه معه في القاهرة فإنه لا يستطيع الإئفاق عليه في الإسكندرية ، الأمر الذي يقعه عن مواصلة دراسته ويضيع مستقبله .

أصر العميد على رأيه ولم يقتنع بتلك الأسباب . ولكن بعد محاولة أخرى من جهة ثانية وافق العميد على قبوله لا مراعاة لمصلحة الطالب نفسه ، ولكن لإرضاء لرغبة من الرغبات .

وإننا نرجو - ضارعين إلى الله - أن يأتي اليوم الذي يجد فيه المتعطشون للعلم حباً للعلم ، وللأدب حباً للأدب ، ولفن رغبة في الفن - الوسائل الكافية لإزالة ظمئهم ، وإرواء عطشهم ، وتحقيق رغبتهم وآمالهم ، كي تفخر مصر بهم وتنهض بعجودهم . وما ذلك على الله بعزيز .

وقد قلَّ الضمط على جامعة فؤاد الأول بعد أن أُنشئت جامعة فاروق الأول بالإسكندرية ، وأصبح العلم مُيسراً أمام الطلبة في كل كلية من الكليات العلمية والأدبية ولله الحمد . ونرجو ألا يمضي وقت طويل حتى تنشأ جامعة أسيوط ، ويعمم التعليم ، وينتشر التعليم الجامعي .

الديمقراطية والتعليم الأولى^(١)

لخضرة صاحب العزة عميد الأدب العربي بمصر والشرق

الدكتور طه حسين بك

تحقيقاً للفائدة نرجو أن يسمح لنا الدكتور طه حسين بك المستشار الفني لوزارة المعارف مرة أخرى باقتباس ما ذكره عن « الديمقراطية والتعليم الأولى » ، ووجوب العناية بإعداد المعلم الأولى ، والمدارس الأولية ، ومرحلة التعليم الأولى لا تكفي ، وخطر التعليم الأولى وأهميته » في كتابه القيم : « مستقبل الثقافة في مصر » . وهي موضوعات صادرة من قلب مصلح من كبار المصلحين ، يقول ما يعتقد ، ويعتقد ما يقول ، ولا يخشى في الحق لومة لائم . من قلب يفيض رغبة في الإصلاح ، وإيماناً بالعلم وأثره . وسيجد فيها القارئ جمالا في الأسلوب ، ووضوحا في الفكرة ، وقوة في الحججة ، وسدادا في الرأي ، وشجاعة في التعمد . ولو نفذت هذه الآراء لكان في تنفيذها الخير كله لمصر والمصريين ، والثقافة والمتعلمين . قال كتب الله له دوام التوفيق :

« لست في حاجة إلى الإطالة في إثبات أن التعليم الأولى الإلزامي ركن أساسي من أركان الحياة الديمقراطية الصحيحة ؛ بل هو ركن أساسي من أركان الحياة الاجتماعية مهما يكن نظام الحكم الذي تخضع له . فهذا شيء قد فرغ الناس منه منذ عصر طويل ، وقد فرغت منه مصر أيضا منذ صدر الدستور الذي فرض هذا التعليم الإلزامي فرضا ، وكلف الدولة أن تكفله ، وأوجب على الآباء أن يرسلوا أبناءهم إليه . ونحن إذا أردنا أن نختصر الأغراض الأساسية التي يجب على الديمقراطية أن

(١) ارجع إلى كتاب : « مستقبل الثقافة في مصر » - الجزء الأول للدكتور

تكفلها للشعب لم نجد أوجز ولا أشمل ولا أصح من هذه الكلمات التي ذاعت في الديمقراطية الفرنسية منذ عامين وهي : أن النظام الديمقراطي يجب أن يكفل لأبناء الشعب جميعا الحياة والحرية والسلام . وما أظن الديمقراطية تستطيع أن تكفل غرضا من هذه الأغراض للشعب إذا قصّرت في تعميم التعاميم لأولى ، وأخذ الناس جميعا به طوعا أو كرها .

فلأجل أن تكفل الديمقراطية للناس الحياة ، يجب قبل كل شيء أن تكفل لهم القدرة على الحياة ؛ أي أن تكفل لهم التصرف في هذه المذاهب المختلفة التي تمكن الفرد من أن يكسب قوته دون أن يلقى في ذلك مضارة أو عنتا . ومن الطبيعي أن الحياة التي يجب أن تكفلها الديمقراطية للناس ، إنما هي الحياة القابلة للتطور والرق من ناحيتها المادية ، ومن ناحيتها المعنوية . فليس يكفي أن يكون الفرد قادرا على أن يتنفس ويتحرك ليس غير . وليس يكفي إذا بلغ الفرد طورا من أطوار الحياة المادية أن يقف عنده ، ولا يعدوه حتى يموت . وإنما يجب أن تمكنه الديمقراطية من أن يجوزه إلى طور آخر خير منه . فمن زعم أن الديمقراطية تستطيع أن ترضى عن نفسها ، وترى أنها أدت إلى الشعب ما يجب أن تؤدي إليه حين تضمن للأفراد ما يقيم أودهم ، ويعصمهم من الموت جوعا ، فقد أخطأ خطأ شنيعا .

يجب أن تضمن الديمقراطية للناس ما يقيم أودهم ، ويعصمهم من عادة الجوع . ولكن يجب أن تضمن لهم مع ذلك القدرة على أن يصلحوا أمرهم ، ويتجاوزوا ما يقيم الأود إلى ما يتيح الاستمتاع بما أباح الله للناس من لذة ونعيم في هذه الحياة .

وليس ينبغي أن يُطلب إلى الديمقراطية أن توزع على الناس أقواتهم ، وتشيع فيهم اللذة والنعيم وهم هادئون مطمئنون . فهذا شيء لن يتاح لنظام إنساني ، وإنما

موعد الناس به الجنة التي وعد الله بها عباد الصالحين . إنما الذي يطلب إلى الديمقراطية ويفرض عليها أن تمنح أفراد الشعب وسائل الكسب التي يسمعون بها في الأرض ، ويلتمسون بها الرزق ، وأن تزيل من طريقهم ما قد يقوم فيها من العقبات التي تنشأ عن الظلم والجور ، وعن التحكم والاستبداد ، وعن مقاومة الطبيعة نفسها لتصرف الإنسان .

وأول وسيلة من وسائل الكسب التي يجب على الديمقراطية أن تضعها في أيدي الأفراد ، إنما هو التعليم الذي يُمكن الفرد من أن يعرف نفسه ، ويثبتته الطبيعية والوطنية والإنسانية ، وأن يتزود من هذه المعرفة ، وأن يلائم بين حاجته وطاقته ، وما يحيط به من البيئات والظروف .

وقد لا يكون من المعقول أو من الميسور أن يطلب إلى الديمقراطية منح الأفراد كل ما يحتاجون إليه أو يقدرّون عليه من هذه الوسيلة . ولكن الشيء الذي لا شك فيه أن الديمقراطية ملزمة أن تمنح الأفراد حظاً يسيراً من هذه الوسيلة ، لا سبيل إلى العيش بدونه في أي بيئة متحضرة .

فالدولة الديمقراطية ملزمة أن تنشر التعليم الأولي ، وتقوم عليه لأغراض عدة .
أولها أن هذا التعليم الأولي أيسر وسيلة يجب أن تكون في يد الفرد ليستطيع أن يعيش .

والثاني أن هذا التعليم الأولي أيسر وسيلة يجب أن تكون في يد الدولة نفسها لتكوين الوحدة الوطنية ، وإشعار الأمة حقها في الوجود والمستقبل الحر ، وواجبها للدفاع عن هذا الوجود .

والثالث أن هذا التعليم الأولي هو الوسيلة الوحيدة في يد الدولة لتمكين الأمة من البقاء والاستمرار ؛ لأنها بهذا التعليم الأولي تضمن وحدة التراث الوطني الياسر

الذى ينبغى أن تنقله الأجيال إلى الأجيال ، وأن يشترك في تلقيه ونقله الأفراد جميعا في كل جيل .

وليس الأفراد في حاجة إلى دفع الضرائب التى تمكن الدولة من البقاء والعمل إذا لم تضمن لهم الدولة أيسر ما يحتاجون إليه ليعيشوا ، وليكونوا أمة واحدة قادرة على الوجود ثم على الخلود .

ليس من شك إذن في أن من أبسط واجبات الدولة وأوضحها ، وأدناها إلى البداهة أن تنشر التعليم الأولى ، وتقدم عليه وقد فرض الدستور عليها ذلك . فتقصيرها في ذاته يلزمها إثم التفريط في ذات الدستور .

، وإذا كانت الديمقراطية مكافئة أن تضمن للأفراد الحرية كما ضمنت لهم الحياة ، فإن الحرية لا تستقيم مع الجهل ، ولا تعايش الغفلة والغباء . فالدعامة الصحيحة للحرية الصحيحة إنما هى التعليم الذى يشعر الفرد بواجبه وحقه ، وبواجبات نظرائه وحقوقهم ، والذى يشيع في نفس الفرد هذا الشعور المدنى الشريف ، شعور التضامن الاجتماعى الذى يجعله حريصا على احترام حقوق نظرائه عليه ليحترم نظرائه حقوقه عليهم .

وإذا كانت الديمقراطية مكلفة أن تضمن للناس السلم التى تحميهم من أن يعدو بعضهم على بعض في داخل حدودهم الجغرافية ، واتى تحميهم من أن يعدو عليهم الأجنبي ، فإن هذه السلم لا تستطيع أن توجد لأن الدولة تريد على الوجود ، إنما هى محتاجة إلى مادة توجد لها ، وأداة تحققها . والمواطنون الأحرار وحدهم هم القادرون على إيجاد هذه السلم . هم مادتها وهم أدواتها ؛ ذلك أن الرجل الذى لا حظ له من الحرية عاجز بطبعه عن إيجاد السلم وعن حمايتها ؛ بل عاجز بطبعه عن تصور السلم .

إنما هو قادر على أن يعيش ذليلاً ، وعلى أن يكون عادياً باغياً إن أُتيحت له فرصة
البنى والعدوان . فلن تستطيع الديمقراطية أن تسكف للناس حياة ولا حرية ولا
سِلماً إلا إذا كفلت لهم تعليماً يُتيح لهم الحياة ، ويبيح لهم الحرية ، ويمكنهم من
السلم . ولكن ما هذا التعليم الذى يجب أن تذيعه الدولة الديمقراطية فى الناس
وتأخذهم به ؟ لتسكف لهم هذه الأغراض الثلاثة التى أشرنا إليها ؟

أيسر هذا التعليم هو هذا الذى يمكن الفرد من أن يعرف نفسه وبيئته الطبيعية
والوطنية ، ويلائم بين حاجاته وبين هذه البيئة الطبيعية والوطنية . وإذا أردنا تفصيل
هذا المقدار اليسير من العلم فنظن أن الفرد محتاج قبل كل شيء إلى أن يقرأ ويكتب
ويحسب ، ويعمل أيسر العمل بعقله وبديه ، ليستطيع أن يفهم عن نظرائه ، وليستطيع
نظراؤه أن يفهموا عنه . ويجب أن يعرف الفرد أنه عضو فى بيئة وطنية هى الأمة ،
وأن هذه الأمة قد كانت قبيل أن يوجد ، وهى كائنة أثناء وجوده ، وستكون بعد
أن يموت . وإذن فلا بد من أن يعرف تاريخها معرفة يسيرة . ولا بد من أن يعرف
حالتها الحاضرة ونظمها القائمة . ولا بد من أن يشعر بألمها ، ويتصور مستقبلها على
وجه ما .

ثم إن هذه الأمة لا تحيا فى الخيال ، ولا تضطرب فى الوهم ، ولكن الله قد
قسم لها مكاناً من الأرض أقرها فيه . ولهذا المكان حدوده الجغرافية التى تحصر
أقطاره ، والتى يستطيع أفراد الأمة أن يضطربوا بينها ، ويمملوا وهم آمنون مطمئنون
فى حدود ما ورثوا من عادة وتقليد ، وما شرعوا من نظام وقانون .

فإذا تجاوزوا هذه الحدود كانت لهم سيرة أخرى غير سيرتهم فى داخلها ،
وخضعوا لنظم أخرى لم يشرعوها ، ولعادات وتقاليد لم يرثوها عن آبائهم . وقد
يسمعون لغة غير اللغة التى يتكلمونها داخل حدودهم ، وهم على كل حال مضطرون

إلى كثير من الأوضاع وألوان العيش التي تضطر نفوسهم إلى شيء من الحرج ، وتثير فيها شيئاً من الاستغراب . وجملة القول أنهم غرباء إذا تجاوزوا هذه الحدود . فيجب إذن أن يعرف الفرد هذه الرقعة من الأرض التي قُسمت لأُمته ، فأصبحت لها وطناً تحبه وتؤثره ، وتفثديه بالأنفُس والأموال ، وتحتمل الميسور وغير الميسور من الجهد في سبيل حمايته من العاديات ، لا لأنها تعيش فيه نخسب ؛ بل لأنه مهد حضارتها ومستقر أجيالها القديمة ، فأرضه مكونة من رُفات هذه الأجيال . فالتفريط فيها تفريط في الآباء والأجداد ، وإباحة لحرمتهم التي يجب ألا تباح . وهذه الأرض هي مصدر الخير الذي يعيش منه الأفراد ، ومصدر النعيم الذي يستمتعون به . فهم حراس عليها ، ولهذا ولأكثر من هذا هم حراس عليها لأنها ميدان حياتهم ونشاطهم ، ومسرح آمالهم ورجائهم ، ومستقر حضارتهم ومدنيتهم ، والملجأ الأمين لكل ما يحبون ويؤثرون . ولهذا الأمة لغة تمكن أفرادها من أن يفهم بعضهم بعضاً ، ويُفرض بعضهم إلى بعض بذات نفسه ودخيلة ضميره ، وبأيسر حاجاته وأعسرها . فلا بد إذن من أن يتعلم الفرد لغة أُمته ويتقنها ليحقق هذه الفكرة اليسيرة الأولية وهي : أنه حيوان اجتماعي ناطق . وإذن فالقदार اليسير الذي يجب أن يشترك المصريون جميعاً في العلم به ، وفي العلم به على أحسن وجه ممكن ، هو تاريخ مصر وتقويمها ولغتها ، ثم نظامها السياسي والمدنى والاجتماعى الذى تقوم عليه حياتها وتصلح عليه أمورها ، ثم هذا المقدار اليسير الذى يمكن الفرد من أن يعمل بعقله ويده إلى حد ما .

وواضح جداً أن أمر الدين هنا كأمره في الفصل الماضى : يختلف باختلاف النظرة التي تنظرها إليه الدولة . فإن رأت إقامة التعليم على الفكرة المدنية الخالصة وتركت أمر الدين إلى الأسر ، ولم تُقم في سبيل تعليمه المصاعب والعقبات . وإن رأت إقامته على الفكرة المدنية الدينية قسمت للتعليم الدينى مكانه من هذا البرنامج .

ولست الدولة مسئولة عن تكوين عقل الصبي وقلبه فحسب ؛ بل هى مسئولة أيضا - ومسئولة فى مصر بنوع خاص عن حماية جسمه من الآفات والعلل ، وتمكينه من النمو المطرد الذى لا يتعرض لاضطراب ولا فساد . فلا بد من أن يكون فى التعليم الأولى مكان ممتاز للتربية البدنية يضمن للأمة تكوين أجيال صحيحة الأجسام والعقول معا .

وقد يستبىح المشرفون على التعليم الأولى لأنفسهم فى بعض البلاد المتحضرة شيئا من الإهمال فى حق التربية البدنية والنفسية ، ويكتفون بالفراغ للتعليم وتربية العقل ؛ لأنهم يعتمدون على الأسرة فى تحقيق ما لم يحققوا ، والنهوض بما لم ينهضوا به من تربية الأجسام والأخلاق . ولكن هذا النحو من الإهمال مستحيل فى مصر الآن على أقل تقدير ؛ لأن الأسرة المصرية فى هذا الجيل والجيل الذى يليه بعيدة كل البعد عن أن تستطيع النهوض بأعباء التربية الصالحة للجسم والخلق . ولا بد من مرور زمن طويل قبل أن تستطيع الدولة الاعتماد على الأسرة فى شؤون التربية ، وانتظار معونها على تكوين الأحداث والشباب .

وجوب العناية بإعداد المعلم الأولى

« وقد قلت إن المنهاج المكتوب والبرنامج المرسوم ليسا هما الغاية التى نقصد إليها أو نكتفى بها . وإنما الغاية هى تكوين الصبي الصالح للنمو ، القادر على أن يكون شاباً نافعا لنفسه وأمتة .

وليس سبيل ذلك أن يكون المنهاج جيدا ، والبرنامج مُتقنا فحسب ، وإنما سبيل ذلك أن ينفذ المنهاج الجيد والبرنامج المتقن تنفيذا صالحا منتجا .

والسبيل الوحيد إلى ذلك هو المعلم الصالح لفهم المنهاج والبرنامج وتنفيذها على أحسن وجه وأكمله .

فإذا أرادت الدولة أن تعنى بالتعليم الأولى فلا بد لها من العناية بالمعلم الأولى . وكل تعليم مهما يكن فرعاً وطبقته لا يستقيم أمره إلا إذا نهض به المعلم الكفء . ولكن الكفاية في المعلم الأولى لها خطر آخر ليس لكفاية غيره من المعلمين . فالمعلم الأولى أمين على أبناء الشعب ، وهو مسئول عن هذه الأمانة أمام الشعب من جهة ، وأمام الدولة من جهة أخرى . مسئول أمام الشعب لأن الآباء والأمهات إذا أرسلوا أبناءهم إلى المدارس انتظروا أن يخرجوا منها وقد نمت أجسامهم وعقولهم ، وصفت قلوبهم ، واستقامت أخلاقهم ، وأصبحوا خيراً منهم حين دخلوا هذه المدارس . فإذا رُدَّ إليهم أبناءهم على غير هذه الحال ، إذا رُدَّ إليهم أبناءهم مرضى وقد كانوا ينتظرون لهم الصحة والنمو ، إذا رُدَّ إليهم أبناءهم جهلاً وقد كانوا ينتظرون لهم المعرفة والفهم ، إذا رُدَّ إليهم أبناءهم معوجة أخلاقهم ، سيئة سيرتهم وقد كانوا ينتظرون لهم استقامة الخلق وحسن السيرة ، كان من حقهم أن يسألوا المعلم عن هذا كله ؛ لأنه تلقى أبناءهم صالحين للتطور والرقى ، فأفسد حين كان ينتظر منه الإصلاح . وهو مسئول عن هذه الأمانة أمام الدولة ؛ لأنها حين دفعت إليه أبناء الشعب قد كلفتهم أن يهيئهم ليكونوا أعضاء صالحين مصالحين في البيئة التي يعيشون فيها ، قادرين على احتمال الأمانة الوطنية التي يتلقونها من التعليم الأولى ، والتي تعدهم لحماية الوطن وإقرار الأمن والعدل فيه ، وتمكينه من الرقى والطموح إلى حال خير من الحال التي هو فيها .

فإذا رُدَّ المعلم الأولى إلى الدولة صبية عاجزين ، قد فترت مهمتهم ، وضعفت قلوبهم ، وقصرت عقولهم عن أيسر ما ينبغي لها من حسن الفهم والحكم والتقدير ،

كانت الدولة خليفة أن تحاسب هذا المعلم ؛ لأنه تلقى منها مادة صالحة فأفسدها ، ولم يُهيئها للمهمة التي يجب أن تُهيأ لها .

وإذا كان المعلم الأولي أميناً على أبناء الشعب ، مسئولاً عن هذه الأمانة الثقيلة أمام الشعب من جهة ، وأمام الدولة من جهة أخرى ، فمن حقه على الشعب والدولة أن يجد عندهما المعونة على النهوض بهذه الأمانة الثقيلة التي يفرضها عليها ، ويسألانه عنها .

وهذه المعونة ذات أوجه ثلاثة كلها خليق بال العناية والرعاية : فأولها أن الدولة ملزمة أن تهيب المعلم تهيباً صالحاً ؛ لينهض بهذه الأمانة الثقيلة على أحسن وجه . ومعنى ذلك أن الدولة يجب أن تعنى بالمدارس والمعاهد التي تخرج للتعليم الأولي رجاله .

ومهما تبذل الدولة في ذلك من جهد ، ومهما تنفق في سبيله من مال ، فلن تبلغ من ذلك ما ينبغي ؛ ذلك لأن هذه المدارس هي التي تخرج الأمناء الذين نكل إليهم أبناءنا ، وتشكل الدولة إليهم قوام الحياة الوطنية ومادتها . وقد تعودنا في مصر أن نحقر أمر التعليم الأولي ، وأمر الذين ينهضون به ويفرغون له . وما أحسب أننا نخطئ في شيء كما نخطئ في هذه الخطوة التي مضينا عليها من ازدراء التعليم الأولي ومعامليته .

لا بد من أن تكون مدارس المعلمين صالحة كأحسن ما يكون الصلاح ، في حياتها المادية وفي حياتها المعنوية ؛ بحيث لا يعيش الطلاب فيها عيشة ابتذال وهوان ، ولا يشعرون فيها بأنهم عيال على الدولة ، وبأنهم طبقة منحلة متواضعة من طبقات الشعب . فإنك تطلب إلى المعلم الأولي أن يبت في نفس الطفل العزة والكرامة وحب الحرية والاستقلال . فيجب أن تُشعره العزة والكرامة ، وتشربه في قلبه حب الحرية

والاستقلال ؛ لأن الرجل الذليل المهن لا يستطيع أن يُنتج إلا ذلاً وهونا ، ولأن الرجل الذى نشأ على الخنوع والاستعباد لا يمكن أن ينتج حرية واستقلالاً .

إن الشعب الذى يريد أن ينشئ جيلاً صالحاً خليق قبل كل شئ ، بأن يفكر فى المعلمين الذين ينشئون له هذا الجيل .

وليس يكفى أن تكون حياة المدرسة صالحة من الناحية المادية والمعنوية ؛ بل يجب أن يكون التعليم فيها صالحاً أيضاً . فكما أن الذلة لا تنتج عزة فكذلك الجهل لا ينتج علماً .

وما ينبغى أن تكلف المعلم الأولى تعليم الصبية تاريخ وطنهم وهو مجهل هذا التاريخ ، أولاً يعرفه إلا مشوهاً منقوصاً . وما ينبغى أن تكلفه تعليم الصبية جغرافية وطنهم وهو مجهل هذه الجغرافية ، ولا يعرف حدود الوطن ولا أقطاره .

وقل مثل ذلك فى اللغة ، وقل مثل ذلك فى النظام ، وقل مثله فى الدين إن أردت أن يكون الدين جزءاً من التعليم الأولى .

وليس صحيحاً أن الغرض من التعليم الأولى فى بلد كمصر إنما هو محو الأمية ، وجعل أبناء الشعب قارئى كاتبين فى أقصر وقت ممكن ؛ بحيث يُكتفى من المعلم بما كنا نكتفى به منذ حين من القدرة على تعليم الصبية القراءة والكتابة وأوليات الحساب .

فإن هذا النوع من التعليم الذى لا حظ له من نُضج ، ولا من قدرة على المقاومة والاستقرار والثبات ، يوشك أن يكون أقرب إلى الشر منه إلى الخير . فإن الصبي الذى يُلم بالقراءة والكتابة والحساب ، ثم يُدفع إلى ميادين الحياة العملية دون أن يمضى فى فرع آخر من فروع التعليم . هذا الصبي بين اثنتين : فاما أن تشغله الحياة وصروفها عما تعلم فى الكتاب فينساها ويرتد جاهلاً كما كان ، واهياً كما بدأ ،

وإذا هو قد أضع وقته ووقت معلميه في المدرسة . وإما أن يستبق علمه بالقراءة والكتابة ، وإذا هو يقرأ كل ما يقع إليه في غير تمييز ولا اختيار ، وإذا عقله مستعد لأن يتخذ صورة ما يقرأ على اختلافه وتباينه ، وعلى اضطرابه وتناقضه .

وإذا هو ينشأ ضعيف العقل ، فاسد الرأي ، مشوّه التفكير ، عاجزاً عن الفهم والحكم ، مستعداً للتأثر بكل ما يلقى إليه ، والاستجابة لكل ما يُدعى إليه . وهذا النوع من الشباب خطر على نفسه وعلى أمته ؛ لأنه خطر على النظام الاجتماعي دائماً . فيجب أن نزرع من رءوسنا فكرة القناعة بالقراءة والكتابة والحساب في التعليم الأولى ، وفكرة الاكتفاء بمحاربة الأمية . فإنك لا تحاربها ولا تمحوها بهذا التعليم اليسير ، وإنما تؤجل سيطرتها على الأفراد ، أو تعرض الأفراد لشر منها للتورط في كثير من ألوان الفساد الاجتماعي على غير فهم ولا علم ولا تمييز .

وإذا انتزعنا من رءوسنا هذه الفكرة ، واقتنعنا بأن التعليم الأولى أهم وأعمق وأقوم من تعليم القراءة والكتابة والحساب ، فقد يجب علينا ألا نكتفى بالمعلم الأولى كما هو الآن ، وبأن نكون جيلاً من المعلمين الأولين يعرفون أكثر من القراءة والكتابة والحساب ، ويقدرّون على أن يعلموا الصبية أشياء أخرى إلى القراءة والكتابة والحساب .

وقد يراني بعض الناس غالباً إذا جعلت الشهادة الثانوية شرطاً أساسياً لدخول الطلاب مدارس المعلمين الأولية . ولكن هذا هو الذي تأخذ به الديمقراطية الحديثة ، وهذا الذي لا بد لنا من الأخذ به إن أخذنا تكوين الأجيال المقبلة بالحزم والجد .

وأنا أفهم ألا يُشترط التعليم الجامعي للنهوض بأعباء التعليم الأولى ، ولكن الشيء الذي لا شك فيه أن هذا التعليم الجامعي إذا أضيفت إليه أصول التربية التي تتصل بحياة الطفل وتنشئته كان أقرب إلى النفع منه إلى أي شيء آخر .

وأنا مع ذلك لا أَلحُ في أن يتخرج المعلم الأولى من الجامعة ، ولكن أَلحُ في أن يظهر بالشهادة الثانوية؛ ليحصل على مقدار صالح من الثقافة العامة ، ثم يفرغ بعد ذلك في مدرسة المعلمين لشئون التربية والتعليم عامين أو ثلاثة أعوام .

والوجه الثالث الذى لا بد من العناية به بالقياس إلى المعلم الأولى نتيجة لازمة لهذين الوجهين الماضيين .

فالمعلم الأولى في مصر يشغل في حياتنا الاجتماعية مركزا متواضعا جدا ، متواضعا من الناحية المادية ، لأن الدولة تقتر عليه في الرزق ، ولا تأجره إلا أجرا يمكنه مما يقيم أوده ليس غير .

والمعلم الأولى إنسان كغيره من الناس . له حقه المطلق في أن يعيش ، وفي أن يعيش عيشة راضية إلى حد ما ، وفي أن يبسم للأمل ، وببسم له الأمل ، وفي أن يربّي أبناءهم ويعلمهم خيرا مما ربّي هو ومما تعلم ، وفي أن يطمع لهم في مراكز خير من مركزه . ولا بد من أن تمكنه حياته من ذلك ، ومن أن تأجره الدولة أجرا يلائم عمله الخطير من جهة ، وحقه الطبيعي وأمله المعقول من جهة أخرى .

وإذا غيرت الدولة رأيها فيه ونظرها إليه ، وفتحت له أبواب الحياة الراضية ، والأمل الباسم ، تغير فيه رأى الشعب أيضا ، وتغير نظر الشعب إليه ، وحكمه عليه ، وظفر بحظ معقول من الكرامة والاحترام بين مواطنيه . وكما أننا نريد أن يشعر الطالب في مدرسة المعلمين بأنه كغيره من المصريين ، له الحق مثلهم في أن يكون عزيزا كريما ، فنحن نريد أن يشعر المعلم حين يؤدي واجبه بهذه العزة والكرامة ، ليكون مثالا لها أمام التلاميذ .

ومن أغرب التناقض أن نردى المعلم الأولى ، أو ننظر إليه نظرة عطف وإشفاق

خيرٌ منهما الازدراء ، ثم نطلب إليه ونلح عليه في أن يشيع في نفوس أبنائنا العزة والكرامة والحرية والاستقلال !

لا أعرف شراً على الحياة العقلية في مصر من أن يكون المعلم الأول كما هو الآن عندنا سيئ الحال ، منكسر النفس ، محدود الأمل ، شاعراً بأنه يمثل أهون الطبقات على وزارة المعارف شأنًا .

المدارس الأولية

« وأمر التعليم الأولي عندنا غريب من وجه آخر ، محتاج إلى التقويم حقاً ؛ فقد لا يكون من العدل ولا من الإنصاف أن تُتهم الدولة في مصر بالبخل على التعليم الأولي ، أو التقصير في العناية بنشره وإذاعته كما يريد الدستور . ولكن الدولة تخلق لنفسها في سبيل ذلك ألواناً من المصاعب والمشكلات تسكاد تفسد عليها جهودها كله ؛ لأنها تستنفد أكثر ما ترصد الدولة من المال لهذا التعليم دون أن تغني في ذلك غناء .

ذلك أن وزارة المعارف قد وضعت في رأسها ، أو وضع العهد القديم في رأسها للمدرسة الأولية صورة أقل ما توصف به أنها عقيمة ، مضیعة للمال والجهد في غير نفع ، محاولة للتعليم الأولي عن طريقه الصالحة المنتجة ، إلى طريق أخرى معوجة ملتوية ، أولها الخطأ وآخرها الفساد .

وزارة المعارف تريد أن تكون المدرسة الأولية بناءً على الطراز الأوروبي الحديث . فهي إن أرادت أن تنشئ مدرسة ففكرت قبل كل شيء في البناء الصالح لتستأجره أو لتقيمه ، ثم فكرت في تأثيثه الحديث ، وأنفقت في هذا كله مقداراً غير قليل من المال ، لا أعرف الآن ما هو بالضبط ، ولكنني أحقق أنه أكثر مما ينبغي . وأكبر

الظن أن ما تنفقه وزارة المعارف في بناء مدرسة وتأثيثها يكفي لإقامة مدارس وتأثيثها. إذا نظرت الوزارة إلى هذا الأمر نظرة مصرية معقولة ، لا نظرة أوروبية غالية .

فليس المهم أن يكون البناء أنيقا ، ولا أن يكون الأثاث حديثا ، وإنما المهم أن يكون البناء مستكملا للقسط المعقول من الشروط الصحية ، وأن يكون الأثاث نظيفا . وليس على الدولة ولا على الشعب بأس من أن يكون البناء والأثاث متواضعين .

وربما كان البأس كل البأس فيما نحن فيه من التأنق والإسراف . ذلك أن هذا التأنق يباعد بين البيئة المدرسية والبيئة المنزلية مباعدة خطيرة على الأخلاق والنظام جميعا .

فأنا أفهم أن يذهب ابن القرية إلى المكتب ، فيرى فيه نظاما ونظافة خيرا مما يرى في منزله ، ولكني لا أفهم أن يذهب ابن القرية إلى المكتب فيرى فيه تأنقا وترفا ، ويحيا فيه حياة تبغض إليه حياته الغليظة الحشنة التي يحياها آخر النهار وطول الليل ، والتي سيحياها بعد أن يفرغ من التعليم ويعود إلى عيشة أهله وذويه . ذلك خليف أن يزهد الصبي في حياته المتواضعة ، وأن يبغض إليه ما ألف ، وأن يطعمه فيما قد لا يقدر عليه ، وأن يضطر آخر الأمر إلى شيء من السخط والحلق والضيق لا يستقيم عليه النظام ، وأن يجعل منه عنصرا خطرا من عناصر الثورة التي لا تأتي من روية وتفكير وتطور معقول ، وإنما تأتي من السخط والحلق والضيق والحسد ، وحسبك بهذا كله شرا !

فلو أن وزارة المعارف أنفقت هذا المال الكثير الذي تبذله في بناء المدارس الأنيقة والمكاتب المترفة ، لو أنها أنفقت هذا المال في بناء المدارس المتواضعة الملائمة لحياة المصريين في مدن مصر وقراها لأفادت غير قليل في نشر التعليم الأولى

والإصلاح من أمر المعلمين . فإذا أضفنا إلى ذلك أن نشر التعليم الأولى عندنا ضرورة؛ لأن كثرة الشعب لا تزال جاهلة ، ولأنها إلى المعرفة أحوج منها إلى البناء المترف الأنيق ، كان هذا خليقا أن يحمل وزارة المعارف على أن تعيد النظر في أمر التعليم الأولى كله ، في مدارس ومكاتبه ، وفي مناهجه وبرامجه ، وفي معاليه وما يحتاجون إليه من المدارس والمعاهد .

وأى وقت أصلح لإعادة النظر في شئون التعليم الأولى من هذا الوقت الذى تستأنف فيه مصر حياة جديدة في عهد جديد ؟ »

مرحلة التعليم الأولى لا تكفى

« وإذا أتم الصبية تعليمهم الأولى كما ترسمه المناهج والبرامج ، فمن أشد الخطأ وأشنعه أن تكتفى الدولة بذلك ، أو تطمئن إلى أنها قد أدت إلى هؤلاء الصبية حقهم ، ونهضت بما تفرضه الديمقراطية من حماية أبناء الشعب من الجهل ، وتزويدهم بأيسر حظ ممكن من العلم .

فقد يقال إن الحفظ فى الصغر كالنقش على الحجر . ولكن الحجر إذا ترك معرّضا لما تنسجه عليه ريح الشمال وريح الجنوب كما يقول الشاعر القديم ، كان خليقا أن تَطْمَسَ رسومه ، وتَسْتَحْفَى معالمه ، ويظهر للعين كما كان قبل أن تمسه الأيدي بالنقش خِلا من كل رسم ، فلا بد إذن من تعهده وتنقيته بين حين وحين ، حتى تظل الرسوم بادية واضحة ، لا يسترها غبار ، ولا يخفيها نسيج الريح .

والذين يشبهون نفس الصبي بالحجر الذى يقبل الرسم ويحفظه خليقون أن يعضوا بهذا التشبيه إلى غايته ، وألا يطمئنوا إلى مجرد التعليم ، كما لا ينبغي الاطمئنان إلى مجرد النقش على الحجر . فإن خطوط الحياة ومشاعلها خليقة أن تنسج على نفس

الصبي من الهموم والنسيان مثل ما تنسجه جنوب امرئ القيس وشماله على ما ترك
الأحبة من الرسوم والآثار . فالظفر بشهادة التعاليم الأولى لا يتم هذا التعليم ، ولا
يُغنى الدولة من تبعاته ؛ لأن الصبية خليقون إذا لم يتابعهم بالدرس ، ولم نتعهدهم بالتعليم
بعد خروجهم من المكاتب ، أن يجهلوا ما عرفوا ، وينسوا ما حفظوا ، ويرتدوا أميين
كما كانوا قبل أن يدخلوا المدرسة .

والواقع أن هؤلاء الصبية ينقسمون بعد خروجهم من المدرسة أقساما ثلاثة :
فريق يمضى فى التعليم العام إلى غايات قريبة أو بعيدة .

وفريق يمضى إلى التعليم الفنى ليتعلم مهنة من المهن يكسب بها القوت .
وفريق ثالث تتعجلهم الحياة فيعملون مع آبائهم وأقاربهم فيما يعملون فيه من
زراعة أو صناعة أو تجارة .

فأما الفريق الأول فلندعه إلى أن نعود إليه حين نتحدث فى أمر التعليم العام .
وأما الفريق الثانى فأمره إلى الذين يُعنون بتنظيم التعليم الفنى الذى لا نقول فيه
شيئا ؛ لأننا لا نحسن العلم به ولا القول فيه .

ولكننا نستطيع أن نقول إن من الحق على الدولة لهؤلاء الصبية الذين يقصدون
إلى التعليم الفنى ألا تقصرهم على هذا التعليم ، وأن تضيف إليه مقدارا من الثقافة
يترقى فى اطراد ما أقام هؤلاء التلاميذ فى مدارسهم ؛ بحيث إذا خرجوا منها ظافرين
بالمهنة التى أرادوا أن يصطلعوها كانوا قد أخذوا فى الوقت نفسه بحظ حسن من
الثقافة التى تباعد بينهم وبين الجهل ، وتقارب بينهم وبين المعرفة ، وتزيد ما تعلموه
فى المدارس الأولية رسوخا فى عقولهم ، وامتزاجا بنفوسهم ، وتجعلهم شبابا لا يعملون
بأيديهم ليعيشوا فحسب ، ولكنهم يعملون بأيديهم وعقولهم وقلوبهم أيضا ، ويجدون

في هذا كله القوة لا على العيش وحده ؛ بل على العيش والاستمتاع بالذات النقية البريئة التي يجب أن يستمتع بها الشباب .

وأما الفريق الثالث الذين لا يستطيعون أن يتجهوا إلى التعليم العام أو إلى التعليم الفني ، لأن ظروف الحياة تعجلهم عن ذلك ، وتضطرمهم إلى أن يعملوا ليعيشوا ، فمن حقهم على الدولة ألا يجهلوا ما عرفوا ، وألا ينسوا ما حفظوا ، وألا يقفوا عند هذا الحد الذي انتهت بهم إليه المدرسة الأولية . ومن حقهم على الدولة أن تلتأم بين ما يحتاجون إليه من العمل لكسب القوت ، وبين ما يحتاجون إليه من المضي في أسباب الثقافة إلى حد ما .

وإنما يتهيأ لهم ذلك إذا نظمت لهم الدولة دروسا يسيرة مسائية يختلفون إليها بعد الفراغ من أعمالهم ، على ألا يكون ذلك إجبارياً خالصاً كالتعليم الأولى ، ولا اختيارياً خالصاً ترك فيه لهم الحرية المطلقة ، وإنما يكون شيئاً بين ذلك ، فيه حظ من الحرية ، وفيه حظ من الإجبار . وربما كان الترغيب والتشجيع بالمكافآت والمسابقات ، وهذه الشهادات التي تغري الشباب أقوم طريق إلى حثهم على التزيد من هذه الثقافة ، والترفع عن هذا الركود العقلي الذي يضطرون إليه إذا لم تفتح الدولة لهم أبواب المعرفة ، ولم تهني لهم سبلها .

والدولة قادرة على أن تجد الوسيلة إلى تمكين هؤلاء الصبية من المضي في الثقافة على مهل ، حتى إذا بلغوا سن الشباب لم يكن الأمد بعيداً بينهم وبين إخوانهم الذين دخلوا المدارس الفنية فتثقفوا فيها بشيء من المعرفة ينمى فيهم ملكة الفهم والحكم والذوق .

وليست الدولة مدينة لهؤلاء الصبية جميعاً بتنمية العقل والذوق والشعور فحسب؛

بل هي مدينة لهم ولنفسها وللشعب أيضا بتنمية أجسامهم ، وترقية حظهم من الرياضة البدنية . وإنما يتأتى لها ذلك إذا شجعت هذه الرياضة على النحو الذى تشجع عليه الثقافة العقلية .

بهذا كله تضمن الدولة للشعب شبابا صالحين ، قادرين على أن يعيشوا أولاً ، وعلى ألا يقنعوا بأدنى العيش ؛ بل يرغبون فى طيبات الحياة ، ويستطيعون أن يبلغوا منها بعض ما يريدون ثانياً ، وعلى أن يفهموا معنى الوطن ويقدرُوا حقه ثالثاً ، وعلى أن يفهموا هذه الصلة الاجتماعية التى تمسكهم من أن يعايش بعضهم بعضاً ، ويزاحم بعضهم بعضاً ، فى غير مضارّة ولا تعمد للشر ، ولا قصد إلى الإثم ، ولا تورط فى الجرائم والسيئات رابعاً ، وقادرين أخيراً على أن يفهموا معنى الإنسانية ويحققوه . ويشعروا بما لهم على الأمم الأجنبية من حق ، وما عليهم لها من واجب ، قادرين على الجملة على أن يفهموا الحياة ، وينهضوا بتبعاتها ، لأنفسهم وأسرهم ووطنهم وللناس جميعاً .

وكل تقصير فى شىء من ذلك تتورط فيه الدولة عن عمد أو عن اضطرار يعرضها لأثقل اللوم وأشنعه ، ويحمّلها إثم التفريط فى حق الديمقراطية وفى حق الشعب ، ويقيم الدليل القاطع على أنها لم تؤد ما خلقت له على وجهه ؛ وهى من أجل ذلك عرضة لأن يسخط عليها الشعب الذى يقيمها بما يبذل من جهد ، وما ينفق من مال ، وما يتعرض له من التضحية بالأنفس والأرواح ، وعرضة لما يترتب على هذا السخط من فساد الأمن ، واضطراب النظام ، وهذه الثورات الاجتماعية التى إن عُرف كيف تبتدى فليس يُعرف كيف تنتهى ، ولا عند أى حد تقف .

خطر التعليم الأولى وأهميته

« فليس التعليم الأولى إذن من اليسر والسهولة بحيث نظن ، ولكنه معقد أشد التعقيد ، يحتاج إلى الملاحظة الدقيقة المتصلة التي تمكن المشرفين عليه من أن يلائموا بينه وبين هذه الحياة الوطنية والإنسانية ، التي لا تكاد تستقر حتى تتغير وتنتقل من طور إلى طور بتأثير الظروف التي نعرفها والتي لا نعرفها . فمن الواضح أن حياة الأمم في هذا العصر الحديث لا تكاد تثبت وتطمئن إلا ريثما تدفعها الحاجات المختلفة ، وألوان التفكير المتباينة إلى فنون من التغير والتبدل تختلف سرعة وبطءا باختلاف حظوظ الأمم من الرقي والانحطاط .

وليس من شك في أن تصور التعليم الأولى أثناء القرن الماضي كان أيسر وأدنى إلى السذاجة منه الآن . فقد كان يمكن أن يكتفى منه بمحو الأمية ، وتمكين الصبي من أن يقرأ ويكتب ويحسب . ولكن العقل يرقى من يوم إلى يوم ، وهو كلما رقى أمعن في التفكير . وكلما أمعن في التفكير استكشف كثيرا من الحقائق المجردة التي كان يحلها من قبل . وكلما استكشف مقدارا من هذه الحقائق المجردة تأثرت بها الحياة العملية للناس ، فاخترعت أشياء لم تكن ، وتمعدت أمور الناس تعقيدا يزداد من يوم إلى يوم ، واضطر الناس إلى أن يلائموا بين هذه الحياة التي تتمعد في اطراد ، وبين ما ينبغي أن يأخذوا أنفسهم به من العلم ؛ لينهضوا بما تفرض عليهم من تبعات ، وما تلقى على كواهلهم من أثقال .

والتفكير الدقيق في هذه الحقيقة الواضحة خليف بعناية الذين يشرفون على أمور التعليم ؛ لأنه يحقق الصلة بين الطبقة الراقية الممتازة من طبقات الشعب وبين هذه الطبقات الأخرى التي نسميها الدماء ، والتي هي مادة الحياة الوطنية وقوامها دائما .

فلا ينبغي أن تجعل أمور التعليم الأولى إلى قوم متواضعين في الثقافة، متوسطين في العلم؛ لأن هؤلاء لا يقدرّون على أن يفهموا هذا التعليم، ولا على أن يوجهوه وجهته التي ينبغي له. يمنعهم من ذلك قلة حظهم من العلم، وعجزهم عن أن يحيطوا بما يقتضيه تطور الحياة من تطور التعليم الذي يمكن الناس من الحياة ويعينهم على احتمال أعبائها. وما أكثر ما نغتر بلفظ التعليم الأولى! نراه سهلا يسيرا ومتواضعا ضئيلا، فنحسب معناه كلفظه سهلا يسيرا ومتواضعا ضئيلا، وننسى أن التعليم الأولى هو إعداد كثرة الشعب للحياة من جهة، وتحميل كثرة الشعب تراث الأجيال الماضية من جهة أخرى.

وليس هذا بالشيء اليسير الهين الذي يستطيع أن ينهض به أنصاف المتعلمين. إنما أمر التعليم الأولى خليق أن يكون إلى صفوة الأمة وخلاصة النابهين من علماءها وقادة الرأي فيها. أولئك الذين تتسع عقولهم لا لفهم التطور الوطني الخاص فحسب؛ بل لفهم التطور العام الذي تخضع له الحضارة الإنسانية كلها.

والخطر على التعليم الأولى من جهل المشرفين عليه أشد جدا من الخطر على التعليم العالي إذا لم يكن مديروه ومدبرو أمره من الكفاية وسعة العقول بحيث ينبغي. ذلك أن قصور المشرفين على التعليم العالي يمكن أن تنقضي شروره، وتجنب سيئاته؛ لأن الأساتذة الذين يفرغون لهذا التعليم، قادرون على أن يحجوا من قصور المدبرين وعجز المديرين. فأما المعلمون الذين ينهضون بالتعليم الأولى فهم أضعف من أن يقاوموا سلطان الرؤساء، وأعجز من أن يصلحوا ما يفسده قصور المشرفين على أمور هذا التعليم. فإذا كان من الحق على الدولة أن تعنى أشد العناية بالمدارس التي تخرج المعلمين، فمن الحق عليها أن تبذل ما تملك من جهد في اختيار الذين تكل

إليهم إدارة هذا التعليم الأولى ، بحيث تستطيع أن تطمئن إلى أن هذا التعليم لن يقصّر عما يطلب إليه ، ولن يجمد في طريقه ويصبح أداة صلبة لاحظ لها من المرونة ، ولا قدرة لها على التطور ومجاراة الحياة . »

إلى هنا انتهت تلك الموضوعات القيمة والآراء السديدة التي اقتبسناها من كتاب « مستقبل الثقافة في مصر » للدكتور طه حسين بك . وإني أعتقد أنها ليست في حاجة إلى تعليق ؛ فقد خرجت من قلب يفيض رغبة في الإصلاح ، وحباً وإخلاصاً للوطن العزيز . وستصل إلى القلوب التي تفكر في مصر ، والنهوض بها في كل مرحلة من مراحل التعليم . ولو عنيينا بالتعليم الأولى والمعلم الأولى العناية اللائقة بهما ، ونفذنا هذه الآراء القيمة لاستطعنا أن نصلح هذا النوع من التعليم الذي يتعلق بأكثرية الشعب ، وتكون لدينا نشء جديد قوى الجسم ، منظم الفكر ، كريم الخلق ، صافي القلب ، مهذب الذوق والشعور ، يدرك ماله من حق فيطالب به ، وما عليه من واجب فيؤديه خير أداء .

التعليم الإلزامى بمصر

عموبه وطرق إصلاحه

فى أوائل ديسمبر سنة ١٩٣٤ أراد صاحب المعالى الأستاذ أحمد نجيب الهلالى باشا وزير المعارف ، ونصير الإصلاح ، ومنصف المعلمين ، فى ذلك الحين أن يبحث حال التعليم الإلزامى فى مصر ويعمل للنهوض به ، بعد أن بحث حال التعليم الابتدائى والتعليم الثانوى وأصلحهما ، وقرر وضع ما يلائمهما من الخطط والمناهج والكتب الدراسية ، فأمر بإرسال لجنة من المفتشين للفحص عن حال التعليم الإلزامى فى كل مديرية من مديريات القطر المصرى لمدة أسبوع سعى « أسبوع التعليم الإلزامى » . وكنت إذ ذاك عضوا فى اللجنة التى كلفت الفحص عن ذلك النوع من التعليم بمديرية المنية . ولندكر فيما يلى خلاصة الآراء التى قدمتها لمراقبة التعليم الأولى إذ ذاك ، وقد مضى الآن نحو تسع سنوات على ما قدم لها من تقارير لا ندرى ما تم فيها ، ولا نزال نسمع شكاية من كل جانب بحاجة التعليم الإلزامى إلى كثير من الإصلاح . وكل ما نعرفه أن المنهج غير ناه ، ولكن لم تؤلف له كتب دراسية تلائم التلاميذ ، وتساعد المدرسين فى تدريس المنهج كما ينبغى .

زرت فى ذلك الأسبوع عددا كبيرا من المكاتب العامة للبنين والبنات ، صباحا وبعد الظهر فى القرى النائية من مراكز أبى قرقاص والمنية وسماوط وبنى مزار ، كما زرت عددا قليلا من المدارس الأولية فى المدن والقرى ؛ لمعرفة الفرق بين التعليم الإلزامى الحالى والتعليم الأولى القديم ، وبين التعليم فى المدن والتعليم فى القرى .

العيوب العامة للتعليم الإلزامى

عيوب التعليم الإلزامى كثيرة نذكر منها ما يأتى :

أولاً : إن أكبر عيب من عيوب التعليم الإلزامى نظام نصف اليوم ^(١) ؛ فقد نفر الآباء من تعليم الأبناء ، وأضاع نصف الوقت على الأطفال . ولو كان لدينا مصانع أو معامل أو حقول بجانب المكاتب لقلنا إن من السهل أن يتعلم التلميذ فى النصف الأول من النهار تعليماً نظرياً ، وفى النصف الآخر تعليماً عملياً ، ولكن المصانع والحقول لا وجود لها ، والأطفال يقضون نصف أوقاتهم فى اللعب بالتراب فى الأزقة والحارات منتظرين دورهم ، ولم تساعد البنت أمها فى البيت ، ولا الابن أباه فى الحقل ، لتكون البنت والابن على صلة ببيئتهما الأصلية كما يظن واضعو المشروع .

لقد وضع نظام نصف اليوم لتسهيل نشر التعليم فى أقصر وقت ممكن ، ولكن هب أن البنات انتسبن إلى المدرسة أول النهار فهل تجد من السهولة حضور البنين إلى المدرسة ، ومواظبتهم فى المجئ إليها بعد الظهر أى بعد ترك أعمالهم فى الحقل أو

(١) قد علمت أن واضعى هذا المشروع أرادوا بنصف اليوم أن يكون النصف الأول من النهار للتعليم النظرى ، والنصف الآخر للتعليم العملى ، ولكن الوزارة فى ذلك الوقت أخذت الفكرة الأولى وتركت الثانية ، فأصبح النظام ناقصاً مبتوراً . وقد أحسن حضرة صاحب المعالي الأستاذ أحمد نجيب الهلالي باشا وزير المعارف فى تحويل مائة مدرسة إلزامية سنة ١٩٤٢ إلى نظام اليوم الكامل ، ونرجو أن تتاح الفرصة للوزارة فى تحويل المدارس الإلزامية الباقية وهى نحو ٣٦٠٠ مدرسة إلى اليوم الكامل ، حتى يثمر تعليم الشعب الثمرة المرجوة .

المنزل ؟ وهل تظن أن ولدا يأتي متعبا من العمل في الحقل أو الجرى وراء الدواب لتسميد الأرض وزرعها ، أو وراء سيده الذي ذهب للسفر أو لزيارة هذا أو مقابلة ذاك ، يستطيع أن يفهم شيئا من الدروس بعد الظهر ؟ أليس من المتعب جسمياً أن نكلف الطفل الصغير عمليين في وقت واحد ، وهما كسب عيشه مساعدة لأهله والتعلم ؟ أليس ذلك فوق وسع طفل فقير قد يكون ضعيف الجسم أو جائعا لأنه لا يجد من المواد الغذائية ما يكفي ؟ وهل نتغار أن يستفيد من الدراسة إذا أتى في الظهر وهو وقت الفتور والتثاؤب ، وقلة النشاط ، وخمود الدهن ، وركود العقل في اليوم المدرسى ؟ فلنقل ليأت البنون في الصباح والبنات بعد الظهر ، ولكن هل نضمن مواظبة البنات في الحضور إلى المدرسة كل يوم ظهرا ؟ قد يكون لديهن من الأعمال المنزلية ما لدى البنين بالضبط ، وخاصة إذا كن يخدمن بالمنازل . وقد يكن مشغولات بغسل الأواني وتنظيفها أو ببعض الأعمال المنزلية الأخرى . ومع ذلك من الذى يقبل البنت خادما أو عاملة من الصباح إلى الظهر ؟ إننا نظن أن من الصعب على البنات كما أن من الصعب على البنين القيام بالخدمة والتعلم في آن واحد في عهد الطفولة ؛ فعهد الطفولة - كما قلنا - هو العهد الذى يجب أن ينال فيه الطفل قسطه من التربية والتعليم .

ثانيا : نقل التلاميذ كل ستة أشهر من فرقة إلى أخرى بطريقة آلية من غير امتحان ، سواء أ كانوا أقوياء أم ضعفاء . وبدلا من نقلهم بمجرد مضي الزمن ينبغي اختبارهم لمعرفة قوتهم ومقدار استفادتهم ، فإن برهنوا على أنهم يستحقون النقل نقلوا ، وإلا مكثوا في الفرقة التى ينتسبون إليها حتى يقووا ، ويعالج ما بهم من ضعف ، وحينئذ يمكن نقلهم إلى فرقة أعلى من فرقته . فشكث الطفل ستة أشهر في الفرقة قد يصلح للأذكىاء من الأطفال ، وهم الخمس غالبا كما هو معروف من الاختبارات

العقلية في مقاييس الذكاء . أما المتوسطون من الأطفال والأغبياء فلا يستطيعون معرفة منهج كل فرقة في ستة أشهر . ولا مانع أن يكون قبول الأطفال في سبتمبر ثم في يناير من كل سنة ، على أن يمكث التلميذ العادي سنة في الفرقة الدراسية ، بشرط أن يواظب . أما التلميذ الذكي فيحسن نقله بعد ستة أشهر إذا نجح في الامتحان .

ثالثا : قلة مدة الدراسة :

إذا قلنا إن الغرض من تعليم الفقراء تحسين حالهم ومستواهم ، وتفهمهم الحياة وإعدادهم لها ، فهل تظن أننا نستطيع ذلك إذا جعلنا مدة التعليم خمس سنوات على نظام نصف اليوم - وهي تساوي سنتين ونصف سنة - فهي خمس سنوات اسما لا حقيقة ، وهي مدة قصيرة جدا لا تكفي لمعرفة القراءة والكتابة والحساب ، معرفة تمكن المتعلم من فهم الحياة وما فيها . وهنا يجب أن نسأل أنفسنا : هل تكفي هذه المدة لتعليم الطفل تعليما ينهض به ، ويمكنه من قراءة صحيفة يومية مثلا ؟ إن بعض الأطفال في المدارس الإلزامية بالريف قد يقضى سنة لمعرفة الحروف الأبجدية وبعض الكلمات السهلة ، فهل المدة الباقية تكفي لمعرفة مبادئ القراءة والكتابة والحساب ؟ وما الفائدة من معرفة هذه المبادئ ؟ إنها لا تكفي لترقية الطفل وتحسين حاله ، ومعرفة ما له من حقوق وما عليه من واجبات . إننا إذا أخذنا بتجارب غيرنا من الأمم التي سبقتنا في نشر التعليم ، ورفضنا منها ما رأته بالتجربة غير نافع ومجدد حفظنا أنفسنا من الخطأ الذي وقعت فيه تلك الأمم من قبل . فلم لا نأخذ هذه المشروعات التي لديها الآن ، والتي وضعت بعد تجارب عشرات السنين ، ونعمل بها لنضمن نجاح من نعلمه من الأمة ؟ ولم لا نقول بتعليم أبناء الفقراء التعليم الحق الذي يمكنهم من منفعة أنفسهم وخدمة بلادهم ؟ إن ذلك يحتاج إلى جعل مدة التعليم الإلزامي أو الابتدائي مدة إجبارية ثم جعل التعليم التكميلي اختياريا . وإذا سئلت أيهما تفضل

تعليم أربعة آلاف ألف من المصريين تعليماً نافعا صحيحاً أم تعليم ثمانية آلاف ألف مبادئ القراءة والكتابة والحساب فضلت الأول من غير تردد . ومن الواجب أن تكون مدة الدراسة الإلزامية خمس سنوات كاملة على الأقل .

رابعا : المعلمون مرهقون ؛ لكثرة الأعمال والتدريس صباحا في القسم الأول ، وبعد الظهر في القسم الثاني من المدرسة الإلزامية ؛ فهم يدرسون أربع حصص في الصباح ، ومثلها بعد الظهر . فلدى كل منهم ثمان وأربعون حصّة في الأسبوع ، وقد أنقص العدد إلى اثنتين وأربعين حصّة في الأسبوع . فهم لا يجدون وقتا للراحة في أثناء اليوم المدرسي ، وفي ذلك من الإرهاق ما يدعو بعض المدرسين إلى عدم الإخلاص في العمل ؛ فقد كلّفوا ما فوق طاقتهم ، ولا يكاف الله نفسا إلا وسعها . ولا يجدون من التشجيع المادي أو الأدبي ما يساعدهم في النهوض بواجبهم نحو ذلك العمل الشاق . وهم يشعرون بأنهم في حاجة إلى من يزودهم بكثير من المعلومات والآراء والطرق الصالحة في التربية والتعليم . ولا عجب إذا أملوا على التلاميذ أشياء لا يفهمونها ، ولا يشرحونها .

خامسا : لم توضح المناهج بكتب خاصة تحددها وتبين الطريق أمام المعلم ، وترشده إلى طريقة التعليم ، وتقوده إلى الطريق المستقيم . فهو الآن يسير في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج ، وهو مضطرب لا يدري ماذا يفعل في كثير من الأحيان ، وفي كثير من المواد . وهو أحق المعلمين بالمساعدة بوضع مؤلفات سهلة تبين فيها طريقة تدريس المادة أولاً ، ثم يتدرج فيها بلغة سهلة يسهل على التلاميذ إدراكها ، وبطريقة مرتبة منظمة ، بحيث يستطيع المعلمون تنفيذها والاقتداء بها . وبذلك يملأ الفراغ ، ويكمل النقص الذي يشعر به المعلم الإلزامي في الخطط والمناهج الحالية .

سادسا : كثرة الغياب وقلة المواظبة :

من أكبر عيوب التعليم الإلزامى كثرة الغياب بين التلاميذ ؛ فإقبال الآباء في الأرياف على تعليم أبنائهم قليل ، وقد يكون ذلك ناشئا عن بغضهم لنظام نصف اليوم ، أو عن جهلهم بفائدة التعليم ، أو تضحياتهم بتعليم أبنائهم في كثير من الأحيان في سبيل درهم يكسبه الطفل في يومه ، أو عن هذه الأسباب مجتمعة . ولا علاج لذلك إلا جعل التعليم يوما كاملا كما في المدارس الإنكليزية والفرنسية والأمريكية ، وتكليف الخطباء والوعاظ في المساجد أن يبينوا للناس فوائد التعليم وأثره في الأفراد والأمم ، وسن قانون يحرم اشتغال الأطفال في سن التعليم الإلزامى ، أى سن الطفولة ، والاستعانة برجال الإدارة في كل قرية أو مدينة على تنفيذ قانون الإلزام ، بأن يتولى الشرط توزيع الأطفال على المدارس القريبة من مساكنهم ، ويتصلوا بالآباء والمدارس ، ويتصل بهم الآباء عند النقل من مكان إلى آخر . وبهذه الوسيلة لا يستطيع طفل أن يفر من التعليم .

ونسبة الغياب بعد الظهر أكثر منها في الصباح . ومعظم الغياب في السنتين الرابعة والخامسة : لاشتغال الأولاد في الحقول وغيرها . وتغيب البنات في الأرياف بعد الظهر أكثر من تغيب البنين . ومما يدعو إلى الغرابة أن من غاب عن المدرسة لا يكلف عند عودته كتابة مافاته من الدروس في أثناء غيابه ، فلا عجب بعد هذا كله إذا ضعف مستوى التلاميذ من الناحية العلمية .

وقد اختبرت تلاميذ وتلميذات في الفرق المختلفة ، فلم يستطع بعض تلاميذ السنة الثالثة قراءة شيء مطلقا في كتاب المطالعة ، أو كتابة جملة سهلة . وكثيرا ما اختبرت التلاميذ فيما في كراساتهم ، فوجدتهم لا يعرفون قليلا ولا كثيرا مما دونوه بأيديهم . وهذا دليل على أن الأعمال الكتابية ليست من مجهودهم ، ولكنهم نقلوها من السبورة ، ولا يدركون لها معنى . وقد امتحنا بعض الأولاد الذين تركوا المسكاتب منذ سنتين أو أكثر فوجدنا معلوماتهم العامة قليلة ، ولا يستطيعون القراءة

والكتابة إلا بصعوبة . وقد نسوا كل ما حفظوه من القرآن الكريم ، وما عرفوه عن الدين .

سابعا : تكوين المعلم الإلزامى :

كانت مدارس المعلمين قبل سنة ١٩٢٥ تخرج معلمين أكفاء للتدريس بالمدارس الأولية ، وكانوا يقومون بواجبهم خير قيام ، ولكن حينما احتيج إلى عدد كبير من المعلمين الإلزاميين غير نظام تلك المدارس ، وأكثر منها ، وتخرج فيها عدد كبير يحتاج إلى كثير من الثقافة العلمية والتربوية . وليس الذنب ذنب المعلم الإلزامى الخالى ؛ فالتبعة لا تقع عليه ؛ بل ذنب الأحوال التى أدت إلى التساهل فى تكوينه ؛ فقد كان يسمح لمن ينتسب إلى القسم الليل بمدارس المعلمين ستة أشهر أن يدرس فى المدارس الإلزامية . وإنى أعلم علم اليقين أن ستة أشهر لا تكفى فى إعداد مدرس .

ولإصلاح هذا النقص ورفع مستوى المعلمين الذين اضطرونا لقبولهم فى مهنة التعليم ، تلك المهنة التى تحتاج إلى صبر وخبرة ، وعلم بميول الأطفال وطبائعهم ، وغرائزهم ونفسياتهم ، وطرقهم فى التفكير - يمكننا أن نفتتح لهم أقساما فى مدارس المعلمين فى مصر والأقاليم ، تعطى فيها محاضرات فى يومى الخميس والجمعة من كل أسبوع ، نقدم فيها بالطرق والاتجاهات الحديثة فى التربية ، ونزودهم بالأفكار التى يحتاجون إليها من الناحية العلمية أو العملية ، كما يمكننا أن نعطيهم محاضرات صيفية فى أثناء الصيف ؛ كي نهض بهم وبمستواهم . ولا يعفى أحد من الحضور إلا بعد سنتين من مواظبته على تلك المحاضرات على الأقل . ومن السهل رفع مستوى المعلم الخالى إذا وجد من يرشده إلى خطئه ، ويقوده إلى الطريق المستقيم ، بالإرشاد الكافى فى أثناء التفتيش ، والانتفاع بما كتب فى التربية والتعليم ، وتوزيع بعض كتب التربية عليهم بالمجان ، وتزويدهم بأحدث الآراء والأفكار التى يحتاجون إليها فى مهنتهم .

ولكى نسهل عليهم وسائل الاطلاع والقراءة في بعض أوقات الفراغ ينبغي أن نمد كل مكتب إلزامي ببعض الكتب العلمية ، وبعض كتب التربية الحديثة وعلم النفس ، والأدب العربي، والكتب الأدبية والاجتماعية والخلقية والمجلات العلمية؛ ليستعين بها المعلمون على تنمية معلوماتهم، وليكونوا على اتصال دائم بالحركة العلمية والأدبية، بحيث يتسكون في كل مدرسة إلزامية خزانة صغيرة للكتب يرجع إليها المفتشون والمعلمون والرؤساء . وفي الاستطاعة تزويد تلك المكتبات بالكتب الزائدة على الحاجة في إدارة التوريدات بوزارة المعارف ، ولدى المخازن عدد كبير من الكتب المدرسية التي ألغيت واشترت منها الوزارة قديما الآلاف قبل إلغائها . ففي الاستطاعة الانتفاع بها بتوزيعها على المكتبات الإلزامية ، لينتفع بها المعلمون في بعض المواد الدراسية .

وفي استطاعتنا أن نعنى كل العناية بمدارس المعلمين والمعلمات بحيث يجد الطالب أو الطالبة فيها الثقافة الكافية العلمية والأدبية والفنية، فلا يخرج منها إلا وهو معد إعدادا كاملاً للتدريس في المدارس الأولية أو ما يقوم مقامها بطريقة ناجحة . وعلى إصلاح هذا النوع من مدارس المعلمين والمعلمات الأولية يتوقف إصلاح معلمي المدارس الإلزامية .

ثامنا : ترك المكتبات الإلزامية مدة طويلة تبلغ شهرين أحيانا في أوائل العام بغير أدوات أو كتب ، وفي ذلك مضيعة لأوقات التلاميذ وتعب للمعلمين . ومحال أن تنتظم الدراسة في أى مدرسة أو مكتب إلا إذا كان الأثاث تاماً ، والأدوات الدراسية كاملة ، والكتب متوافرة . وبغير الأدوات والكتب لا يمكن التعليم .

نتائج وملاحظات هامة حول التعليم الإلزامى

- ١ — التعليم الأولي القديم خير من التعليم الإلزامى الحالى .
- ٢ — التعليم الإلزامى فى المدن أحسن منه فى القرى .
- ٣ — تلاميذ النصف الأول من النهار أقوى من تلاميذ النصف الثانى منه ؛ لقلة المواظبة بعد الظهر ، وتعب التلاميذ والمعلمين فى ذلك الوقت من النهار ، وقلة النشاط .
- ٤ — الإقبال على المكاتب فى الصباح أكثر من الإقبال عليها بعد الظهر .
- ٥ — الغياب كثير بعد الظهر فى معظم المكاتب ، وعدد الحاضرين ^(١) قليل جداً . ولذا يسهل ضم قسم بعد الظهر إلى قسم الصباح بغير عناء من غير احتياج إلى زيادة عدد المدرسين فى القرى .
- ٦ — ليست المكاتب الإلزامية كلها فى مستوى واحد ؛ بل يختلف مستواها باختلاف البيئة واختلاف المعلمين .
- ٧ — تلاميذ المكاتب الإلزامية فى نهاية السنة الثالثة فى مستوى السنة الأولى من المدارس الابتدائية .

(١) فى ٨ من ديسمبر سنة ١٩٣٤ والأيام التالية زرت كثيراً من المكاتب بمديرية المنية فلاحظت أن المكاتب تكاد تكون خالية بعد الظهر ، إذا استثنينا منها قسم الحفاظ ؛ ففى مكتب (بنى على) بمرکز بنى مزار كان عدد الحاضرات يوم الزيارة بعد الظهر ثمانى بنات فى السنة الأولى ، وبنات فى السنة الثانية ، واثنين فى السنة الثالثة ، وصفر فى السنة الرابعة ، وثلاثاً فى السنة الخامسة ، فكان المجموع ١٤ تلميذة فى خمس فرق ، وإذا أضفنا إلى هذا العدد من حضر من قسم الحفاظ وهم سبعة كان المجموع ٢١.

نتيجة اختبارى لتلاميذ المكاتب فى فروع اللغة العربية

(١) فى القرآن الكريم : الحفظ ردى ، والإلقاء متكلف ، والمقدار المحفوظ قليل إلا فى قسم الحفاظ .

(٢) فى الدين : يكتب التلاميذ فى الكراسات موضوعات لا يفهمون منها شيئاً .
 (٣) فى المطالعة : التلاميذ ضعفاء لا يستطيعون القراءة فى كتبهم إلا بصعوبة ،
 غير أن تلاميذ المدن يقرءون أحسن من تلاميذ القرى ،
 والبنين يطالعون أحسن من البنات .

(٤) فى المحفوظات : يرددون أشياء لا يدركون لها معنى . والقطع التى يكافون حفظها صعبة فوق مستواهم .

(٥) فى الإنشاء : لا يستطيع تلاميذ السنتين الثانية والثالثة تكوين جمل سهلة على أشياء محسة ، كما لا يستطيع تلاميذ الفرقتين الرابعة والخامسة كتابة رسائل عادية تتعلق ببيئتهم ؛ لقلة الدربة على الكتابة ، وضعف المستوى ، وركاكة العبارة ، وقلة الأفكار .

(٦) فى القواعد : لا يعرفون إلا النزر اليسير فى السنة الأخيرة .
 (٧) فى الإملاء : يستطيع تلاميذ الفرقتين الأخيرتين كتابة بعض القطع المتوسطة فى الصعوبة .

الاقتراحات وطرق إصلاح التعليم الإلزامي

١ - أن يلغى نظام نصف اليوم ، ويكون التعليم يوما كاملا ، ما عدا يومى الاثنين والخميس من كل أسبوع - كما فى المدارس الابتدائية والثانوية . ويضم تلاميذ بعد الظهر إلى تلاميذ الصباح ، حتى يحد هذا النوع من التعليم تشجيعا من الآباء ، ويقل الغياب ، ويشمر المدرسون بالراحة . ولن يؤدى ذلك إلى مضاعفة العدد الحالى من المدارس - كما يظن بعض المعارضين - فإنه لفائدة من إيجاد نظام لا يستريح إليه الشعب ، ولا يطمئن إليه الآباء ، ولا يثق أحد من المربين والقائمين بالأمر بصلاحيته ؛ فإن نظام نصف اليوم نظام فاسد . وقد برهنت التجربة على فساد ، ولم يقل به أحد من المربين الذين نعرفهم فى أية مملكة من الممالك الراقية كإنجلترا وفرنسا وألمانيا والولايات المتحدة بأمريكا وكندا . فالرجوع إلى الحق - وهو المدارس الأولية على الأقل - خير من التماذى فى الباطل ، إلا إذا سمحت ميزانية الدولة بعمل المرحلة الأولى من التعليم مرحلة ابتدائية ، وعممت المدارس الابتدائية فى جميع أنحاء القطر ، وأباحت للفقراء التعلم فيها بالمجان ، كما تفعل إنجلترا وفرنسا وأمريكا وسويسرة وغيرها من الأمم المتحضرة .

٢ - تشجيع المحسن والمخلص من المعلمين ، ولو بكتابة رسالة شكر ، أو زيادة قليلة فى المرتب ، أو نقل إلى مكان يستريح إليه المعلم ، أو ترقية إلى رئيس مدرسة . واستعمال الشدة مع المهملين منهم ؛ كالتأخر عن الموعد المدرسى ، وكن يخرج من المدرسة قبل انتهاء الدراسة ، ومن يقصر فى أداء الواجب أو فى الأعمال السكتائية .

(٣) تحسين مستوى المعلمين من الناحيتين العلمية والتربوية ، وطبع إرشادات عامة لهم تذكر فيها طرق تدريس كل مادة من المواد ، وتوزع عليهم بالمجان من حين لآخر ، ويشرحها

لهم المفتشون الذين يشرفون عليهم ، وإعطاء محاضرات لهم في عواصم المديرية في يومى الخميس والجمعة ؛ كي يكونوا على صلة دائمة بعالم التربية والتعليم ، والمثل العليا في طرائق التدريس .

٤ — أن يعاقب الأب أشد العقاب إذا لم يواظب ابنه على الذهاب إلى المدرسة ، ويستعان برجال الإدارة على تنفيذ قانون التعليم الإلزامى ؛ بأن يتولى الشرط توزيع الأطفال على المدارس القريبة من مساكنهم ، ويتصلوا بالآباء والمدارس ، ويتصل الآباء بهم عند الانتقال من بلدة إلى أخرى . وبهذه الوسيلة لا يستطيع طفل أن يفر من التعليم .

٥ — أن يسن قانون يلزم الآباء إرسال أبنائهم إلى المدرسة في سن معينة ، ويحرم استخدام الأطفال في تلك السن ، سن الطفولة والتعليم .

٦ — ألا ينقل أحد من التلاميذ من فرقة إلى أخرى إلا إذا نجح في الامتحان .

٧ — أن توضع كتب ملائمة لتلك المدارس ، وتوزع على التلاميذ بالمجان ، بحيث تساعد المعلمين في أداء واجباتهم ، وتسهل الطريق أمامهم ، ولا تسكلهم شيئاً من العناء ؛ فهم أشد المعلمين حاجة إلى المساعدة والإرشاد .

٨ — أن يبدأ تعليم الطفل من سن خمس أو ست على الأقل ؛ لأنه لا فائدة من ترك الطفل في تلك البيئة الفقيرة غير الصحية من الخامسة إلى السابعة .

٩ — ألا يرهق المعلم ؛ فلا يكلف أن يعطى أكثر من ست وثلاثين حصّة في الأسبوع ، أى ست حصص في اليوم . وأظن أن من الإرهاق إعطاء المعلم أكثر من ذلك المقدار ؛ كي يجد وقتاً للراحة واستعادة النشاط والقوة ، ويتمكن من إخلاصه في العمل .

١٠ — الإكثار من المفتشين ، وتقليل نسبة ما يُعطاه المفتش من المدارس ،

بحيث لا يكلف في اليوم أن يفتش أكثر من مدرسة واحدة ، كي يكون لديه وقت يسمح له بزيارة المعلمين في دروس مختلفة ، ويجد وقتا كافيا للنصح والإرشاد ، وأن يكتب المفتشون إرشادات للمعلمين يستعينون بها على تدريس كل مادة من المواد ، وأن يعمل كل مفتش لإصلاح عيوب كل معلم تابع له . والمهم أن يرى أثر المعلم في تلاميذه ، بحيث يكون عملهم في الأسبوع الثاني خيرا منه في الأسبوع الأول ، ويكون في الشهر الثاني أحسن منه في الشهر الأول وهكذا ، وبذلك يظهر أثره في كتاباتهم ونظافتهم وإجاباتهم ، ولغتهم ودقتهم . ولا تقصد بعناية المدرس ملء الكراسات ؛ فقد تكون كراسات التلميذ مملوءة ، فإذا أخذتها منه وأعطيتها تلميذا آخر فما فيها من التمرينات التي حصل فيها على الدرجة النهائية أظهر عجزه عن الإجابة والحل . ولا سبب لذلك إلا أن المعلم هو الذي كتب الحل على السبورة ، وقام التلميذ بنقله ، وكانت كل عنايته موجهة إلى حسن النقل بحيث يكون طبق الأصل . وليس الغرض من التفتيش كتابة تقارير آلية عن المعلمين ؛ بل الغرض ذكر ما يمكن من النصائح والإرشادات ، وإصلاح ما يمكن من العيوب في طريقة التدريس ، وتشجيع الحسن ، ونقد الخطأ ، والتعاون مع المدرس ، يسأل المفتش التلميذ إذا شاء ، ويرشد من يحتاج إلى الإرشاد . وينبغي أن يكلف المفتش تفتيش مدارس معينة سنة بعد أخرى لا ينتقل منها إلى غيرها كل سنة ؛ كي يعرف كل مدرسة في دائرته معرفة جيدة تمكنه من معرفة المعلمين والرؤساء ، وتقدير الأحوال المحلية المحيطة بالمدرسة ، والصعوبات التي تعترضها ، فيتعاون معها على تحسين الأحوال السيئة ، وإزالة تلك الصعوبات ، وترقية التعليم ، وتشجيعه بكل وسيلة ممكنة .

١١ — ولتسهيل العمل يجب أن يتولى إدارة التعليم الإلزامى وزارة المعارف ، بحيث تكون هي المسؤولة عن تعليم الشعب ، وتعطى سلطة في فرض الضرائب

الكافية لتعليم كل فرد من أبناء الأمة ، وتختار مديري التعليم ومفتشى المناطق من المربين المعروفين بالكفاية والمقدرة ، والإخلاص في العمل ، والنشاط ، وأداء الواجب . وقد شكوا كثير ممن تولوا الإشراف على التعليم الإلزامى تدخل رجال الإدارة في تنقلات المعلمين وتعيينهم ، مما أدى إلى تنازع السلطة بين المعارف والداخلية في وقت يجب أن تكون فيه السلطة متحدة ، والإشراف تاماً ، والمسئولية محددة ، حتى لا يكون هناك مجال للشكوى ، ولا تكون هناك عقبة في سبيل التنفيذ أو الإصلاح .

• (١٢) ولفقر تلاميذ المدارس الإلزامية وسوء تغذيتهم يجب أن تعمل الأمة كل وسيلة لتعوض عليهم ما فقدوه في بيوتهم من الغذاء الصالح ، حتى نكون شعباً قوياً سليم الجسم .

وقد أحسن حضرة صاحب المعالي الأستاذ أحمد نجيب الهالالي باشا وزير المعارف سنة ١٩٤٢ في العمل لإطعام تلاميذ هذه المدارس في حدود الاعتماد المقرر وقدره مائة ألف جنيه مصرى . وقد اختير بعض المناطق الشديدة الحاجة في مديريات البحيرة والغربية والمنوفية وقنا وأسوان والواحات وساحل البحر الأحمر ، وبمض الأحياء الفقيرة في المحافظات لإطعام تلاميذها ظهراً بالجمان . ونرجو مخلصين أن يأتى اليوم الذى يطعم فيه جميع تلاميذ المدارس الأولية والإلزامية في جميع جهات القطر المصرى ؛ كي تقوى أبدانهم ، وتتحسن صحتهم ، وتقل أمراضهم التى تنشأ عن سوء التغذية وقتلها .

أجوبة عن الاعتراضات التى يعترض بها على نظام اليوم الكامل

١ - يظن بعض الباحثين أن نظام اليوم الكامل يتطلب مضاعفة النفقات . والحق أن المكاتب الحالية تكفى من بهما من التلاميذ المقيدين بها إذا واطبوا على الدراسة . حقاً قد نحتاج إلى بعض المدارس في المدن والمحافظات حيث يكثر الإقبال

على التعليم ، وقد نحتاج إلى مدارس خاصة بالبنات فى القرى الكبيرة ، ولكن إنشاء تلك المدارس لن يكلفنا ملايين من الجنيهات كل عام كما يظن بعض الباحثين . وإن الشعب الذى يريد أن يتعلم يجب أن يتحمل نفقات التعليم . ولا ضريبة أحق بالأداء من ضريبة التعليم .

٢ — يظنون أن نظام اليوم الكامل يخرج الأطفال عن بيئتهم التى نشؤوا فيها ، ويباعد بينهم وبين تلك البيئة . وما تلك البيئة التى نبعد الأطفال عنها ؟ إنها بيئة غير صحية لا تعرف الصحة ، والصحة لا تعرفها . وقد قال (هيرودوت) المؤرخ اليونانى : « من الغريب أن يترك الفلاحون فى جميع أنحاء العالم ماشيتهم فى حقولهم ، والفلاح المصرى يعيش مع ماشيته فى مسكن واحد » .

وغريب أن تبقى هذه البيئة وهذه الحال بين الفلاحين فى بلادنا حتى يومنا هذا . فنحن نطالب بتعميم التعليم كى نقضى على تلك البيئة ، ونعمل لتحسينها ، وإخراج الأطفال منها وإبعادهم عنها . فإذا كان نظام اليوم الكامل يبعد الطفل عن بيئة غير صحية فهذه حسنة من الحسنات لا سيئة من السيئات .

٣ — يظنون أن اليوم الكامل سيجعل الأطفال (مترفين غير قادرين على تحمل متاعب الحياة ، متبرمين بأعمال الزراعة) . ولكن إذا عمم التعليم ونال كل طفل نصيبه منه ، فلن يكون فى هذا ترف ، ولن يتبرموا بأعباء الزراعة وأعمال الحقل ؛ فالكل متعلم ، والزارع متعلم ، ومن يحرق الأرض متعلم . وستضطرم الحاجة إلى العمل وخاصة إذا عرفوا أن ذلك النوع من التعليم لا يؤدى إلى وظائف . فشكل شاب مكلف أن يكسب عيشه من الزراعة أو الصناعة أو التجارة .

٤ — يظنون أن فى اليوم الكامل إرهاقا للتلاميذ . ولم يكون مرهقا لتلاميذ

سخية ؛ فإنها ستكون لهم ولأبنائهم . وعندى أنه لا يمكن تنفيذ عمل إلا إذا كان هناك قانون يلزم الناس القيام بواجبهم نحو التعليم . ويحتاج هذا العمل الجليل إلى تعاون كبير بين جميع أفراد الأمة وطبقاتها .

وينبغي أن يظهر كل مصرى مقدار حبه لوطنه بعمله فى سبيل نشر التعليم . وإن مصر تنتظر من كل ابن من أبنائها ، ونائب من نوابها العمل لتعميم التعليم الإلزامى أو الأولى بأية وسيلة من الوسائل . وبذلك يؤدون خدمة لأمة وضعت ثقها فيهم ، وأمنيتها بين أيديهم ، وإنى وائق بأنهم فاعلون، ولمصر مخلصون .

ومن السهل عمل المباني المدرسية فى مدة قصيرة إذا كانت هناك رغبة فى إنشائها . وكلما تم بناء مدرسة من المدارس وانتهى إعدادها فى أية جهة من الجهات وجب تعيين المدرسين لها فى الحال ، وفتح أبوابها للتعليم نهارا ومساء . وليس من الضرورى فى الابتداء الغلو فى تشييد المباني ، فيكفيها الآن بناء صحى به من الحجر ما يكفى تعليم البنين أو البنات فى سنوات الدراسة المختلفة .

وبدلا من المكاتب غير الصحية التى ترى فى بعض الجهات يمكننا التعليم فى الهواء الطلق تحت شجرة من الأشجار ، فى حقل من الحقول فى البيئة الريفية . والجو لدينا يساعد جدا على هذا النوع من المدارس فى الهواء الطلق . فيجب أن نعلم الشعب ولو تحت أشجار أو فى خيام ؛ حتى تقضى على الأمية فى مصر فى أقصر مدة ممكنة .

يقول (المسترمان) المربى الإنكليزى فى تقريره سنة ١٩٢٩ :

« إنه بالنظر إلى ما أظهره ولاية الأمور من العجلة فى توسيع نطاق التعليم الأولى فى السنوات الأخيرة نجد أن المباني التى أعدت لتلاميذ المدارس الأولية ينقصها فى الغالب كثير من الشروط التى يجب توافرها . والواقع أن كثيرا منها فى حالة سيئة يخشى منها على صحة التلاميذ والمعلمين . . . »

«إنه يمكن القول هنا إن فكرة إيجاد بناء متين يقاوم التقلبات الجوية إنما اضطرت إليها الإنكليز بسبب قسوة مناخهم ، ولكنها غير ضرورية لمصر حيث يستطيع الناس أن يعيشوا في الغالب في الهواء الطلق طول العام ؛ بل بالعكس فإن المستصوب في مصر من جميع الوجوه اتخاذ طراز المدارس التي في الهواء الطلق نموذجاً للمدرسة الأولية المصرية المعتادة متى كان ذلك مستطاعاً ؛ لأنه يفيد التلاميذ كل الفائدة من وجهة الصحة والتعليم معا . ولا مشاحة في أنه ليس من الصواب حبس صبي بدوى في بناء معتم غير صحي بقصد تعليمه ، في حين أن منزله يحيط به فضاء فسيح من الصحراء حيث الجو صحي ، وحيث يتيسر إيجاد المباني القليلة التي يحتاج إليها بقدر يسير من النفقات . والظاهر أن كل ما يحتاج إليه في هذا الصدد هو نصب بعض الخيام وتجهيزها بالخفيف من الأثاث ، وإيجاد حجرة للمعلمين ، ومخزن لخزن الأدوات والإغلاق عليها . ولا مزية في أن اتخاذ مثل هذا الطراز لا يؤدي إلى اقتصاد في المال فحسب ؛ بل يعد احتذاءً لأمثل الطرق المتبعة في أوروبا في الوقت الحاضر .»

خطة التعليم الإلزامي ومناهجه

لقد درست الخطة والمناهج القديمة في سنة ١٩٣٤ في عهد معالي وزير المعارف المصلح الكبير الأستاذ أحمد نجيب الهلالي باشا ، ووضعت خطة ومناهج جديدة ، ثم تركت مدة ليست بالقصيرة ، ولم يفكر في طبعها إلا في عهد حضرة صاحب المعالي الأستاذ على زكي العرابي باشا ، وهي من أحسن الخطط والمناهج .

فليس المهم الآن الخطة أو المناهج ، ولكن المهم تنفيذها بإخلاص ورغبة . ولا نستطيع الوصول إلى ذلك إلا إذا عاوننا المعلمين والرؤساء بوضع كتب توضح تلك المناهج وتحددتها ، وتساعد المعلمين في تنفيذها ، والعمل بما فيها . ولا فائدة من وضع

الخطط والمناهج إذا ترك المعلم يخبط خبط عشواء، ولا يدرى ما يراد من هذه النقطة أو تلك، في حين أنه ليس لديه مراجع يرجع إليها ليستخلص تلك المواد منها. وإذا وجدت المراجع فليس لديه القدرة الكافية على اقتنائها؛ لأن حاله المادية لا تكفى تكوين أسرة والقيام بأودها، والإنفاق عليها وتعليمها. وما هو إلا إنسان له مطالب ورغبات في الحياة تقف دونها موارده المادية.

إنصاف المعلم الإلزامى

يحيا المعلم الإلزامى حياة شاقة؛ فهو متعب صباحا، ومجهّد بعد الظهر، يشتغل من أول اليوم المدرسى إلى آخره. وقد كان يكلف تدريس أربع حصص في الصباح، ومثلها بعد الظهر، ومجموعها ثمان وأربعون حصة في الأسبوع، ثم خفف عدد الحصص قليلا، وجعل سبعا في اليوم بدلا من ثمان، فلديه اثنتان وأربعون حصة في الأسبوع أو أقل. وهو تكليف فوق الطاقة البشرية. وربما كان التكليف فوق الطاقة من أسباب تهاون بعض المعلمين؛ فالمعلم الإلزامى إنسان يشعر كما يشعر الإنسان، ويحس كما يحس، وطاقته الجسمية والعقلية محدودة، فهو يتعب كما يتعب غيره، وله الحق في أن يستريح كما يستريح غيره.

وإذا نظرنا إلى مراتب المعلم الإلزامى ورئيس المدرسة الإلزامية وجدناه مرتبا ضئيلا لا يكفى الضروريات من الحياة لتكوين أسرة، وتربية أطفال؛ فمرتبه أقل من مرتب سائق سيارة، أو طاه يجيد الطهى، وهو لا يتفق وكرامة المعلم ومهنة التعليم.

وإن رجلا مجهد الجسم ، مضطربا في معيشتة والتفكير في أسرته لا يمكن أن ننتظر منه إخلاصا كإخلاص الرجل الذي يجد وسائل التشجيع والعيش ممهدة في سبيله . وإن علة العلل في التعليم الإلزامى قلة الإخلاص بين المدرسين . ولا علاج لهذه العلة إلا تشجيعهم ، وفتح السبل في وجوههم ، والعمل لتيسير الحياة لهم ، وتحسين حالهم المادية والعلمية .

وقد أحسنت وزارة المعارف كل الإحسان في رفع مرتب المبتدئين منهم ، وفي إنشاء صندوق ادخار لهم يمكنهم من العيش في المستقبل .

ولكى نصل إلى إخلاص المعلم الإلزامى - وهو أهم وسيلة لإصلاح هذا النوع من التعليم - يجب أن نشجع المخلص من المعلمين بنقله إلى المكان الذي يرغب فيه ، أو ترقيته من معلم إلى رئيس ، أو قبول أحد أبنائه بالمجان في مدارس الوزارة ، أو منحه بعض مكافآت مالية . وبهذه الطريقة نستطيع أن نجد منهم منافسة في الإخلاص في العمل وأداء الواجب . وإذا أمكننا الوصول إلى إخلاص المعلم الإلزامى أصلحنا هذا النوع من التعليم بأقرب الوسائل ، وأسهل الطرق .

وقد نادى (فيشر) في إنجلترا في سنة ١٩١٧ بتحسين مرتبات المدرسين ونظامها قائلا : « إن من الواجب أن يستريح المدرسون من المتاعب المالية ؛ فإن راحتهم ضرورية لإصلاح التعليم . والمتزوج منهم يجب أن يكون في حالة تمكنه من تربية أسرته تربية صالحة . وإن المدرس الحزين الكاسف البال لا يستطيع أن يحسن عمله . أما المدرس البائس فخطر اجتماعي له أثره السيئ في المجتمع » .

ومن المحال الوصول إلى ما نفشده من التربية والتعليم إلا إذا أعطى المدرس حقوقه من الوجهة المادية ؛ لأن المدرس كغيره لا يمكنه القيام بما عليه من واجبات ، وبما تتطلبه الحياة من الأمور المالية إلا إذا كان لديه ما يكفي من المال لنفقة أسرته ، وتربية أبنائه وبناته .

إن المدرس يحتمل كثيرا ، ويقاسى كثيرا فى سبيل النهوض بأبناء الشعب ؛ فهو يقاتل الجهل ، ويحارب الأمية ، ويقضى حياته فى خدمة أمته ، ورفعته بلاده ، ورقى وطنه . وجدير بالأمة أن تذكره بكل فخر وإعجاب ، وتذكر ما يقوم به من عمل جليل ؛ فيه ترقى الأمم وتنتصر ، وتسمو من حضيض الجهل والوحشية إلى أوج العلم والمدنية .

قال حضرة صاحب المعالى الأستاذ الكبير أحمد نجيب الهلالي باشا وزير العلم والمعلمين ، ونصير الإصلاح والمصلحين فى حفلة التكريم التى أقامها رجال التعليم الإلزامى لمعاليه فى ١٩٤٣/٥/٧ - كلمة ثمينة نقطف منها ما يأتى :

« لقد اتصلت بيننا المودة منذ زمن طويل ، وقام عليها ألف دليل ودليل ، ولم يكن فى الإمكان شأن غير هذا الشأن . وكيف لا يستحکم الود المتين ، بين من يخدمون نشء الوطن من بنات وبنين ، وبين من هو للمعلمين خادماً أمين .
إخوانى :

ما كان لأمة ديموقراطية أن تغفل شأن التعليم الإلزامى ؛ لأن الديموقراطية هى حكم السواد الأعظم ، أى حكم الشعب ، والتعليم الإلزامى هو تعليم السواد الأعظم أى تعليم الشعب ، فالعناية بهذا التعليم ورجاله جرى مع الديموقراطية على حكمها ، ولذلك قلت لكم فى مؤتمركم فى الخامس والعشرين من شهر يوليه سنة ١٩٣٦ ما يأتى :

« ليس لكم من أعداء إلا الحكومات الأوتوقراطية . » ثم قلت لكم « إذا جاز لنا أن نلتمس العبرة من التاريخ وجدنا أن التعليم الإلزامى قد لقي فى أوروبا من الاضطهاد والأذى ألوانا مختلفة ، وهذا الحكم جار مع الأزمان فى جميع البلدان ، وقد حاربت الحكومات الأوتوقراطية هذا التعليم حربا عنيفة متصلة قوية ، خوفا

من أن تتنبه الشعوب الغافلة فتطالب بحققها في النور والثروة والحكم . كان الزعم السائد أن جمهور الشعب إنما خلق ليعمل لالعلم ولا ليفكر؛ فلاصلته بشئون الحكم والسلطان ، كما أنه لا شأن له بالعلم والعرفان ، ولكن الله أبى إلا أن يتم نوره . فلما تجلى نور الديموقراطية كتب الله لهذا التعليم نصرا مبينا ثابتا ؛ لأن التعليم الإلزامى هو سناد الديموقراطية ، وسر نجاحها ، به قوامها وبه تمامها ؛ وذلك لأنه المرحلة الأولى والأخيرة لتعليم الحاكم الحقيقي وهو الشعب . وكلما هبط مستوى هذا التعليم سقط مستوى الأمة العقلى ، وازدادت الهوة بين طبقة الخاصة وطبقة العامة ، فاختلفت الأخلاق ، وتباينت العقول ، وضاق أفراد الأمة الواحدة عن أن يفهم بعضهم بعضا . ولهذا قالوا إن الأمم الديموقراطية ينبغي لها أن تعنى بهذا التعليم عناية تامة ، وألا تبخل عليه بجهد أو مال . « هذه لغة الديموقراطية ، ولغة علماء الاجتماع الواقفين على أسرار تقدم الأمم ، أما علماء التربية فقد قالوا إن التعليم الإلزامى هو الأول وهو المدخل ، ولا يمكن أن يطلب الآخر قبل الأول ، ولا الغاية قبل المدخل . وإذا صح قيام الأول بنفسه فالآخر لا يمكن أن يقوم إلا بالأول . ولذلك ينبغي للأمم أن تعنى بالصغار المبتدئين قبل عنايتها بالكبار المراهقين .

ومما لا شبهة فيه أن المعلمين هم ركن هذا التعليم وسناده؛ لأنهم هم الذين يعلمون السواد الأعظم أدب الدنيا وأدب الدين ، وينقلون إلى الأبناء تراث الآباء ، ويؤدون عن الجيل الحاضر إلى الجيل القادم وديعة اللغة والأخلاق والوطنية والدين .

ولقد كان يحز في نفسى أن أرى المعلم ضائع الحقوق ، فإذا اعتزل واجه الفقر المرير ، وسوء المصير . وإذا مات لم يترك إلا الصبية الصغار ، والدموع الغزار . وكنت أقول فى نفسى كما يقول علماء التربية والاجتماع : إن الأمة لا يجوز أن تتخذ من عقول المعلمين

وجهودهم متجرا تربح فيه ليكونوا من الخاسرين . ولا ينبغي لها أن تجرى الأرزاق على غيرهم وبيقواهم في الوحل والطين .

على أن علماء التربية لم يأتوا في ذلك بجديد ، ومن قبلهم قال الشاعر الحكيم :
إن المعلم والطبيب كلاهما لا ينصحان إذا هما لم يكرما

.....

وإنني أتلو عليكم بمزيد الغبطة نص تقرير اللجنة المالية بمجلس النواب عن شؤون المعلمين عامة والإلزاميين خاصة . قالت اللجنة :

«وليس من شك في أن الأعباء الملقة على عاتق المعلمين والتبعة التي يضطلعون بها تستوجب العمل على إنصافهم ، فهذه الهيئة هي التي تقوم بصبر وقوة احتمال بأخطار الواجبات المدنية وأدقها . والتعليم لا يصلح ولا تستقيم أموره بإنشاء المدارس وضبط البرامج وتوزيع الكتب إذا لم يقترن هذا كله بتزويد المعلم بالكفاية المادية بقدر تزويده بالكفاية العلمية . وبغير ذلك لا تطيب نفسه ، ولا يحسن إنتاجه ، ولا يستطيع أن ييث في النشء حب العلم ، أما رجال التعليم الأولى فهم أشد من غيرهم حاجة؛ لضآلة مرتباتهم ، وعدم تقرير معاش لهم .

والواقع أن تناول التعليم الإلزامي بالإصلاح مع إشباع جو التعليم بروح الشعور بالقومية ، ومع الاتجاه كذلك إلى إقرار اليوم الكامل ، ومع إراحة القائمين بهذا التعليم من متاعب العيش بزيادة مرتباتهم ، وإدخال نظام تغذية الأطفال ، يبشر بأننا سائرون فعلا في سبيل الخير » .

إخواني :

لقد وثقت بحكومة الشعب في إنصافكم ، وما كان لنا أن نكذب ثقتكم ،
والأ نرد إليكم حقكم ، وأنتم الذين تملأون الأرض علما ونورا ، فلا يجوز أن

تغبنوا، وأن تكونوا كالسراج يضيء البيت ويحترق . وستذالون إن شاء الله سائر حقوقكم بعد أن أيدها البرلمان ؛ لأن إشارة البرلمان فرض يجب أن يؤدي، وحكمه نافذ لا يترك سدى .

وبعد فهل هناك اعتراف كهذا الاعتراف ؛ لإنصاف طائفة تستحق الإنصاف ، هي طائفة المعلمين الإلزاميين ؛ ليقوموا بواجبهم على الوجه الأكمل ، وليؤدوا الأمانة التي في عنقهم نحو أبناء وطنهم؟

المدرس وأثره في الإصلاح

يقوم المدرس بعمل جليل هو خدمة العلم والمجتمع ، فيجب أن نضعه موضعه ، ونقدره حق قدره . ولا ينكر أحد أن المدرسة نواة لكل إصلاح ، وأن المدرس المخلص يستطيع أن يسمو بأمرته ويضعها في صف الأمم المتحضرة ؛ ببث أحسن العادات والمبادئ الخلقية والدينية والاجتماعية والوطنية والصحية في نفوس تلاميذه . ولدى المدرس المخلص فرص كثيرة للإصلاح إن كان يفكر في إصلاح العيوب المنتشرة في المجتمع .

إننا لا ننتظر من المدرس أن يكون مدرسا فحسب^(١) ؛ بل ننتظر منه أن يكون مصلحا بالقدوة الحسنة ، والعظة حيث تنفع العظة . ننتظر منه أن يهب كثيرا من وقته وجهوداته وأعماله لنفع المجتمع والنهوض به ، والسير به في طريق المثل الأعلى.

(١) ارجع إلى كتاب «روح التربية والتعليم» للمؤلف بمكتبة عيسى البابي الحلبي بمصر

ننتظر منه أن يفكر في مصلحة الطفل ، ويعمل كل وسيلة ممكنة لاستخدام مواهبه ،
والسير به في سبيل النجاح في الحياة .

إن أثر المدرس يظهر في تلاميذه كما يظهر أثر الآباء في الأبناء ، وإن وجود
مدرس مخلص في المدرسة كثيرا ما يغير بيئتها ، وينهض بها ؛ فهو مثل عال يقتدى
به غيره من الزملاء . المدرس رسول العلم والأخلاق ، ولديه أكبر فرصة للإصلاح ؛
فيجب أن لا يألو جهدا في السير بالأطفال إلى الطريق المستقيم ، إلى الأمام ، إلى
العلا والكمال ، أو ما يقرب من الكمال .

فالمدرس يجب أن يكون المثل الأعلى للتلميذ يحذو حذوه ، ويقفو أثره ، ويسير
على طريقته . المدرس روح التربية ، وهو القائد والمرشد والمعلم لا بالاسم فحسب ؛
بل بالحقيقة والروح . ولا يستحق ذلك اللقب العظيم ، لقب معلم إلا الرجل الكامل
الذي يترفع عن الدنيا ، ويربأ بنفسه عن فعل القبيح .

ليست المناهج والقوانين المدرسية ، والأبنية الفخمة ، والأجهزة العظيمة بأكثر
أهمية في التربية والتعليم من المدرس ؛ فإن له أثرا كبيرا في التلميذ : في علمه وأدبه ،
وفي عمله ومهارته . حسن جدا أن تُبنى المدارس ، وتَمَلأ بالتلاميذ ، وترسم لها الخطط
لإصلاحها . وأحسن من هذا أن يُعد لها المدرسون الأكفاء ؛ لينهضوا بها والتعليم .
فن المحال أن يرتقى مستوى التعليم إلا إذا أوجد له مدرسون قديرون ، مخلصون في
عملهم ، خيرون بمهنتهم ، واستفادوا من تجاربهم وإرشادات غيرهم .

فإذا أردنا إصلاح التعليم في مصر فلا سبيل لذلك إلا إصلاح المدرس . ولا وسيلة
لإصلاح المدرس إلا العناية بإعداده في معاهد المعلمين والمعلمات .

وقد شكأ أحد المدرسين مرة عدم النجاح في مهنة التدريس ، فسئل : ماذا قرأت في
التربية ؟ فأجاب : قرأت قليلا في مدرسة المعلمين . فقيل له : « لا عجب إذا ضللت

الطريق ، وأخفقت في عملي . « فداوم على قراءة ما وجدته من كتب التربية وعلم النفس حتى نجح في مهنة التدريس ، وأحبها حباً جماً .

ويعد (أفلاطون وأرسطو) التربية والتعليم من أهم الأمور ، وأصعب المهن التي تحتاج إلى مقدرة ودراسة للتربية والطفولة . ولقد قال (شيشرون) المربي الروماني العظيم : « مما يخالف العقل أن يقوم بتعليم الأطفال قوم لا يعرفون شيئاً عن قواعد التربية ومسائيلها » . وصرح (ريشارد مالدكستر) المربي الإنكليزي بأن الوسيلة الوحيدة لإصلاح المدارس هي إعداد المدرسين لمهنتهم » . وقال (جوزيف بين) المربي الأمريكي : « إننا لا نتردد في أن نقول إنك لا يمكنك أن تعلم إلا إذا عرفت الغرض من التربية ، وتمكنت من معرفة وسائلها وطرائقها ، وفهمت قواعدها ، ودرست ما قاله وما جربه علماء التربية وفلاسفتها . »

وإن الجهل بالتربية وقواعدها وطرق التدريس وبعلم النفس وأصوله يمكن تداركه بالتعلم والقراءة ، والرغبة في التقدم ، والمثابرة على الدراسة والاطلاع ؛ فإن الآمال والمنافسة والجد والنشاط تسهل كل صعب في سبيل من يريد النجاح في مهنة التدريس والوصول إلى المثل الأعلى . وإن الأمل في نجاح المدرس الصغير الذي يشعر بعيوبه فيجتهد في إصلاحها بالاستذكار والاسترشاد بآراء المربين والانتفاع بالتجارب - أكثر من الأمل في نجاح مدرس نال إجازة التدريس ، ثم انقطع عن الشعور بالحاجة إلى القراءة والاطلاع اتكلاً على معلوماته السابقة .

ولما كانت وظيفة المدرسة الآن كبيرة ، ومسئوليتها عظيمة في تربية الجسم والعقل والخلق والقلب واليد والعين واللسان ، وجب العمل لإعداد مدرسين قادرين يستطيعون القيام بهذه التبعة الكبيرة ، ويكونون معروفين بالمهارة وسداد الرأي ، ومتانة الخلق ، والكفاية العلمية .

وفضلاً عن دراسة التربية يجب أن تعطى فرص كثيرة للمدرسين في زيارة مدارس أخرى حيث يرون طرقاً مختلفة عن الطرق التي يستعملونها ، بعضها أحسن وبعضها أردأ ، وأن يحضر المدرس كل ما يمكنه من المحاضرات العامة والخاصة ؛ فإنها تساعد في أن يكون في تقدم علمي مستمر ، ويجب أن ينظر بوجهه دائماً إلى الأمام نحو الشمس المشرقة ، نحو الفائدة العلمية ؛ حتى يحسن مستواه .

وقد لحق أحد الشبان بوظيفة مدرس في إحدى المدارس الكبيرة وهو لا يعرف شيئاً عن التربية والتعليم ، ثم أخلص الإخلاص كله في عمله ، فأخذ يشتغل بجهد ، وبعد خمسة أسابيع في عمل شاق أو خمسة أسابيع كانت أشق أيام حياته وأتعسها كما يقول ، اضطر إلى الاستقالة من عمله ؛ ظناً منه أنه لا يستطيع القيام بأعباء هذه المهنة ، ثم ذهب إلى المزرعة يائساً ، وقد ملّ التعليم وسئمه ، ووجد الأبواب موصدة في وجهه ، وقد ضاعت آماله وأحلامه في أن يكون مدرساً .

وذات يوم زاره أستاذه كان من المعجبين به ، فقص عليه أمره ، وأخبره بحاله ، فأخذ أستاذه العالم بمواهبه يشجعه ، ويزيل من نفسه أثر الشعور بالخيبة والإخفاق قائلاً : « إنك لم تنجح في عملك ، ولكن هل تعجب من ذلك ؟ هل سبق لك أن عرفت شيئاً عما حاولت أن تقوم به ؟ هل قرأت كتاباً واحداً في التربية والتعليم ؟ » ثم نصح له باللاحاق بإحدى كليات المعلمين لدراسة التربية ؛ فسطر هذه النصيحة على صفحات قلبه ، وذهب إلى الكلية ، وقرأ كل ما استطاع حول التعليم . وبعد الانتهاء من الكلية اشتغل ثانية بمهنة التدريس ، فنجح نجاحاً باهراً ، وكان من المدرسين المشهورين المحبوبين لدى الرؤساء والتلاميذ . ولا ينكر أحد ما لدراسة التربية من الأثر ، وخاصة إذا صحبت بمعرفة المادة ، حتى يكون المدرس في مأمن من الزلل والخطأ .

وإن المدرس الذي لا دراية له بالتربية ولا يطلع على كل جديد فيها ، لا يجد مثلاً

حسنا يقتدى به ، ويحذو حذوه ، ويقفو أثره ، ولا يستطيع أن يصلح خطأ نفسه ؛
لأنه لا يشعر به ، وقد يستمر في ارتكاب الغلطات نفسها اليوم بعد الآخر . وليس
من الحزم أن يقدم الإنسان على عمل كبير يحتاج إلى علم وخبرة ودربة وهو لا يعرف
عنه شيئا . فالميل الفطرى للتعليم ، والعلم بالمادة لا يكفيان للنجاح في مهنة التدريس ؛
بل يجب أن يشاركهما العلم بالتربية وقواعدها وطرقها ؛ حتى يستطيع المدرس أن يشعر
بغلطاته ، ويقتدى بالمثل الأعلى من المربين . يقول (هربرت سبنسر) المربي الإنكليزي :
إنه ليس هناك مبرر عقلى لترك فن التربية بين بعض المدرسين . ويجب التسليم بأن العلم
والطرق السديدة في تربية الأطفال جسميا وعقليا وخلقيا أهم من أى شئ آخر .
فيجب على كل من يريد النجاح في مهنة التعليم أن يسترشد بنصائح المربين من المربين .
وإن تجربة المدرس وحدها لا تكفى ؛ بل يجب أن تصحب بمن يرشده إلى الطريق
القويم ؛ فإنه لو ترك نفسه ربما لا يرى غلطات نفسه . وقد يستمر كذلك حتى تصير
هذه الغلطات عادة لديه ، ومن الصعب أن يتغلب عليها ، فيملل التعليم ويبرم به ،
وتقل غيرة عليه ، ويصبح آلة تسير من غير تفكير .

المثل الأعلى للمدرس^(١)

لكي نصل إلى المثل الأعلى للمدرس يجب أن نعمل على أن تتوافر فيه الصفات الآتية :

(١) يجب أن يحب المدرس تلاميذه محبته لأبنائه :

يجب أن يحب المدرس تلاميذه محبته لأبنائه ، ويفكر فيهم كما يفكر في أولاده .
وليدكر كل مرب أنه قبل أن يفكر في أن يكون رجلاً يجب أن يكون هو رجلاً .
ولا تنتظر من أبنائك وبناتك الكمال إلا إذا كنت كاملاً . لا تنتظر منهم التحلي بالأخلاق الفاضلة إلا إذا تحللت بها . احترم أبنائك وتلاميذك يحترموك . احترم شخصية الطفل ، وأعطه قسطاً كبيراً من الحرية ؛ حتى تظهر ميوله الطبيعية ؛ فتقوى ما صالح ، وتصلح ما فسد . على هذه الروح تبني التربية الحديثة .

ومما لا ريب فيه أن الآباء والأمهات يحبون أبنائهم ، ولكن ليس من المؤكد أن المعلمين والمعلمات يحبون تلاميذهم . إن الأم التي تضع أبنائها في قلبها أم عادية جداً ، ولكن الأم التي تضع أبنائها غيرها في قلبها تعد من الأمهات الطاهرات . وبالمثل يقال في الأب ، ولكن حب النفس منتشر بين الأفراد . ومن المناظر المؤلة التي رأيته في محفل مدرستي بالجليزة : أمٌ أخرت طفلاً عن الصف الذي كان واقفاً فيه ، وقدّمت ابنها ؛ ليقف مكانه ، فيرى الألعاب ويحرم الآخر التمتع بالنظر إليها .

(١) ارجع إلى كتاب «روح التربية والتعليم» للمؤلف .

فهذه الأم لا تفكر إلا في ابنها ، ولا تشعر نحو غيره بما تشعر به نحو ابنها . وفي الحديث : « أحب لأخيك ما تحب لنفسك » . ولنا أن نقول أحب لأبناء غيرك ما تحبه لأبنائك ، وأحب تلاميذك محبتك لأبنائك ؛ كي يضعوك في قلوبهم ، وينزلوك منزلة آبائهم .

إن المدرس مهما يكن متينا في مادته ، علما بقواعد التربية - لا ينجح في مهنته إلا إذا امتلأ قلبه بحب الأطفال ومواساتهم . كثيرا ما تجد الأطفال في الابتداء يحبون معلمهم ، فإذا ما عرفوهم كرهوهم ، وأصبحوا يطالبون بعدم الذهاب إلى المدرسة ، وبإعلان الحرب عليها . فسكما أن المنزل لا يكمل إلا بحب الأبناء ، كذلك المدرسة لا تكمل إلا بحب أبنائها حباً طاهرا ، مملوءا بالإخلاص . وإن المدرسة التي

لا تعطى تلاميذها قلبها محال أن يعطيها التلاميذ قلوبهم .

وإن أولى التلاميذ بالعطف أولئك الفقراء الذين يأتون من منازل حكم عليها بالشقاء ، تربيتهم سيئة ، وملابسهم رثة ، ومحادثتهم جافة ، ومعاملتهم شاذة ، وجوهم عابسة ، وقلوبهم واجفة ، لا يحبون أحدا ؛ لأنهم لم يشعروا بحب أحد . ولا يعرفون معنى النظام ؛ لأنهم لم يروا شيئا من النظام .

وأمثال هؤلاء كثيرون . وهنا الفرصة أمام المدرس في أن يعمل - وعمله شاق - للوصول إلى قلوب هؤلاء البائسين لينقذ حياتهم ، وينجي أرواحهم من الموت والشقاء .

والوسيلة لإحيائهم هي : أن تعرف الطفل ، وحياته الماضية ، وأحواله وميوله ، وأن تجتهد في مساعدته ومشاركته في شعوره ، وتسهيل الأمور في سبيله .

ذات يوم كتب أحد المدرسين في الولايات المتحدة بأمريكا تقريرا لفاظر المدرسة عن تلميذ في السنة النهائية لقلقه من فصله ، من أجل ذنب ارتكبه . وكان ذلك

التلميذ متعباً دائماً ، معروفاً بالفظاظة والغلظة وسوء الخلق . وكان الناظر حديثاً في المدرسة ، لا يعرف شيئاً عن الحياة المنزلية لذلك التلميذ . فدعاه إلى مكتبه ، وتحدث معه عن سوء سلوكه ، فأظهر له شراسة ووقاحة . فتألم الناظر ، وفكر في جلدته بالسوط ، وكتابة تقرير عنه لأولياء الأمور ؛ كي يفصل من المدرسة . ولكنه أحس أنه ينبغي أن يستشير والديه قبل معاقبته ، فذهب إلى منزل والديه ، وكان المنزل صغيراً تخيم عليه السكّابة ، وليس به أكثر من حجرتين عاريتين خاليتين من النظام ، يشعر من يدخلهما بالضيق والحزن . كانت أم التلميذ بالمنزل ؛ فأخبرها بسبب مجيئه ، وسوء ما يفعله ابنها في المدرسة ، وبعزمه على جلدته وطرده ؛ فلم تسكت للأمر ، ولم تبال بما قيل . فبينما كان يريد الخروج إذ دخل رجل قصاب قميص الوجه ، بشع المنظر ، ضخّم الجسم ، وثق الناظر بأنه أبوه ، فأخبره الخبر ، فلطم ابنه على وجهه ، ثم التفت إلى الناظر ، وأخذ يسب ويلعن قائلاً « لاتعذب نفسك مرة ثانية ، واقتله إذا أردت » .

فأخذ الناظر الولد ، ورجع به إلى المدرسة وهو أسفٌ لحاله وبيئته ، وزال غيظه ، وحل محله شعور رقيق ، وعطف كبير عليه . لم يكن الناظر محتاجاً لأن يخبر التلميذ بما في نفسه ، ولكنه أحس ما يشعر به ناظره نحوه . وقبله المدرس ثانية إجابة لرغبة ناظر المدرسة . ولما أخبره بما حدث في المنزل تألم له كل الألم ، وتحسن شعوره من جهته ، وأخذ يعطف عليه . ولم يحدث من ذلك التلميذ بعد هذا إلا ما يرضى الجميع . ومن المحال أن تصلح أحداً إلا بالتفاهم والعطف والإخلاص . وفي (ستانز)

”Stanz“ قد جمع (پستالوتزی^(١)) حوله ثمانين طفلا من الجهلة المشردين من السائلين الذين لأخلاق لهم . وبعد بضعة أشهر قال (پستالوتزی) عنهم : « بين هؤلاء السائلين الطريدين سرعان ما وجدت الصداقة والسكينة ، والصلة الحسنة ، التي قلما تكون حتى بين الإخوة والأخوات . ولم ينتج عقاب الأطفال أى عناد ؛ لأنى كنت بمعاملتى أبرهن للأطفال دائما على حبي وإخلاصى لهم . » ولا عجب إذا قال بعض المربين عن مدرسة (پستالوتزی) : « لو كانت هناك معجزة فإن (پستالوتزی) قد قام بها فى (ستانز) . » تلك المعجزة هى نتيجة حبه للأطفال وإخلاصه لهم . ولن يرتفع مستوى التعليم ولن يرقى إلا بالحب الطاهر والإخلاص . كثيرا ما يصدر من الطفل - عفوا وعن غير قصد - أمور تجعل والديه فى مركز حرج ؛ كأن يقول مثلا لضيف سودانى : « الرجل الأسود ، الرجل الأسود » ، أو كأن يقول لوالدته عند تناول الشاى مع بعض الضيوف : « إنى لن أتناول الشاى إلا إذا قامت هذه السيدة ، أو قام هذا الرجل من هنا » . وكان كلاهما ضيفا . هذه الكلمات تخجل الآباء ، وتوقعهم فى حيرة وارتباك ؛ لأنها تمس شعور الزائر الغريب . ولكن إذا حللنا نفسية الطفل وجدنا نفسيته طاهرة ، لم يفكر فى أن يؤلم أحدا ، ولم يشعر بأن فى هذا الكلام إيلا ما لأحد . فسبق الإصرار على الجريمة - فى نظرنا - غير موجود ، وحسن النية موثوق به . لذلك أبرئ هذا المتهم الصغير . ويشاركنى

(١) هو (يُوحَنَّا هِنْرِى پستالوتزى) أحد زعماء التربية . ولد بزوريخ بسويسرة فى ١٢ من يناير سنة ١٧٤٥ ، وتوفى فى ١٧ من فبراير سنة ١٨٢٧ . و (ستانز) قرية على بحيرة (لوسرن) بسويسرة ، أسس فيها (پستالوتزى) مدرسته لتعليم اليتامى من أبناء هذه القرية بعد أن خربها الفرنسيون بعد الثورة الفرنسية ، وكان عمره إذ ذاك ٥٣ سنة .

القراء في هذا الحكم ، وهذا الشعور . غير أن البراءة يجب أن تصحب بكلمة إرشاد على انفراد مع ذلك المتهم الصغير ، بحيث تجعله يشعر بخطئه ؛ كي لا يعود إليه مرة أخرى .

فعلى المربين أن يذكروا دائماً أن الطفل حسن النية ، يرتكب ما يرتكبه وهو لا يعتقد أنه مخطئ في قوله أو فعله . فكثيراً ما يأتي في طفولته أموراً منتقدة في نظرنا يستعجبها العرف ، ولا يستحسنها المجتمع الذي يعيش فيه . ولكنه في عالم غير عالمنا نحن . فيجب أن نلتمس له العذر ، ونعمل كل وسيلة لتهدئته ، ونقنعه بالصواب .

(٢) يجب أن تكون الصلة حسنة بين المدرس والتلميذ :

يجب أن تكون هناك صلة روحية حسنة بين المدرس وتلميذه ؛ هي صلة الآباء بالأبناء ، بحيث يعد التلميذ ابناً يضحى في سبيله بكل غال وثمين . ولا نخطئ إذا قلنا إن الصلة بين المدرس والتلميذ لدينا هي الضرب والعقاب ، والقسوة والفظاظة والغلاظة ؛ فالمدرس ينظر إلى تلاميذه نظرة احتقار ، ويتنحى عنهم ويعتزلهم ؛ ظناً منه أنه بمخالطتهم تضعيع كرامته ، وتقل سلطته ، ويذهب احترامه . وهو مخطئ في هذا الظن ، وفي تلك المعاملة . وإذا أراد المدرس أن ينوب عن الأب في التربية والتعليم وجب عليه أن يمثل الأب الكامل في عدله وصبره ، وحلمه وحبه للجميع ، وأن يكون شقيقاً في عقابه ، يعطف على الغبي والشرير من التلاميذ حتى يقوم بإصلاحهما .

(٣) يجب أن يعنى المدرس بالأطفال ودراسة الطفولة :

إن من أعظم جرائم المجتمع إهمال الصغار من الأطفال ، والإساءة في معاملتهم ، والظن بأن الطفل يولد شريراً ، فيجب أن تقتل إرادته بالسوط ، وتعارض ميوله

الفطرية ، وتقمع لذاته الطفلية بالشدة والقسوة . ففي سبيل الجهل يضحي الآباء بالطفل ، ويسيتون إليه ، ويطالبونه بالمال ، ويكلفونه كسب عيشه وهو طفل ، من جمع بقايا اللفائف ، والخدمة من الطفولة في المنازل . وهل تنتظر الأمة أن تبجى وردا إذا زرعت شوكا ؟ كلا ، إنها ستحصد ما زرعت ؛ ستحصد شوكا لا وردا . قال أحد القضاة في (شيكاغو) بالولايات المتحدة بأمريكا ، وهو يتولى البحث عن حاجة أبناء السبيل إلى العناية والرعاية : « في كل السنوات التي قضيتها بالاستتغال في محكمة الجنائيات لم تبرح هذه الفكرة ذهني لحظة واحدة ، وهى أنني شعرت كأني جبار ، وضعته السلطة الحاكمة في المحكمة ؛ ليحكم لها بالسجن والإعدام ، وينتقم لها مما اقترفته يدها من إهمال الأطفال ، وتركهم في الطرق . ولو سئلت عن أسباب الجرائم لقلت : « عدم العناية بالأطفال » . فالطفل المهمل تدور حوله قضايا التشرد والبطالة ، وقد يكون بفطرته أطهر الناس قلبا .

فلو وجد الطفل العناية والتربية ، والبيئة الحسنة ، والحكمة في المعاملة ، وكانت هناك صلة حسنة بين المدرس وتلميذه ، والأب وابنه ، لتحول الطفل من شيطان رجيم - كما يظنون - إلى ملك كريم .

إن الأطفال من لحم ودم يحسون ويشعرون ، لهم أجسام تحب العناية بها ، وعقول يفهمون بها وتحب تربيتها ، وقلوب يحبون أو يكرهون بها ، يحبون من أحبهم ، ويكرهون من يكرههم ، يشقون بمن يشق بهم ، ويرتابون فيمن يرتاب فيهم . وإن دراسة الأطفال أكبر وسيلة لتجنب الهفوات معهم . وقد ذكر أحد المربين أن مدرسا ضرب تلميذا لأنه ظن أن التلميذ عبس في وجهه حينما وبخه . وقد عرف بقية الفصل أن هذه عادة لهذا التلميذ تظهر على وجهه حينما يضطرب عقله . ولو عرف المدرس ذلك ما عاقبه بالضرب من غير مبرر . فكثيرا ما يقوم الأطفال بأمور

لا يقصدونها ولا يشعرون بنقصها . وإذا لم ندرس الطفل وطبائعه فلنشق بأننا سائرون في الظلام ، وقد نضر الطفل من حيث لا نشعر . وإن التربية الحديثة تضع الطفل في المكان الأول من الأهمية في التربية ، وهي مؤسسة على العلم بالطفل والطفولة . ومن الحقائق الثابتة أنه كما يكون الطفل يكون الرجل ، فإذا عطينا بتربية أطفال اليوم تربية حقة ضمينًا في الغد رجالًا يمثلون المثل الأعلى للرجولة .

ولم تكن التربية القديمة بدراسة الطفل والطفولة ، وقد وصف (فنلون) الأديب الفرنسي في القرن الثامن عشر المدارس في عصره فقال : « ليس فيها حرية ولا سرور ؛ بل دروس مستمرة ، وصمت طويل ، وجلس متعب ، ثم تهديد ووعيد » . وقال (مونتين) الكاتب الفرنسي في القرن السادس عشر عن مدرسة للبنين : « هي سجن من السجن . أقبلوا وادخلوا حينما يكون التلاميذ في دروسهم ، ولن تسمعوا إلا صياح أولاد يجلدون ، وضوضاء معلمين يرتعدون وهم سكارى من الغيظ . وطريقتهم في تشويق تلك الأرواح الصغيرة الخائفة المسكينة إلى كتبهم هي الوجه العابس والعصا » .

ونرجو أن يأتي اليوم الذي يكون فيه المدرس أخًا أكبر للتلميذ ، لاشبهًا خفيًا مفزعًا في نظره ، وأن يحاول أن يكون صديقًا وأبًا ومرشدًا للتلميذ ؛ حتى تصبح روح العلاقة بين المعلم والمتعلم روح وفاء وإجلال وتقدير .

(٤) يجب أن يشعر المدرس بالواجب نحو المجتمع :

يجب أن يشعر المدرس بما يجب عليه نحو المجتمع ، ويعلم أن كل فرع من فروع التعليم يعمل لخدمة المجتمع ؛ تلك الخدمة التي تعد أمرًا حيويًا في نظر كل فرد ، كما يجب أن يعمل لبث الروح الوطني ، والأخلاق السريعة في نفوس التلاميذ . فعلى أساس التربية الوطنية ، والديانة العملية ، والقُدوة الصالحة ، يستطيع المدرس أن

يكون نشأً جديداً ، وشعباً كاملاً في كل ناحية من النواحي . فعلى أيدي طائفة التعليم يُربّي كل الأفراد في الأمة ، ثم يخرجون إلى الحياة العملية . فعلى المدرس أن يشعر بمركزه ، وبالأمانة التي تركت في يديه ، ويعمل للوصول إلى الغرض الذي ينتظر منه ؛ بحيث تصير المدرسة المصرية عملية ، لها قوة كبيرة ، وتأثير عظيم في تهذيب الأخلاق وتقويتها ، وإعداد رجال وطنيين ، مخلصين ، عماليين ، يثقون بأنفسهم ، ويشعرون بما يجب عليهم لغيرهم ، ولا يفرّون من تحمل تبعه أي عمل يؤمرون بالقيام به .

(٥) يجب أن يكون المدرس مثلاً للعدالة والنزاهة والكمال :

إن الطفل أعدل حكم على حركات غيره وأفعاله ؛ فيجب ألا يقف المربي موقفاً يرى منه الأطفال الميل إلى أحدهم دون الآخر ، لغرض شخصي أو نفسي ؛ حتى يملكهم جميعاً ، وألا يضع نفسه موضع نقد ؛ فالطفل خير ناقد ، ينظر بعين الطبيعة والنزاهة والعدالة ؛ نظرة لم تلوثها الأغراض ، يقول ما يعتقد ، ولا مرشد له إلا شعوره وعقله . إنه يحبك ويطيعك إذا وجد أنك تستحق حبه الطاهر ، وطاعته المعقولة . إنه يطيعك في كل أوامرك إذا كانت مقبولة مقرونة بتفهمه الأسباب . إنه لا يكفي أن تأمر ؛ بل يجب أن يصحب الأمر بذكر السبب .

ربما لا يستطيع الطفل أن يحكم في السنوات المدرسية الأولى على معلمه ومعلمته من جهة متانة المادة ، ولكن في استطاعته أن يحكم على روح كل منهما ، ومقدار حبهما له ، فيقول : « إن فلانا يحبني ، وفلاناً يكرهني . وفهمت كذا من (أحمد أفندي) ، أما (حسن أفندي) فلم نفهم منه شيئاً ؛ لأنه دائماً يتكلم ، ولا نعرف ماذا يقول . وأما (عمر أفندي) فكسلان لم يعطنا شيئاً » . وهذا أحسن نقد علمي في التربية والتعليم ،

وهو يريد أن يقول : إن الأول يسير على مستوانا ، ومادته شائعة ، ومناسبة لنا .
يعرف ما نحتاج إليه ، ويأتينا بمسألة ، وما نستطيع هضمه من الطعام . أما الثاني
فيظن أننا رجال ولسنا في عالم الطفولة ، فيختار لنا أشياء لا نستطيع أن ندركها ،
ولا يحاول تفهيمنا إياها بطرق سهلة تستميلنا ؛ فهو يتكلم ولا يفهم أحد منا ما يريد
أن يقوله ؛ لأن كلامه خفي علينا ، وفوق مداركنا ، ولا يناسب سننا أو عالمنا .
وفي الامتحان يأتي بأسئلة صعبة علينا ؛ لأن بينه وبين الأستاذ فلان عداً .

هذا قليل من كثير مما يُسمع كل يوم من التلاميذ . وأرجو أن يأتي اليوم الذي يكون
فيه الربى مثلاً للكمال والعدالة ، ينظر فيه المعلمون والمعلمات إلى تلاميذهم وتلميذاتهم
بنظرة واحدة .

يقول (فروبل ^(١)) : « بين المعلم والتلميذ ، وبين الأمر والطاعة يجب أن يكون
هناك حكم ثالث يخضع له كل من المعلم والمتعلم على السواء . هذا الحكم الثالث هو
الحق ، هو العدالة التي نطالب بها في كل حال من الأحوال . »

(٦) يجب أن يكون المدرس مخلصاً :

إن إخلاص المدرس في عمله أكبر وسيلة لنجاحه في مهنته ونجاح تلاميذه .
وليس من الإخلاص أن تدخل حجرة الدراسة قبل أن تعد دروسك ، أو تضع
أوقات تلاميذك بالتأخر عن الميعاد . ولو شعر المدرس أو المحاضر بما يشعر به التلاميذ
في الفصل ، والمنتظرون في قاعة المحاضرات ، عند ما يتأخر في الحضور في الموعد
المعين - ما تأخر لحظة واحدة . انظر إليهم تجدهم في قلق ، يلتفتون إلى كل آت ؛

(١) هو « فريدريك ويلهلم فروبل » ، الربى الألماني الكبير ، وصاحب الفضل
الأكبر في إنشاء رياض الأطفال ، ولد سنة ١٧٨٢ وتوفي سنة ١٨٥٢ م .

متألمين لمرارة الانتظار ، ينظرون إلى الباب نظرة الألم ، ولسان حالهم يقول : كان الأجدر بالمدرس أن يكون خير قدوة ، وأحسن مثل في المحافظة على أوقات طلبته ، وعلى المواعيد ، وأن يشعر بأن تأخره خمس دقائق في أول الحصة يؤدي إلى ضياع خمس دقائق من كل تلميذ . فإذا كان في الفصل أربعون تلميذاً كان مقدار التأخر الذي حدث للجميع مائتي دقيقة . ولا أدري كيف يكون شعور الطالب إذا أضاع المدرس خمس دقائق من كل حصة بالتأخر في مجيئه ! ولا أدري لماذا يعاقب التلميذ إذا تأخر بضع دقائق عن المجيء إلى المدرسة بالحرمان طول اليوم ، ولا يلام المدرس على تأخره مع أن تأخر التلميذ يعود عليه وحده ، أما تأخر المدرس فيعود على عشرات من تلاميذه ؟ ولم لا يكون الإنسان منا حريصاً على وقت الطلبة فلا يضيع منه شيئاً ؟ ليس من الإخلاص أن تهمل عملك ، وتنسى واجبك ، فيختل النظام في فصلك ، وتسمع الضوضاء على بعد ، ويصبح الفصل كأنه ملعب من الملاعب أو ملهى من الملاهي ، يغنى فيه من يغنى ، ويلعب من يلعب . الكتب ملقاة هنا وهناك ، على اليمن وعلى الشمال ، والتلاميذ يتبادلون كلمات اللعن ، فيبتدئ الدرس وينتهي كأنه رواية هزلية .

(٧) يجب أن يتصل المدرس بالحياة :

يجب أن يكون المدرس متصلاً بالحياة الخارجية ؛ السياسية ، والاجتماعية ، والأدبية ، والعلمية ، والفنية ؛ حتى يستطيع أن يعد التلاميذ لتلك الحياة ؛ فإن فانق الشيء لا يعطيه .

فإذا أراد المدرس أن تكون له منزلة كبيرة في نفوس تلاميذه فعليه أن يلم

بشئون الحياة ؛ فيعرف الكثير عن علمائها وأبطالها ، ومخترعيها ، وساستها ، وبعض كتابها وشعرائها ، ومصوريها وقادتها .

وإذا قلنا إن المدرس يجب أن يتصل بالحياة الخارجية فخير به أن يتصل بالحياة الداخلية ؛ فيعرف شئون بلاده ، وتاريخها قديما وحديثا ، وزراعتها وصناعاتها ، وتجارتها ، وساستها ، وأبطالها ، وعلماءها ، وأدباءها ، وشعراءها ، وقادتها في الفكر أو العمل ؛ حتى يتمكن من تزويد تلاميذه بالآراء والأفكار متى سنحت الفرصة .

ولكى لا يصعب عليه أن يحجب عن بعض أسئلة التلاميذ التي تتطلب تفكيراً عميقاً يجب أن يكون على صلة دائمة بالحياة العلمية ؛ فيعرف شيئاً عن الإذاعة والمذياع ، والطيران ، والغواصات ، والطائرات بأنواعها ، وقاذفات القنابل ، وقوة الكهرباء والبخار ، والعلم والاختراع ؛ حتى لا يقف مكتوف اليد عاجزاً عن الإجابة إذا سألته التلميذ .

فالمدرس الكفء القدير يجب أن يتصل بالحياة ونواحيها ، من علم واختراع ، وثقافة وأدب ، وشئون اقتصادية ، وسياسية ووطنية في العالم أجمع ؛ كي يكون قريباً من الحياة كل القرب ، متصلاً بالعالم كل الاتصال .

(٨) يجب أن يستمر المدرس في البحث والاطلاع :

يظن المدرس بعد التخرج في مدارس المعلمين وغيرها أن الحياة العلمية قد انتهت بعد انتهاء الحياة المدرسية . والحقيقة أنه لا نهاية للعلم ، وأن العلم يبتدئ بعد الحياة المدرسية . فالمدرسة تفتح السبل أمامك ، وعليك إتمام البقية . فيجب أن تستزيد دائماً من المعلومات ؛ كي لا تقف أفكارك عند حد ؛ فإنه ليس هناك مهنة من المهن تحتاج إلى ازدياد دائم في العلم والاطلاع ، والبحث والتجربة ، والخبرة والنشاط ،

كمهنة التدريس . لذلك تجد المدرسين في إنجلترا مثلاً لا يتكلمون على تجاربهم المدرسية ، ولا يكتفون بما حصلوا عليه في الكلية ؛ بل يلحقون بمدارس صيفية في أثناء العطلة أسبوعين أو شهراً من كل سنة ؛ لأخذ محاضرات في التربية أو علم النفس أو اللغات الأجنبية ، أو للتمرن على كثير من الأعمال اليدوية ويدفعون أجوراً خاصة للمدارس التي يذهبون إليها صيفاً . ويتضاعف عدد هذه المدارس كل سنة ؛ فتجد بكل مدينة كبيرة مدرسة أو مدارس يتصل بها من يريد من المدرسين أو المدرسات ، والطلبة والطالبات ؛ لتحسين مستواهم العلمى والعملى ؛ تراهم يقضون الصباح في استماع المحاضرات ، وبعد الظهر في اللعب والرياضة البدنية ، أو في زيارة بعض الأماكن الأثرية ، أو القيام برحلات بحرية . وفي المساء يشتركون في الذهاب إلى رواية تمثيلية ، أو محفل اجتماعى . فتراهم يُعدون كل وسيلة للتعليم وترويح النفس ، والاستفادة علمياً وعملياً ، وصحياً واجتماعياً ، وخلقياً وعقلياً .

وفي استطاعة المعلم الاستزادة من المعلومات بقراءة الكتب الحديثة ، وحضور المحاضرات المختلفة ، والاطلاع في أثناء السنة . وعندى لا يحسب المدرس ناجحاً في مهنته إلا إذا عوّد تلاميذه الاعتماد على النفس ، وحب العلم والعمل ، ومعرفة قيمة الوقت ، والعمل لتجديد معلوماتهم بالقراءة والاطلاع .

(٩) يجب أن يكون المدرس قادراً على التعليم ، حسنًا في إدارته ، حكيمًا في عمله :

ليس المدرس بمدرس فحسب ، ولكنه منظم ومهذب ، ومرتب وحاكم . وتحتاج هذه الأشياء إلى قدرة على التعليم ، وحسن إدارة ، وقوة في التنفيذ ، وحكمة في التصرف ، وحضور بديهة . فلنكى يستطيع المدرس أن يقود التلاميذ في العمل الذى يرسمه لهم ويضعه بكل حكمة يحتاج إلى حسن تصرف وإدارة ؛ فيقول الكلمة

الصائبة في اللحظة المناسبة ، ويقوم بالواجب في الوقت الملائم ، وبالطريقة الملائمة . وقد يكون الرجل عالماً ولكنه سيء الإدارة ، لا يستطيع أن ينفذ مشروعا من المشروعات ، أو عملاً من الأعمال ؛ لضعف إرادته ، وسوء تصرفه ، وعدم اتصاله بالحياة ، وضعف إدراكه ، وفساد رأيه ؛ فهو لا يستطيع أن ينجح في الحياة العملية ، ولا يمكنه أن ينفذ ما يعهد إليه من الأمور .

وقد يدعى المدرس كثيراً من الادعاءات إذا أخفق في مهنته ، أو لم ينجح في النهوض بتلاميذه ؛ فيدعى أن المناهج صعبة ، أو أن التلاميذ كسالى ، أو أن المعلم السابق كان مهملاً . والحقيقة أن السبب في خيبته عجزه عن التعليم ، وسوء تصرفه ، وقلة فراسته ، ورداءة طريقته ، ولو كان لديه شيء من الحكمة لسيطر على مادته ، وأصلح طريقته ، وملأ قلوب تلاميذه ، بعلمه ومهارته ، وصبره ، وحسن خلقه ، ودقته ، ومثابرته واجتهاده في السير إلى الأمام ، واتصاله الدائم بعالم التربية والتعليم .

(١٠) يجب أن يتشبع المدرس بروح المدرسة الحديثة :

على المدرس أن يتشبع بروح المدرسة الحديثة ، ويعمل لتنفيذ كل ما يمكن من المبادئ الصالحة في التربية والتعليم مثل :

(أ) إيجاد روح التعاون في المدرسة ؛ بأن يتعاون التلميذ مع زملائه ومع مدرسيه .

(ب) العمل بقاعدة الحرية المعقولة في التعليم .

(ج) عدم إرهاق الطفل بأوامر ونواه لا حاجة إليها .

(د) تمويد الطفل الاعتماد على نفسه في التعليم والبحث .

(هـ) تشويقه إلى العمل وترغيبه فيه .

(و) مراعاة عالم الطفل وطبائعه وغرائزه دائماً .

(ز) التفكير في الطفل قبل أى شىء آخر ، والعمل لإعداده للحياة العملية ؛

بالجمع بين التعليم النظرى والعملى .

(١١) يجب أن يكون المدرس ذا عزيمة ثابتة :

يجب أن يكون المدرس قوى العزيمة ، محافظاً على مبدئه ، لا يأمر اليوم بشىء وينهى عنه غداً ، ولا يطالب التلاميذ بالكمال ، ولا يتهاون فى تنفيذ ما يأمرهم به .

(١٢) يجب أن يكون المدرس سليم الجسم :

يجب أن يكون المدرس سليم السمع ، قوى البصر ، معتدل الصوت ، خالياً من الأمراض والعاهات الجسمية ؛ كي يستطيع أن يؤدى رسالته العلمية خير أداء ؛ فإن المدرس الضعيف الجسم يكون عادة خائر القوة ، ضعيف الأعصاب ، سريع التأثير ، معرضاً لكثير من الأمراض .

فإذا توافرت هذه الصفات الخلقية والعقلية والجسمية فى المدرس ، وراقب الله وضميره فى عمله ، وفكر فى الودائع الثمينة التى أوتمن عليها ، كان موضع احترام وتبجيل ، واستطاع أن يقوم بعمله خير قيام ، ويصل إلى الغرض الأسمى الذى نرى إليه ، ونشده من التربية والتعليم .

(١٣) يجب أن يعود المدرس التلاميذ الاعتماد على النفس :

يجب أن يفكر المدرس فى تعويد التلاميذ الاعتماد على النفس ، والاستقلال فى التفكير ؛ حتى يقضى على التربية الاتكالية التى أدت إلى إخفاق كثيرين فى الحياة .

فالأطفال في الرياض تقدم لهم الأدوات والأجهزة ، ولا يعودون البحث عنها والعمل بأنفسهم . والتلاميذ في المدارس الابتدائية والثانوية يدونون ما عليه عليهم المدرس من مذكرات ، وينقلون ما يحل من تمرينات ، ولا تتاح لهم الفرصة في أن يعملوا مستقلين ، ويبحثوا معتمدين على أنفسهم . ولكي نبث فيهم روح الثقة بالنفس ، والشعور بالواجب يجب أن نعوّدهم من الصغر تحمل التبعة ، والاستقلال في العمل ، ونعتمد عليهم في كل عمل يكون في مقدورهم . ولا نبالغ إذا قلنا إن المدرس يعتمد على نفسه أكثر من اعتماده على تلاميذه ؛ فهو يتكلم كثيرا ، ويقول كثيرا ، ولا يفهم التلاميذ كل مايقول .

(١٤) يجب أن يعنى المدرس بالحقائق أكثر من عنايته بالمظاهر .

لا عجب إذا قلنا إن العناية لدينا بالمظاهر أكثر من العناية بالحقائق في أساليب التدريس ؛ فالمدرس لا يفكر إلا في الأمور الشكلية ، ولا يعنى إلا بعدد الموضوعات ؛ لأن هناك من يهتمون كثيرا بهذا العدد ، ويغفلون حسن اختيار الموضوعات ، وملاءمتها للتلاميذ ، واستفادتهم من الإصلاح . فالمدرس يأخذ الكراسات ويصلحها في الخارج ، ثم يوزعها على التلاميذ ، ويكلفهم كتابة صواب الخطأ الإملائي أو النحوى أو اللغوى أو الحسابى أو الهندسى . كل هذا والتلميذ لا يعرف صواب الخطأ . ولا غرابة إذا تكرر الخطأ مرة أخرى أو مرارا ، وهذا يدل على أن التلميذ لم يستفد من إصلاح الخطأ . ولو قام التلميذ بإصلاحه بنفسه ، وعرف السبب ، وأدرك الصواب ، وكرره عدة مرات ما وقع في الخطأ مرة أخرى . وفي استطاعة بعض المدرسين القيام بتدريس درس جيد أمام ناظر المدرسة أو المفتش فيملك هذا وذاك بجودة أسئلته ، ومناقشته ، وحسن طريقته ، وتنظيم كتابته على السبورة ، وإعداد درسه ، ولكن إذا أخذت

تسأل تلاميذه فيما درسه من بدء السنة إلى يوم التفتيش وجدتهم أحيانا لا يعرفون شيئا مما أخذوه في كراساتهم ، ودونوه بأيديهم من المسائل والتمرينات والتطبيقات . وقد تجد من هذه التمرينات أكثر من كراسة ، فالكراسات منظمة نظيفة ، والتمرينات كثيرة ، ولكن ما الفائدة منها إذا كان التلاميذ لا يفهمونها جيدا ؟

(١٥) يجب أن يفكر المدرس فيما بين التلاميذ من فروق :

يجب ألا نعامل التلاميذ معاملة واحدة ، وأن نفكر فيما بينهم من فروق في الميول والذكاء ، فلا نعطيهم مادة واحدة في وقت واحد من غير تفرقة بين الذكي والغبي والمتوسط . وجدير بالمدرس أن يعطى كلا منهم مايلامه ؛ كي ينتفع الذكي بذكائه ، ولا يرهق الضعيف .

(١٦) يجب أن نخاطب التلميذ بلغة يفهمها :

إننا في تدريسنا نخاطب التلميذ بلغة لا يفهمها ، كأنه رجل ، ونعطيه طعاما لا يمكنه هضمه ، ونقدم إليه مواد منفرة . ومن الواجب أن نخاطب الطفل باللغة التي يفهمها ، ونعمل لنكون منه رجلا كاملا ، وعضوا نافعا في الحياة ، يعمل برغبة ، ويشعر بالواجب ، ويتحمل التبعة ؛ ويضبط شعوره ، ويثابر حتى يصل إلى الغاية التي يرمى إليها .

(١٧) يجب أن يفكر المدرس في التربية الخلقية :

يجب أن يذكر المدرس أن الغرض الأسمى من التربية هو تربية الخلق ، وحسن السلوك ، وتهذيب الإرادة ، واختيار الفضيلة ، وتجنب الرذيلة ، وأن الغرض

من التربية الخلقية تكوين رجال كريمي الأخلاق ، أقوياء العزيمة ، مهذبين في أقوالهم وأفعالهم ، نبلاء في تصرفاتهم وخلقهم ، ديدنهم الحكمة والفضيلة ، والأدب ، والإخلاص والطهارة . فروح التربية والحياة ، وروح البيت والمدرسة ينبغي أن يكون التربية الخلقية . ولا نبالغ إذا قلنا إن التربية هي الوصول إلى المثل الأعلى من الأخلاق في العادات والأحوال والآداب في هذه الحياة . ولقد أجمع علماء التربية وفلاسفتها على أن الغرض الخلق الذي يجب أن يرمى إليه المربي هو الغرض الحقيقي من التربية التي يصح أن نطلق عليها ذلك الاسم . وليس معنى هذا أن نقلل العناية بالتربية الجسمية أو العقلية ؛ بل معناه أن نعني بالناحية الخلقية وتكوين الخلق كما نعني بالناحية الجسمية ، والناحية العقلية والعامة . فالطفل في حاجة إلى قوة في الجسم والعقل والخلق ، بحيث يعني بجسمه ، ويفكر بنفسه ، ويبحث وراء الحقيقة ، ويقدر بحق جمال العالم الذي يحيط به ، ويقول الحق ، ويدافع عن الحق ، ويخلص في عمله ، ويراقب الله وضميره ، ويضحى بمصلحته في سبيل المصلحة العامة . قال صلى الله عليه وسلم : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » . والله در المرحوم شوق بك حيث قال :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا
وقال (مارتن لوتر) المصلح الألماني في القرن السادس عشر : « إن سعادة الأمم لا تتوقف على كثرة دخلها ، ولا على قوة حصونها ، أو جمال مبانيها العامة ، ولكنها تتوقف على عدد المثقفين من أبنائها ، وعلى رجال التربية والعلم والأخلاق فيها » .
فهنا تكون سعادتها وقوتها العظيمة ، ومقدرتها الحق . فعلى المربين أن يفكروا دائماً في تربية الأطفال تربية خلقية كاملة كما سنحت الفرصة ؛ كي يكونوا المثل الأعلى للأخلاق في المستقبل ؛ فالأمم لا ترق بالمال أو الحصون ؛ ولكنها ترق بالعلم والأخلاق .

وقد اتفق كبار المربين على أن التعليم الذى لا يؤدي إلى السكال لا يستحق أن يسمى تعليماً ، وأنه ليس الغرض من التعليم حشو أذهان التلاميذ بالمعلومات ؛ بل الغرض تهذيب الأخلاق ، مع العناية بالصحة والتربية البدنية والعقلية والوجدانية والعملية ، وإعداد الطفل للحياة الاجتماعية .

ومع عناية (جون لوك) الفيلسوف الإنكليزى فى القرن السابع عشر بالتربية البدنية رتب أغراض التربية بحسب الأهمية ، فذكر الفضيلة أولاً ، والحكمة ثانياً ، والعلم أخيراً ، فوضع العلم فى آخر أغراض التربية .

وقد صرح (پستالوتزى) بأن التلميذ الذى تعلم الصلاة والتفكير والعمل هو أكثر من نصف متعلم ، وأنه لم يكن غرضه من تعليم الطفل أن يعلمه من العلم ما لم يعلم ؛ بل يعلمه الآداب والأخلاق وحسن المعاملة . ويقول (فروبل) فى كتابه « تربية الإنسان ^(١) » : « إن الغرض من التربية إيجاد حياة طاهرة مقدسة ، ملؤها الأخلاق والطهارة » . ويرى (هربرت سبنسر) : « أن الغرض الجزئى والكللى من التربية يمكن أن يلخص فى فكرة واحدة ، وكلمة واحدة هى (الفضيلة) . قال المرحوم الخالد الذكى سعد زغلول باشا زعيم الوطنية : (لسنا فى حاجة إلى كثير من العلم ؛ ولكننا فى حاجة إلى كثير من الأخلاق الفاضلة) . وإن التربية الحديثة توجب على المدرس أن يذكر دائماً أن تكوين العادات الخلقية الحسنة فى التلاميذ أكثر فائدة للطفل من حشو ذهنه بمعلومات نظرية ربما لا يحتاج إليها فى الحياة العملية . وكما أن الوقاية خير من العلاج فى عالم الطب ، فالمحافظة على الأخلاق خير من إصلاحها فى عالم الأخلاق .

والغرض من التربية الخلقية تكوين الأخلاق ، وتربية الروح . وتنادى التربية الحديثة بأن هذا الغرض يجب أن يضعه المدرس نصب عينيه دائماً ، أيّاً كانت المادة

التي يقوم بتعليمها . فكل درس يجب أن يكون درس أخلاق . وكل مدرس يجب أن يكون مدرس أخلاق . وكل ناظر يجب أن يفكر في الأخلاق قبل أى شئ آخر .

وإن المثل الأعلى في التربية الإسلامية والتربية الحديثة هو تكوين رجال مهذبين ، ذوى شخصيات كبيرة ، ونفوس أبية ، وأخلاق عالية ، يعرفون معنى الواجب ، ويقدرّون حقوق الإنسانية . ولما أراد الله أن يثني على نبيه الكريم خاطبه بقوله : « وإنك لعلّى خالق عظيم » . وفي الأثر « أدبى ربى فأحسن تأديبى ، وأمرنى بمكارم الأخلاق » . وإننا نعتقد أن أكبر أمر يجب أن نفكر فيه في الوقت الحاضر هو إيجاد رجال مهذبين فضلاء ، وأنه يجب أن تكون غاية التربية تكوين شعب مثقف مهذب كريم الأخلاق .

(١٨) يجب أن يكون المدرس ذا شخصية قوية :

كثيراً ما يتكلم المربون عن الاتجاهات والطرق الحديثة في التربية ، وبعد أن ينتهوا من دفاعهم عن آرائهم يختمون بحثهم بقولهم : « والخلاصة أن كل شئ يتوقف على شخصية المدرس » . فيجد هذا القول قبولاً حسناً ، وآذاناً مصغية ممن يسمعه .

حقاً إن لشخصية المدرس أثراً كبيراً في نجاحه في مهنته ، وتأثيره في تلاميذه . وليست الشخصية وحدها كافية لنجاحه في عمله ؛ بل يجب أن تصحب بمؤهلات علمية خاصة ، وثقافة معينة ، وإعداد مهني منظم .

وإذا قلنا إن قوة الشخصية شرط أساسى لنجاح المدرس ، فإننا لا نقول بتوضيحية شخصية التلميذ فى سبيل شخصية المدرس ؛ ولكننا نقول بالشعور بوجودها ، والعمل لتكوينها وتربيتها .

يضع المربون أهمية كبيرة على شخصية المدرس ؛ فهى ذخيرة فى حجرة دراسية مملوءة بتلاميذ وهبت الطبيعة لهم ميولاً مختلفة ، ولديهم رغبات متناقضة ، جلسوا فى تلك الحجرة ليدرسوا شيئاً واحداً ، ومادة واحدة . فإذا كانت شخصيته قوية استطاع أن يقرب بين هذه الميول وتلك الرغبات المختلفة ، ويقودها إلى الطريق المستقيم ، ويتغلب على ما يعترضه من الصعوبات بحكمة ومهارة .

ولما كانت الغاية من عمل المدرس التأثير فى التلاميذ ، وتربية ميولهم وزعائهم ، وتعويدهم صالح العادات ، وحميد الصفات ، كانت شخصيته أقوى أثراً من شخصية غيره . ولا يستطيع أن يقوم بأداء رسالته على الوجه الأكمل إلا إذا كان ذا تأثير نافذ فى نفوس تلاميذه ، يستهوى أفئدتهم ، ويستولى على قلوبهم . والمدرس الماهر هو الذى يستطيع أن ينتفع بفرصة الخضوع فى الأطفال ؛ فيؤثر فيهم التأثير الحسن ؛ إذ يأترون بأمره ، ويحاكونه فى سلوكه وعاداته ، وينصغون إلى كل ما يفوه به . وبشخصيته يمكنه أن يوجههم إلى ما فيه صلاحهم ، ويرشدهم إلى الطريق المستقيم . ولقد حدث مرة أن سئلت إحدى الطالبات بمدرسة المعلمات بعد انتهائهما من المدرسة ، وقد أريد تعيينها معلمة ؛ لشخصيتها البارزة ، وقدرتها الكبيرة على حفظ النظام ، والسيطرة على قلوب التلاميذ ، من غير احتياج إلى أى نوع من أنواع العقاب : كيف أمكنك أن تستولى على انتباه الأطفال ، وتحفظى النظام بهذه الدرجة ؟

فأجابت - وقد اعترأها بعض الخجل - : « لا أدري » .

وبهذا أشارت إلى حقيقة خفية لها درجة كبيرة من الأهمية ؛ هى أن لشخصية

المدرس أثراً كبيراً في السيطرة على قلوب التلاميذ ، ولقد وهب الله لها هذه الشخصية ، فكان التلاميذ أطوع لها من بناتها ، يقومون بكل ما تأمرهم به بنفس راضية ، من غير التجاء إلى تهديد أو وعيد ، أو عقاب شديد .

وإن الطلبة الضعاف من معاهد المعلمين والمعلمات الذين يجدون صعوبة مع تلاميذهم يحسنون صنعا إذا سألوا أنفسهم هذا السؤال : « هل هم يصلحون لمهنة التعليم ؟ » وأمثال هؤلاء لن يفيدوا كثيراً في التعليم ، وسيجدون هذه المهنة شاقة أمامهم ، وستكون حياتهم التعليمية مملوءة بالصعوبات ؛ فالصحة والقوة الجسمية ، والمواهب العقلية ، والصوت المؤثر ، والنظرة القوية التي تخترق شفاف القلوب ، والثقة بالنفس ، والصبر - كل هذه صفات تقوى شخصية المدرس ، وتساعد في النجاح في عمله . أما هؤلاء الذين لم يسعدهم الحظ ، فلم توهب لهم هذه الخلال ، فيمكنهم أن ينجحوا في عملهم إذا كانت لديهم إرادة قوية ، أو عزيمة ثابتة تعمل لتكميل هذا النقص الطبيعي ، بالعناية التامة بالدروس وإعدادها ، والتفكير فيها ، والاستفادة من تجارب المربين في التربية والتعليم .

وعلى المدرس أن يكون قادراً على ضبط نفسه ، وكمثال شعوره ، حذراً في عقابه وتهديداته ؛ فلا يصرح بكل ما في نفسه . وكثيراً ما يحدث أن المدرس المبتدئ الذي يفكر في حفظ النظام يضطر إلى استعمال أقصى حد من أنواع العقوبة المعروفة ، ثم يقف ولا يدري ما ذا يفعل . وهنا يظهر غضبه ، ولا يضبط نفسه . وقد يلجأ إلى تهديدات لا يستطيع تنفيذها ، أو إلى حكم آخر هو ناظر المدرسة ؛ ليتدخل في الأمر . ولو كان المدرس حكيماً ما اضطر إلى كل هذا ، ولحافظ على نفوذه ومركزه بين التلاميذ .

ولست شخصية المدرس وحدها كافية لنجاحه في عمله أو تدريسه ؛ بل لا بد له .

من أن يجمع إلى شخصيته أن يعرف مادته جيدا ، وأن يكون واسع الاطلاع والتدقيق في البحث ، ويأخذ نفسه بالتهذيب والثقيف ؛ حتى يصبح خير قدوة لتلاميذه .

قال عمرو بن عتبة لمعلم ولده : ليكن أول صلاحك لوُلدى إصلاحك لنفسك ؛ فإن عيونهم معقودة بك ؛ فالحسن عندهم ما صنعت ، والقبیح ما تركت .
فشخصية المدرس ذخيرة كبيرة في إرشاد تلاميذه إلى ما فيه خيرهم وسعادتهم ، رغم اختلاف ميولهم وأهوائهم ، وتناقض نزعاتهم ومشاربهم .

وعلى المدرس أن يشارك الأطفال في وجدانهم وشعورهم ، ويظهر لهم رغبته الحقة في إفادتهم ونفعهم . وإذا اضطر إلى الشدة يجب أن تكون شدة في غير عنف . وإذا اضطر إلى اللين يجب أن يكون في غير ضعف ، حتى يصل إلى أحسن النتائج في التعليم . قال معاوية بن أبي سفيان : « لو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت » . قيل له : « وكيف ذلك ؟ » قال : « كنت إذا شدوها أرخيتها ، وإذا أرخوها شدتها » .

وإذا لم يحسن المدرس الإلقاء فمن الممكن أن يهذب صوته ، ويحسن إلقاءه بالإيقاع ، والتمرن على تنويع الصوت في السرعة أو البطء ، وفي رفعه أو خفضه على حسب ما تقتضيه الحال ؛ حتى يحسن الإلقاء ، ويكون نطقه واضحا ، وتكون لديه قدرة كبيرة على التأثير في الأطفال . ولقد وهب الله لبعض المدرسين هذه الموهبة ، فاستفادوا منها في مهنتهم ، ونجحوا نجاحا كبيرا في عملهم .

وكما تكون الشخصية فطرية تكون مكتسبة بالدربة والمرانة والتربية الحقة ، ولكن الفطرية أقوى من المكتسبة . ولو كانت الشخصية هبة طبيعية فحسب ، لكننا ضحايا الظروف ، وما كان للتربية أي أثر في تكوين العظماء من رجال الدين .

والعلم والأدب ، ولكن أثرها لا ينكر في تكوين الشخصية والعظمة في نفوس العظماء . وهنا نسأل : هل قامت التربية وقام المربون حقاً بواجبهم نحو تربية الشخصية ؟ هل قاموا بواجبهم وقد أصبحنا نفكر فيما فكر فيه غيرنا ، ونتكلم بما قاله سوانا . ونفعل مثل من سبقنا ؟ إننا أصبحنا محاكين في أفكارنا وأقوالنا وأفعالنا ، مهملين أنفسنا وشخصياتنا ؛ لأن التربية تربية اتكالية ، لا تعرف معنى الثقة بالنفس ، والاعتماد على النفس في التفكير والقول والعمل . وقد نادى كبار المربين وبخاصة « السير برنسي نُن »^(١) « المربي الإنكليزي الكبير بأن « الغرض من التربية هو تربية الشخصية المستقلة » . وكتب التربية في واد ، والمدارس في واد آخر ؛ فبينما نقول : يجب أن يربي الفرد تربية كاملة من كل الوجوه جسمياً وعقلياً ، وخلقياً واجتماعياً ، نجد أن الفرد مهمل إهمالاً تاماً من جميع الوجوه ، وأن شخصيته تطبع بالطابع المدرسي ، وتصب في قالب خاص ؛ فتفقد مظاهرها الطبيعية ؛ كل ذلك حباً للنظام . ولسنا ننكر أن النظام يجب أن يكون سائداً ؛ بل إننا ننادى بالنظام ، ونقول دائماً : النظام هو الحياة ، ولكننا نعترض على الطريقة التي بها يسود ذلك النظام ؛ تلك الطريقة التي تقتل شخصية الطفل ، وتضعف مواهبه ، ونطالب بطريقة أخرى بها يستتب النظام ، من غير إضرار بعقلية الطفل أو وجدانه أو إرادته ، أو جسمه أو شخصيته^(٢) . وليست هذه الطريقة بسيطة ؛ لأنها تتطلب مشاركة في الوجدان ، وفهماً لآكل فرد من جهة الذكاء والميول والبيئة والأحوال . . . وما ذلك بالأمر الهين ؛ فنحن لا نفكر إلا في المظاهر ، والنظام الشكلي ، والسكون العسكري ، مهما ضحينا في سبيل هذه الأشياء من الضحايا . وإذا تحققت الثقة بين المعلم والمتعلم

(١) ارجع إلى : Education Its Data & First Principles, by Sir. T. Percy Nunn.

(٢) ارجع إلى كتاب « الشخصية » للمؤلف .

ووجدت الصلة الروحية بينهما ، فمن المحال أن تكون هناك صعوبة في نظام أو غيره ، ولن يضحي بشخصية الفرد أو الأفراد بعد .

وتقتضى الشخصية الفعالة نشاطاً ، ومثابرة على أداء الواجب ، وحرصاً على منفعة التلاميذ ، واحتراماً للنظم المدرسية ، وهذا إلى عطف على التلاميذ ، وتشجيع لهم ، وتحريك لبواعث النشاط الذاتى لمحبة العمل ، والإقدام عليه ، مع الحرية المنظمة التى تعينهم على تكوين شخصيتهم ، وتقوية إرادتهم ، وتعويدهم الثقة بأنفسهم ، إلى غير ذلك من الصفات التى تبعث فى الأحداث محبة العمل والدأب فيه بإخلاص وعزم ونزاهة .

وشر ما يبتلى به الأطفال مدرس مضطرب النفس ، سريع الغضب ، مهمل أداء واجبه ؛ فإن أمثال هذا المدرس سرعان ما يوحون إلى التلاميذ بنقائصهم وعيوبهم ، ويبثون فيهم ضعف الهمة ، والكسل ، وخور العزيمة ، والاستهتار ، وما إلى هذا من الصفات التى تجعل من الطفل عضواً أشل فى المجتمع .

على أنه يجب ألا يعزب عن البال أن الشخصية ليست أمراً خاصاً بالمدرس فحسب ؛ بل هى قوة سرية يجب توافرها فى كل فرد من أفراد المجتمع ؛ حتى يضمن لنفسه النجاح فى عمله . فنجاح المحامى يتوقف كثيراً على شخصيته وحكمته ، وحضور بديهيته . ونجاح الطبيب يتوقف على شخصيته ، ومهارته وشعوره نحو المريض . ونجاح أى إنسان يتوقف على شخصيته ، ومقدار إلمامه بمادته ، وخبرته بشئون مهنته وأسرارها . فالشخصية لازمة لكل فرد لزومها للمدرس ؛ حتى يوفق الجميع إلى النجاح فيما يكلفونه من أعمال ، وما يوضع فى أعناقهم من أمانات .

ولكى تكون شخصية المدرس قوية يجب أن يثق بنفسه ويحترمها ، ولا يتذلل لمن هو أكبر منه مقاماً ، ولا يترفع على من كان أقل منه مركزاً ؛ فإن التذلل جبن ،

والتكبر دليل على النقص . كما يجب أن يكون أمينا في عمله ، سهلا في خلقه ، مخلصا في أداء واجبه ، يعرف كيف يعامل الرجال ، وكيف يحترم النساء ، وكيف يكون محبوبا عند الأطفال ، وكيف ينفذ إرادته ، وكيف يثبت على مبدئه ، ويستمر في الطريق الذي يرسمه لنفسه ، ويثق بصحته . ولن ينجح المدرس إذا كان ضعيف الشخصية ، مترددا ، ضعيف الإرادة ، مهملاً عمله ، لا يفكر إلا في أكبر راتب وأقل عمل .

ولكي تكون شخصية المدرس كاملة يجب أن يكون معتدل الجسم ، قوى الصحة ، سليم الحواس ، قادرا على حسن التعبير ، كريم الخلق ، أبنى النفس ، أمينا في عمله ، محبا للنظام ، حسن المعاملة ، ضابطا لشعوره ، حازما في رأيه ، قويا في إرادته ، متينا في مادته ، عالما بنفسية تلاميذه وميولهم وغرائزهم ، يستطيع أن ينظم عمله ، ويعدده جيدا ، ويرتبه ترتيبا منطقيا ، ويفكر في الأطفال ومستقبلهم ، ويعمل للسير بهم إلى الأمام ؛ كي يظهر أثره فيهم من يوم إلى آخر . يجب أن يكون محبا للبحث والاطلاع ، متصلا بالعالم والحياة ، يقدر التبعة الملقاة على عاتقه ، يشعر نحو تلاميذه بما يشعر به نحو بنيه من عطف وشفقة ومحبة .

يجب أن يكون حميد السجايا ، سلس القياد ، لين العريكة ؛ كي يكون خير قدوة للتلاميذ يقتدون به ، ويحذون حذوه ، ويقتفون أثره ؛ فإذا قال فعل ، وإذا وعد وفى ، وإذا أمر حرص على تنفيذ أمره ، يفكر قبل أن يأمر ليسبق عقله لسانه ، ولا يأمر إلا بما فيه المنفعة ، ولا يطلب ما يصعب القيام به ، فإذا أراد أن يعاقب تلميذا لا يعاقبه بكتابة مائة سطر مثلا من موضوع من الموضوعات ؛ كي لا يشعر التلميذ بأن العلم وسيلة للعقاب . ولا يقف موقف المدرس الذي كلف تلاميذه لأمر ما كتابة مائة وخمسين سطرا ، فعارضوا ، فعاقبهم بمائتي سطر ، فأعادوا

المعارضة ، فجعل العقاب ثلاثمائة سطر ؛ فلم يكتبوا شيئاً ، ولم يسألهم عما فعلوا .
ويجب ألا يتفوه بتلك العبارات الجوفاء التي طالما يسمعونها التلاميذ من مدرسيهم مثل
« من فعل منكم كذا طردته من المدرسة ، ولن يرى هنا بعد اليوم . ومن تكلم مع
جاره أُمته » .

فالواجب الملقى على عاتق المدرس كبير ، لا يستطيع القيام به إلا إذا كان قوى
الشخصية ، وأخلص في مهنته ، وأحب عمله ، وحافظ على أوقات تلاميذه ، وكان
محباً للحقيقة ، عادلاً في معاملته . ولا نبالغ إذا قلنا إن مستقبل الطلبة بيد المدرسين .
وبالمدرسين تكون الأمة . ولو قام كل منا بواجبه نحو العلم والتعليم لكانت مصر
اليوم في مستوى أرقى الأمم الأوروبية في كل ناحية من النواحي .

مقتبسات من تقرير عن حالة التعليم الإلزامي

للأستاذ المربي الكبير إسماعيل محمود القباني

عميد معهد التربية للمعلمين

في ٢٦ من يولييه سنة ١٩٤٠ رفع الأستاذ إسماعيل القباني إلى وزارة المعارف تقريراً ثميناً عن حالة هذا النوع من التعليم ، والأسس التي يقوم عليها إصلاحه . وهو يدل على ملاحظة قوية ، وعقلية منظمة ، وغيرة كبيرة ، وحب للإصلاح . وقد وصف كثيراً من عيوب التعليم الإلزامي ، وشرح طرق الإصلاح ، وصوّر لها تصويراً واضحاً . وإننا نعتقد تمام الاعتقاد أن التعليم الإلزامي يتعلق بالأكثرية الساحقة من أبناء مصر ، ويتصل بتسعين في المائة من أبناء الشعب ، وأنه في حاجة حقاً إلى كثير من الإصلاح . وإننا نرجو بكل إخلاص أن يوفقنا الله إلى إصلاح التعليم الإلزامي ، حتى نعلم النشء تعليماً صحيحاً ، يتفق وما ننفقه في سبيل تعميم التعليم ؛ كي نصون ثروة مصر ، وننهض بأبنائها ، ونصل إلى ما ننشده من المثل الأعلى في التعليم .

وكنا نود أن نذكر هنا ذلك التقرير الثمين حرفياً ، ولكن مع الأسف لم تتح لنا الأحوال ذلك ، فاكتملنا ببعضه شاكرين للأستاذ المربي الكبير ذلك المجهود العظيم حيث يقول :

١ - أغراض التعليم الإلزامى :

«إن الفكرة السائدة بين الرأى العام المصرى أن الغرض من التعليم الإلزامى نحو الأمية ، وهذا لا شك أمر جليل ، ولكن لنا أن نتساءل عما إذا كان يصح الاقتصاد عليه فى المرحلة التى بلغناها من مراحل نهضتنا .

إن التمييز بين الغرض والوسيلة هو فى الواقع تمييز مصطنع ؛ لأن كل غرض يمكن عده فى الوقت نفسه وسيلة لتحقيق غرض أبعد منه ، فإذا كان تعليم القراءة والكتابة غرضا يسمى التعليم الإلزامى لتحقيقه ؛ فإن تحقيقه لا يقصد لذاته ، وإنما هو وسيلة لرفع مستوى حياة الأفراد ، وبالتالى حياة الأمة من مختلف نواحيها : الصحية والاجتماعية ، والاقتصادية ، والثقافية . فالغرض النهائى من التعليم الإلزامى هو إذا النهوض بالشعب إلى المستوى الأعلى من الحياة ، وإعداد كل فرد للاضطلاع بنصيبه من العمل فى سبيل النهضة القومية ؛ فإذا كان من غايات هذه النهضة تنمية الشعور الوطنى فى النفوس ، وإشعار كل مصرى بالكرامة القومية ، كان على التعليم الإلزامى أن يساعد على تحقيق ذلك . وإذا كان من غاياتها توطيد النظم النيابية (الديمقراطية) فى البلاد كان عليه أن يعد أفراد الشعب لفهم ما لهم من الحقوق ، وما عليهم من الواجبات فى حياة الأمة السياسية والاجتماعية ، وأن يعمل لتتوיר أذهانهم ، وصقل تفكيرهم إلى الحد الذى يمكنهم فى المستقبل من حسن استعمال تلك الحقوق ، وتأدية تلك الواجبات . وإذا كان من أغراضها تقوية أجسام المصريين ، ومحاربة الأمراض المستوطنة التى تفتك بهم وتضعف مقدراتهم عن الإنتاج وجب أن يكون التعليم الإلزامى معينا على ذلك .

هذا التعليم بالإجمال أداة قوية للنهضة القومية ، ولولا ذلك ما كان هناك مبرر

لإنفاق (الملايين) من أموال الدولة عليه كل سنة . وإذا كان تعليم القراءة والكتابة وسيلة من الوسائل التي تخدم تلك النهضة ، فهناك خدمات أخرى يستطيع التعليم الإلزامى أن يسديها إليها ، من غير أن يخرج عن نطاقه المشروع ؛ بل لا نغالى إذا قلنا : إنه إذا لم يقدّم بها كان تعليم القراءة والكتابة في حد ذاته قليل الجدوى . . . ولعل الحد الأدنى الذي ينبغي أن نطالب التعليم الإلزامى به من الخدمات هو ما يأتى :

١ — تعليم الأطفال القراءة والكتابة ومبادئ الحساب اللازمة لهم في حياتهم العملية .

٢ — تحسين حالتهم الصحية ، وتقوية أجسامهم . . .

٣ — توسيع مداركهم ، وتنمية قواهم العقلية ، وملكاتهم العملية إلى أقصى حدود استعداداتهم .

٤ — تقوية الشعور الاجتماعى ، وروح التعاون والتضامن في نفوسهم . . .

٥ — غرس الميل إلى القراءة والاطلاع في نفوسهم ؛ كي يستمروا في مزاوتها بعد ترك المدرسة . . .

٦ — تعويدهم بعض العادات الخلقية النافعة ؛ كالآداب في المعاملة ، وضبط النفس ، والصدق ، والصراحة في القول ، والاجتهاد ، والمثابرة ، والإخلاص للصالح العام . . . »

(٢) مبلغ نجاح المكاتب العامة في تحقيق تلك الأغراض :

« إن المكاتب العامة بمحالتها الراهنة لا تحقق من تلك الأغراض شيئاً يستحق الذكر ؛ فحالة الأطفال الصحية في جميع المكاتب التي زرناها يرثى لها ،

والعناية بالنظافة . . . ضعيفة في الغالب . وعقول التلاميذ لا يبدو عند مناقشتهم أنها قد تأثرت بما تلقوه من التعليم . ومعلوماتهم العامة في التاريخ والجغرافية ومبادئ العلوم والتربية الوطنية في حكم العدم . . . أما غرس الميل إلى المطالعة والعادات الخلقية الصالحة في نفوس التلاميذ فإن العناصر التي يمكن أن تؤدي إلى تحقيقه لا تتوافر في المكاتب .

وأما الغرض الأول - وهو تعليم القراءة والكتابة ومبادئ الحساب - فلم أجد بين المكاتب (في المدن) إلا مكتبتين وصل أطفال الفرق النهائية فيهما إلى إحسان القراءة في شيء من الطلاقة في كتب المطالعة المقررة ، مع فهم معنى ما يقرءونه ، وإلى كتابة قطعة إملائية عادية بخط مقبول ، وأغلاط غير كثيرة . . .

وأما الحساب فقلما كُنت أجد في الفرق النهائية فصلا ينجح أكثر من تلميذين أو ثلاثة من تلاميذه في حل مسألة عقلية سهلة . «

(٣) نظام نصف اليوم :

«يستخدم بناء كل مكتب عام لطائفتين من الأطفال ؛ طائفة تتعلم في الصباح من الساعة الثامنة إلى الساعة الحادية عشرة والربع ، وأخرى تتعلم بعد الظهر من الساعة الثانية عشرة والخمسين إلى الساعة الرابعة وخمس دقائق (مواعيد الشتاء) . ويتلقى أطفال كل طائفة أربعة دروس يوميا ، مدة الدرس منها أربعون دقيقة ؛ أي أن الطفل يتعلم ساعتين وثلثي ساعة في اليوم ، وهو وقت لو خصص بأجمعه لتعليم القراءة والكتابة والحساب ومبادئ الدين ما كان زائدا على ما يجب الوصول بالأطفال إلى درجة الإتقان اللازمة فيها

فإذا كان لا بد من الاحتفاظ بالتعليم نصف اليوم فعلينا أن نواجه الحقيقة ،

فمنقصر خطة الدراسة على القراءة والكتابة والحساب مع مبادئ الدين ، ونلغى جميع المواد الأخرى اعتمادا على ما قد يحصله الطفل من موضوعاتها في حصص المطالعة أو المحادثة ، ونعدل عن أكثر الأغراض التي أتينا عليها فيما سبق مكتفين بالغرض الأول وهو محو الأمية ؛ فإن هذا - مع ما يصح أن يوجه إليه من اعتراضات خطيرة - خير من الحالة الحاضرة

وبدهى أن الاقتصاد (في نفقات التعليم الإلزامي) مطلوب في كل عام ، بشرط ألا يؤدي إلى تفويت الغرض المقصود منه : وهذا بالضبط ما ترتب على نظام نصف اليوم ؛ فأهم بند للاقتصاد فيه هو الاقتصاد في مرتبات المعلمين ، باستخدام المعلم لتعليم طائفتين من الأطفال بدل طائفة واحدة . ومعنى هذا أنه مطالب بتدريس ثمانية دروس كل يوم ، ولا شك أن هذا إرهاق شديد

وعندى أن المدرس الإلزامي لا يصح أن يطالب بأكثر من ٣٢ أو ٣٥ درسا في الأسبوع .

وهناك ناحية أخرى للموضوع تستحق الكثير من العناية ، وهى أن نظام نصف اليوم من العناصر التى تساعد على المباشرة بين التعليم الإلزامي والتعليم العام ، أى بين تعليم عامة الشعب وتعليم الخاصة . وفى هذه المباشرة خطر على وحدة الأمة ونشوءها الاجتماعى ؛ فليس من مصلحة الأمة أن توجد فيها (أرستقراطية) عقلية تشعر بأنها تعيش فى عالم غير العالم الذى يعيش فيه جماهير الشعب ، وتحاول أن توجه الحياة العامة لها فى اتجاهات لا تدركها تلك الجماهير على حقيقتها ، ولا تستطيع مساهمتها فيها ، وبذلك تنقطع الصلة الروحية بين رأس الأمة المدبر وجسمها المنفذ . وليس مما يقوى وحدة الأمة أن يكون نظام تعليمها بحيث يؤكد الفروق بين الطبقات ، وهو ما يؤدي إليه نظام التعليم الإلزامى الحالى ؛ لأن أبناء الفقراء الذين يتمون الدراسة بالمكاتب العامة يجدون سبل التعليم الرافى مغلقة فى وجوههم ، مهما يكن لهم

من استعدادات وكفايات ممتازة ؛ وذلك بسبب ما بين التعليم الإلزامى والتعليم الابتدائى من هوة سحيقة . وإذا كان التعليم الراقى فى الغالب شرطاً للوصول إلى المراكز الاجتماعية والاقتصادية العالية ، فإنه يترتب على انعدام الصلة بين التعليم الإلزامى والتعليمين : الثانوى والعالى أن يتعذر عملياً على أبناء الطبقة الفقيرة الانتقال إلى مستوى اجتماعى أرقى من مستواهم الأسمى . وهذا فضلاً عما فيه من ظلم اجتماعى ومنافاة لأسس الحياة (الديمقراطية) يحرم الدولة الانتفاع بكثير من الكفايات الممتازة فى أبنائها الذين يقربون فى المكاتب العامة . فالواجب العمل على تقليل المسافة ما أمكن بين تعليم الخاصة وتعليم العامة فى المرحلة الأولى . وأول خطوة فى سبيل هذا التقريب إلغاء نظام نصف اليوم ، وتحويل المكاتب العامة إلى نظام اليوم الكامل»

٤ — مدة التعليم الإلزامى :

« إذا أريد نجاح التعليم الإلزامى لا يجوز أن تقل مدته عن خمس سنوات على نظام اليوم الكامل ويجب أن نجعل من أهدافنا فى المستقبل زيادة المدة إلى ست سنوات — أى من سن السادسة إلى سن الثانية عشرة — والتقريب قدر المستطاع بين مناهج السنين الأربع الأولى منها ومناهج السنين الأربع المقابلة لها من التعليم العام ؛ كى يسهل انتقال الأطفال الذين تظهر عليهم دلائل النبوغ أو التفوق العقلى عند نهاية السنة الرابعة الإلزامية إلى السنة الثالثة الابتدائية على أساس منحهم المجانية»

وإذا سئلت عن المال اللازم لتحقيق كل هذا : هل تسمح به ميزانية الدولة ؟ قلت : لنواجه الحقائق بصراحة ، فإذا لم تكن مواردنا المالية فى الوقت الحاضر

تسمح بالإسراع في تعميم الإلزام وفقا للخطة المرسومة فخير لنا أن نعلم ألفا من الأطفال تعليما منتجا من أن نحشد ألفين في المدارس من غير أن يستفيدوا من ذلك فائدة جديدة .

ومن جهة أخرى تكفي نظرة عامة إلى ميزانية الوزارة لتبين أن النسب عندنا معكوسة ؛ ففي كل أمة من الأمم التي سبقتنا في تعميم التعليم الإلزامي يخصص الشطر الأكبر من ميزانية التعليم للإنفاق عليه ، أما في مصر فإن ما تنفقه الدولة على نحو ثلاثين ألف طالب وطالبة بالتعليمين الثانوي والعالى يكاد يعادل ما تنفقه على تعليم عامة أبناء الشعب ، وعددهم يقرب من مليونين ونصف مليون طفل في سن ^(١) الإلزام .

وليس من المستطاع أن نجد مبررا لهذا التمييز العظيم بين أبناء المصريين ؛ فطلبة التعليمين : الثانوى والعالى ليسوا جميعا من النوابع الذين ينبغى أن تضحي الأمة في سبيل إيصالهم إلى أرقى درجات التعليم ؛ بل الواقع أن معظمهم أوساط أو دون أوساط ، وما من أستاذ في التعليم العالى إلا ويعرف أن نسبة الذين يستفيدون من هذا التعليم فائدة حقة بين طلبته نسبة صغيرة . والأمة ليست في حاجة ماسة إلى استخدام كل من تخرجه الجامعة والمدارس العليا في أعمال تحتاج إلى ما تعلموه ؛ حتى يتعين عليها

(١) اعتمادات فروع التعليم المختلفة للسنة المالية ١٩٣٩ - ١٩٤٠ هي كما يأتى :

التعليم العالى (بما في ذلك إعانة الجامعة)	٣٦٤٢٠٦ جنيهه
المدارس الثانوية للبنين	» ٧٢٤٩٧٥
» الابتدائية »	» ٦٢١٨٤٩
مدارس البنات غير الأولية ورياض الأطفال	» ٣٦٢٩٠١
معاهد التعليم الفنى	» ٥٣٥٥٧٩
التعليم الأولى	» ١٥٥٦٨٤٠

أن تتحمل نفقات تعليمهم . لماذا إذن نستمر في إنفاق زهاء مليون ونصف مليون من الجنيهات كل سنة (وهى ميزانية المعلمين الثانوى والعالى للبنين والبنات) فى سبيل تخريج نحو ألفين من طلبة الجامعة والمدارس العالية ، فى حين أننا لا نجد ما يكفى لتعليم جميع أبناء الشعب وبناته تعليم الكفاف .

كل ما فى الأمر أن آباء الفئة الأولى لديهم من الثروة ما يمكنهم من دفع جزء يسير من نفقات تعليم أبنائهم ذلك التعليم العالى ؛ فكأننا نبذل العطاء لمن معه ، ونحرم من ليس معه . أليس هذا تخليدا لنظام الطبقات فى الأمة ؟ إننا لا نستطيع أن نستمر فى ذلك ونزعم فى الوقت نفسه أننا نعرف أبسط مبادئ العدل الاجتماعى . ولقد آن لوزارة المعارف أن تضع لها سياسة واسعة الأفق ، قائمة على أسس اجتماعية سليمة ، وأن تشرع فى تنفيذها بدون تأخير . وأول الأسس التى تقوم عليها هذه السياسة هو الاتجاه إلى تقييد التعليم الثانوى والعالى ، وإعطاء الأولوية فى ميزانية الوزارة للتعليم الأولى . »

٥ - المناهج وأساليب التعليم :

« إذ انظرنا للمناهج نظرة عامة نجدها فى مجموعها وافية بحاجات التعليم الإلزامى ، كفيلة - إذا أحسن تعليمها - بتحقيق أغراضه ، إلا فى ناحية واحدة تنقصها وهى الناحية العملية . فالواجب إدخال بعض الأشغال اليدوية ؛ كأشغال الورق والصلصال والخشب والقش والسجاد والجلد والفخار ، وما شابه ذلك فى مكاتب المدن ، على حسب حاجة الإقليم وأحواله وإدخال أشغال الحقول السهلة ، وتربية الدواجن ، وصناعة الجبن والزبد مع بعض الأشغال اليدوية السابقة فى مكاتب القرى ؛ ففائدة هذه الأعمال لا تقدر ؛ إذ فيها تمرين للتلاميذ على حسن استعمال أيديهم ، وتربية

لحواسهم ، وتقوية لملاحظتهم ، وتدريب ملائم لتفكيرهم ، فضلا عن أنها تولد في نفوسهم الميل إلى العمل اليدوى ، وتعودهم احترامه . »

٦ — الكتب والأدوات :

«إن التعليم الإلزامى يكاد يكون تعالما بغير كتب ؛ فلا يستعمل التلاميذ بكل فرقة إلا كتابا للمطالعة وكتابا للحساب — ما عدا الفرقة الثالثة التى لها أيضا كتاب لمبادئ العلوم . وهذه الكتب توزع على التلاميذ فى أول الدرس لتجمع منهم فى آخره ؛ فلا يجد التلميذ إذن فى متناوله كتابا يستطيع الرجوع إليه فى منزله . »

٧ — مواظبة التلاميذ :

« فى مكاتب المدن غياب قليل ، وتأخر كثير ، أما فى مكاتب القرى فنسبة الغياب عادة كبيرة ، وهى تزيد فى مكاتب بعض مجالس المديرىات على ٢٠٪ من عدد التلاميذ فى المتوسط ، وتزيد فى كثير من المكاتب على ٤٠٪ ؛ بل إنها قد بلغت فى بعض مكاتب مجالس مديريةية الغربية والجزيرة فى سنة ١٩٣٨ — ٣٩ ٦٦٪ ، ٦٥٪ على التوالى . »

٨ — الفروق الفردية بين الأطفال :

« من المعروف أن بين الأطفال فروقا هامة فى الاستعداد العقلى ، وفى الصفات الخلقية ، والحالة الجسمية ، والبيئة المنزلية . ولهذه الفروق أثرها فى تحصيل

[١٤ — التربية والحياة]

الأطفال ؛ بحيث لا يكاد ينقضى على دخولهم المدرسة بضعة شهور حتى يظهر الاختلاف فى القوة بينهم واضحا ، وينعدم التجانس بينهم فى الفصل . وإذا نقل هؤلاء الأطفال إلى فرقة عالية مع ما هم عليه من اختلاف القوى زادت الفروق بينهم وضوحا على ممر الزمن ؛ حتى يصبح من المتعذر الجمع بينهم فى التدريس »

٩ — صحة الأطفال :

« لست فى حاجة إلى الإفاضة فى الكلام عن الحالة الصحية بالمكاتب العامة ، وقد تنبهت الوزارة إلى خطرها ، وعينت كل العناية بالعمل على تحسينها . وقد أعد مشروع قيم لإنشاء وحدات علاجية لمعالجة أطفال تلك المكاتب ، ومشروع آخر لتقديم شئ من الغذاء الصحى لهم ، أو المحتاجين منهم . ولعل الظروف تسمح بتنفيذ هذين المشروعين الجليلين . »

١٠ — المعلمون

« كلما تعمق الإنسان فى دراسة مشكلات التعليم الإلزامى ازداد اقتناعا بأن المعلم هو حجر الزاوية فى إصلاحه فهو الذى يضطلع فى النهاية بتحقيق الأغراض التى حددناها لهذا التعليم . ولا أغلى إذا قلت : إن تنفيذ جميع الاقتراحات التى وردت فى هذا التقرير لا يثمر ثمرة ذات بال إلا إذا ارتفع مستوى المعلم ، ونما فيه الشعور بالواجب ، وروح الإخلاص لعمله ؛ ولذا كان أهم ما يجب أن تعنى به وزارة المعارف فى الوقت الحاضر السعى لتحقيق ذلك . »

هذه خلاصة موجزة لما جاء بتقرير الأستاذ المربي الكبير إسماعيل محمود القباني عميد معهد التربية للمعلمين ، ويبلغ ٢٨ صفحة من الصفحات الكبيرة . ولتكون

الفائدة عامة نرجو أن تتاح الفرصة لطبعه وتوزيعه على كل من له صلة بالتعليم الإلزامي من مفتشى المناطق ، ومفتشى الدوائر ، ورؤساء المكاتب والمعلمين ، كما نرجو أن يأتى اليوم الذى نصلح فيه ذلك النوع من التعليم ونعممه ؛ بحيث ينال كل فرد من أبناء الأمة أكبر قسط ممكن من التعليم الحق ، والتربية النافعة ؛ حتى نصل إلى ما تنشده الأمة من السكّال المستطاع فى عهد صاحب الجلالة الملك الصانع فاروق الأول (حفظه الله) .

آراء للمستترمان عن التعليم الأولى سنة ١٩٢٩

(١) « إن عدد المحال بالمدارس الأولية لا يزال غير واف على الإطلاق بحاجات الأمة .

(٢) إن عدد المحال المخصصة لتعليم البنات والفتيات ضئيل جداً بالنسبة إلى ما هو مخصص لتعليم الصبيان والفتيات .

(٣) إن عدد المحال المخصصة للتعليم الثانوى يعد كبيراً جداً إذا قيس بعدد المحال في المدارس الأولية . ولإجراء هذه الموازنة على الوجه الصحيح يجب حسابان محال المدارس الابتدائية مع محال المدارس الثانوية ؛ إذ أن المدرسة الابتدائية إنما هي في الواقع مدرسة تحضيرية للتعليم الثانوى ، فإذا ضممنا هذين النوعين بعضهما إلى بعض تبين لنا أن نسبة محال التعليم الثانوى إلى محال التعليم الأولى في مصر هي ١ : ٥ تقريباً ، في حين أنها في إنجلترا ١ : ٢٥ تقريباً ، ولهذا لا يسعنا إلا أن نستنبط أن بناء التعليم الحالى في مصر متضخم القمة ؛ أى أن الجزء العلوى منه قد أفرط في توسيعه إفراطاً أدى إلى إغفال توسيع الجزء السفلى الذى هو عبارة عن التعليم القومى الضرورى لعامة الشعب .

(٤) وإن كل جنيه ينفق على التعليم العالى في إنجلترا يقابله أربعة جنيهات تنفق على التعليم الأولى . أما في مصر فإن كل جنيه ينفق على التعليم الأولى يقابله جنيهان تقريباً ينفقان على التعليم العالى .

(٥) إنه إذا لم يتم إعداد وسائل التعليم الأولى بطريقة وافية تمكن كل صبي وبنت من الرق ؛ فإن مصر ستظل من حيث التعليم متأخرة تأخرا كبيرا عن صفوف الدول العصرية . وإنى أعرب عن أملى بأن تكال الجهود الشديدة التى تبذل الآن فى مداواة هذه الحالة بالنجاح التام فى القريب العاجل .

(٦) إن المال الذى يصرف بغير ضرورة فى ترويج أنواع التعليم الراقى يمكن تحويله إلى الميادين الأخرى للتعليم العام ؛ تلك الميادين التى لا تزال الحاجة ماسة إلى توسيع نطاقها كالتعليم الأولى .

على أنه يمكن أن يقال : إن التعليم الأولى - وبخاصة ما كان منه متعلقا بالبنات والأطفال - يظهر فى الوقت الحاضر أنه أحق من غيره بأن يستوفى حاجته من مجموع المال الذى يقرر فى كل سنة للإنفاق على ضروب التعليم فى مصر . وبلى هذا التعليم فى ترتيب الأحقية التعليم العملى والفنى .

(٧) إن مصر لم تنفق على التعليم الأولى فى سنة ١٩٢٤ - ١٩٢٥ سوى ما يقرب من خمس ميزانية التعليم العامة وليس من الضروري أن نعيد هنا الإحصاءات المبينة لدرجة انتشار الأمية فى القطر ، وتفشى الأمراض التى يمكن بالتحقيق انقضاء ضرر الكثير منها ، كما أن من المسلم به أن فلاح مصر وتقدمها يتوقفان على الأخص على وجود طبقة كبيرة جدا من الزراع ذوى الجد والقناعة والفطنة فإذا وضع نظام محكم للتعليم الأولى العام فإن ذلك النظام قد يساعد كثيرا فى زيادة الإنتاج ؛ وذلك بأنه يقلل من جهة ما ينتاب الأيدى العاملة من الضعف بسبب المرض ، ومن جهة أخرى فإنه يغرس عادات التبصر والابتكار فى الفلاحين المصريين الذين يعترف بجدهم وحذقهم فى الفلاحة ، ولو أنهم يسرون فيها على الطرائق العتيقة الموروثة من قديم الزمن . ومما تجب ملاحظته أن كتاب الإحصاء السنوى لسنة ١٩٢٦ - ١٩٢٧

قد ورد فيه : أن في مصر ما يربى على مليونى مالك يدفعون ضريبة الأرض ، منهم نحو : ٥٣٣ ١٣٩١ مالك لا يملك الواحد منهم سوى فدان أو أقل ، و ٥٣١ ٣٢٤ مالك يملك الواحد منهم من فدان إلى خمسة فقط .

(٨) إن الخطة المتبعة الآن في توجيه المهمة إلى زيادة مدارس التعليم الأولى يجب السير فيها سيرا حثيثا من غير ما تراخ أو توان ، كما أنه يجب بذل جهود خاصة في سبيل سد النقص الظاهر الآن في وسائل التعليم الأولى للبنات .

(٩) إن تعميم نظام نصف اليوم في التعليم قد يعترض عليه بأنه ينقل إلى المدن نظاما وضع خاصة لسد حاجات الريف . وليس هناك مجال للشك في أن الأفضل بوجه الإجمال لأطفال المناطق المدنية المحضة كالقاهرة والإسكندرية أن يشتغلوا في المدرسة في الصباح وبعد الظهر ، بدلا من أن يتجولوا في الشوارع وغنى عن البيان أن مقرر الدراسة الأولية يمكن إتمامه كله باتباع النظام اليومي الكامل في مدة أقصر من المدة التي يتطلبها نظام نصف اليوم .

(١٠) ليس من المعقول أن يعهد في تعليم فرق من الأطفال في السادسة والسابعة من عمرهم أو أقل إلى معلمين في طور السكولة بل الشيخوخة ، خالى الدهن من أية فكرة عن الطرق الحديثة المتبعة في تعليم صغار الأطفال ، ولا يتوافر فيهم من النشاط والاهتمام ما يمكنهم من استعمال هذه الطرق إذا عرفوها ولهذا يجب اتخاذ جميع التدابير الممكنة لزيادة عدد المعلمات المدربات تدريبا متقنا على تعليم الأطفال ، وأن يعهد في نهاية الأمر إلى هؤلاء المعلمات في تعليم جميع الأطفال حتى السنة الثامنة من عمرهم .

(١١) إنه بالنظر إلى ظروف الحياة المصرية الحاضرة يجب أن يكون الغرض من التعليم الأولى بسيطا ومحسورا في أمرين :

أولهما : تزويد الطفل بالقدر المعقول من الحساب واللغة العربية ، القدر الذى يرجح أنه سيحتاج إليه فيما بعد عند سعيه فى كسب العيش .

وثانيهما : تدريبه على العادات وآداب السلوك التى تمكنه من أن يعيش عيشة صحية سعيدة وقد قلت إن المدرسة الأولية المصرية يمكن عدها من أعظم الوسائل شأنا فى تحسين الصحة العامة ، ولكنها لا تؤدي هذه الوظيفة فى الوقت الحاضر تأدية وافية بالغرض المقصود ؛ إذ أنها فى الغالب لا تحاول غرس العادات الصحية ؛ بل تكتفى بأن تحمل تلاميذها على استظهار القواعد الكلامية . ولهذا يستحسن كل الاستحسان أن توجد فى كل مدرسة معدات أولية صحية وأن يوجد أيضا فى كل مدرسة حجرة للإسعافات الأولية ؛ لكي يتيسر للمعلمين إسعاف التلاميذ الذين يصابون فى خلال أوقات الدراسة بالتهاب خفيف فى العين ، أو جروح ، أو رضوض ، أو أى مرض من الأمراض الخفيفة . ويجب على المعلمين أن يستعينوا بالتلاميذ الكبار على إجراء هذا الإسعاف ؛ لكي يتسنى تزويدهم بالتعليم العملى المستمر فى تدبير الصحة ؛ إذ أن هذا التدريب العملى سيكون فى نهاية الأمر أنجع أثرا فى تقويم العادات الاجتماعية من التعليم النظرى المحض مهما يكن مقداره .

(١٢) من السهل التدليل على أن البنت المصرية العادية فى الظروف الحاضرة أشد احتياجا إلى تعلم فن إدارة المنزل وتربية الأطفال ومن الواضح أن التعليم الأولى للبنات يجب أن يرمى أولاً وقبل كل شئ إلى إعدادهن لأن يكن فى نهاية الأمر زوجات وأمهات صالحات . ولهذا ينبغى أن تجهز كل مدرسة للبنات بمقدار كاف من المعدات اللازمة لتعليم الغسل والسكى والطبخ ورعاية الأطفال وتدبير الصحة ، وغير ذلك من فروع الإدارة المنزلية . ولا ريب أن تحقيق الغرض المشار إليه آنفا يقتضى إيجاد مبان وأجهزة وأدوات خاصة ؛ إذ أن مواد التدبير المنزلى لا تتيسر دراستها دراسة نافعة إلا بالمرانة عليها تحت إشراف معلمات ماهرات .

غير أنه من الضروري أن يستقر في الأذهان أن هذه المباني وهذه المعدات يجب ألا تكون مطابقة تمام المطابقة للنسق الأوروبي ؛ بل بالعكس يجب أن تكون مرتبطة ارتباطا وثيقا بما هو متبع عادة في بيوت العمال المصريين . ويجب أن يكون الغرض من تعليم المواد المذكورة ترقية الشئون المنزلية المألوفة في مصر ، وتطهيرها مما يشوبها من العادات غير المحموده ، لا إبدالها بالشئون المنزلية المألوفة في قطر آخر

ومن الممكن وضع نظام لتشغيل التلميذات في أعمال التنظيف والطبخ والتنفيض اللازمة للعلامات وسكنهن يجب أن يكون من ضمن المقرر تكليف التلميذات الكبيرات أعمالا تختص برعاية الطفلات الصغيرات في المدرسة ، وتوفير أسباب الهناء لهن .

(١٣) لا يرجح أن تنجح أية محاولة لتحسين المدارس الأولية المذكورة إلا إذا كانت مؤسسة على تحسين حالة القائمين بأمر التدريس فيها إن أقصى مرتبة يتقاضاه رئيس المدرسة الأولية يقل على ما يظهر عما يدفع لخادم منزل حسن . وليس لموظفي التعليم الأولى لأئحة معاشات ، ولو كان هذان الأمران في إنجلترا لتعذر بتاتا الحصول على معلمين ومعلمات لمدارسها الأولية بطريقة مرضية .

(١٤) يجب في إعداد الفتيات لمهنة التعليم إيجاد فارق بين تدريب الطالبات اللاتي سيوكل إليهن تعليم الأطفال ، وتدريب الطالبات اللاتي يردن الاشتغال بتعليم التلميذات الكبيرات . ويجب أن يكون هذا التمييز كبيرا من حيث طرق التدريس التي يتلقاها كل من الفريقين » .

هذا ما ذكره (المسترمان) في تقريره الثمين في سنة ١٩٢٩ ، وهو تقرير يدل على نقد برىء ، وملاحظة قوية ، وصراحة في القول .

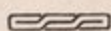
كلمة الختـــام

وبعد ؛ فارجو أن يأتي اليوم الذي يعم فيه التعليم بمصر ، وتصير نسبة المتعلمين مائة في المائة ، لا لنحافظ على حاضرنا ؛ بل لنعيد ماضينا ، ماضى المصريين القدماء ، والحضارة المصرية القديمة ، ونهض بمستقبلنا . والله در المرحوم شوق بك حيث قال في قصيدة له :

هل علمتم أمة في جهلها	ظهرت في المجد حسناء الرداء ؟
باطن الأمة من ظاهرها	إنما السائل من لون الإناء
نخذوا العلم على أعلامه	واطلبوا الحكمة عند الحكماء
واقروا تاريخكم واحتفظوا	بفصيح جاءكم من فصحاء
واحكموا الدنيا بسلطان فما	خلقت نصرتها للضعفاء
واطلبوا المجد على الأرض فإن	هي ضاقت فاطلبوه في السماء

وإن كلمتي الأخيرة التي بها أرفع الصوت عاليا أن التعليم هو الوسيلة الوحيدة لرقى الأمة ، فعلموا الأمة جميعها ، فقيزها وغنيها ، والتقطوا الأذكياء من فقرائها ، وعلموهم التعليم الابتدائي ، ثم الثانوي ، ثم الجامعي - ولو بالدين على أنفسهم - حتى تنبأ مصر مكانها اللائق بها تحت الشمس . علموا الأمة . علموا الأمة . علموا الأمة . نسأل الله الهداية والتوفيق .

فهرس الموضوعات



نحن وتعميم التعليم

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٥	الغرض من التعليم الشعبي .	٧	الغرض من التعليم الإلزامى .
٦	الغرض من مدرسة الشعب .	١١	واجبنا نحو تعميم التعليم .

التربية والحياة

١٤	التربية والحياة .	١٩	التربية واجبة .
١٧	تعليم الشعب خير وسيلة لترقيته .	٢١	كلمات في العلم والتعليم .

التربية وأثرها في الفرد والمجتمع

٢٤	التربية أساس النجاح .	٢٧	في الولايات المتحدة بأمريكا .
٢٤	أسكوولندة وتعميم التعليم .	٢٩	التعليم أول الواجبات .
٢٥	تعميم التعليم في إنجلترا .	٣٠	قصر الآباء على تعليم الأبناء .
٢٦	في روسيا قديما .	٣١	أحسن أمة في تعميم التعليم .

علموا الأمة

٣٣	علموا الأمة .	٣٥	(توماس جيفرسون) وتعليم الشعب .
٣٤	(جورج واشنطن) وتعليم الشعب .	٣٦	بالعلم ترقى الأمة .

العظماء من أبناء الفقراء

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٣٧	أبو نصر الفارابي .	٤٥	(أبراهام لنكولن) .
٣٨	هليل العبري .	٤٧	(رمزي مكدونالد) .
٣٩	(الدكتور صمويل چونسون) .	٤٩	(اللورد بركنهد) .
٤١	(اللورد ماكولى) .	٥٠	(المستر هربرت هوثر) .
٤٢	(شارلز دكنز) .		

التعليم حق توجبه الإنسانية

٥١	(يستالوتزى) أب لمدرسة الشعب .	٦٦	العناية بالطفل فى إنجلترا .
٥٢	مثل لتعميم التعليم بالولايات المتحدة .	٦٨	العناية بالشؤون الصحية فى المدرسة
٥٤	تسهيل سبل التعليم بالولايات المتحدة .		الإنكليزية .
٥٤	مدارس الشعب بأمرىكا .	٦٩	تعميم التعليم فى فرنسا .
٥٧	التعليم عام فى إنجلترا .	٧١	اليوم المدرسى فى المدرسة الابتدائية
٦٠	قوانين الذهاب إلى المدرسة الإنكليزية .		الفرنسية .
٦١	تيسير سبل التعليم بإنجلترا .	٧١	النهج الدراسى الابتدائى بفرنسا .
٦٢	مدارس الشعب بإنجلترا .	٧٢	المباني المدرسية بفرنسا .
٦٣	المباني المدرسية والملاعب بإنجلترا .	٧٢	تعميم التعليم فى سويسرة .
٦٤	منهج المدرسة الأولية بإنجلترا .	٧٣	المدارس الابتدائية بسويسرة .

حاجة مصر إلى تعميم التعليم

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٧٤	حاجة مصر إلى تعميم التعليم .	٧٩	موازنة في الحرية العامة .
٧٦	التعليم واجب مقدس .	٨٣	واجب المدرس نحو التعليم .
٧٨	التعاون والعلم أساس الحضارة	٨٦	الآباء والتعليم .
	والاستقلال للدكتور طه حسين بك .	٨٧	نصيحة للآباء .

الحاجة إلى جماعات لنشر التعليم

٨٩	الحاجة إلى جماعات لنشر التعليم .	٩٣	المواظبة وكيف نصل إليها .
٩٠	إجبار الآباء على تعليم الأبناء .	٩٥	كل أمر في أوله صعب .
٩١	روح التعاون في سبيل نشر التعليم .	٩٦	نشر التعليم الصناعي .
٩٢	التعليم بالمجان .		

ماذا نفعل وقد كثرت المتعطلون من المتعلمين؟

٩٨	ماذا نفعل وقد كثرت المتعطلون من المتعلمين؟	١٠٣	هل هناك خطر من التوسع في التعليم العام؟ للدكتور طه حسين بك .
----	--	-----	--

تعليم البنات

١١٢	تعليم البنات .	١١٥	أثر التعليم في المرأة .
١١٤	(المستر مان) وتعليم البنات .	١١٦	الأم مدرسة إذا هذبها .

الفقراء والتعليم العالي

١١٧	الفقراء والتعليم العالي .	١٢٠	اختيار الأذكياء من الفقراء .
-----	---------------------------	-----	------------------------------

الديمقراطية والتعليم الأولي

لحضرة صاحب العزة عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين بك

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
١٢٦	الديمقراطية والتعليم الأولي .	١٣٨	المدارس الأولية .
١٢٨	الدولة الديمقراطية ملزمة أن تنشر	١٤٠	مرحلة التعليم الأولي لا تكفي .
	التعليم الأولي .	١٤٤	خطر التعليم الأولي وأهميته .
١٣٢	وجوب العناية بإعداد المعلم الأولي .		

التعليم الإلزامي بمصر

عيوبه وطرق إصلاحه

١٤٧	بحث حال التعليم الإلزامي في مصر	١٥٤	ترك المكاتب بغير أدوات مدة
	سنة ١٩٣٤ .		طويلة .
١٤٨	العيوب العامة للتعليم الإلزامي :	١٥٥	ملاحظات هامة حول التعليم
	نظام نصف اليوم .		الإلزامي .
١٤٩	نقل التلاميذ كل ستة أشهر	١٥٦	نتيجة اختبار التلاميذ في اللغة
	بطريقة آلية .		العربية .
١٥٠	قلة مدة الدراسة .	١٥٧	طرق إصلاح التعليم الإلزامي :
	إرهاق المعلمين بكثرة الحصص .	١٥٧	جعل التعليم يوما كاملا .
١٥١	عدم وجود كتب تحدد المناهج .	١٥٧	تشجيع المحسن والمخلص من
	كثرة الغياب وقلة المواظبة .		المعلمين .
١٥٢	تكوين المعلم الإلزامي .	١٥٧	تحسين مستوى المعلمين علميا
			وتربويا .

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
١٥٨	الاستعانة برجال الإدارة على تنفيذ قانون التعليم الإلزامى .	١٦٠	تغذية التلاميذ في جميع جهات القطر المصرى .
١٥٨	تحريم استخدام الأطفال في سن الطفولة .	١٦٠	أجوبة عن الاعتراضات التي يعترض بها على نظام اليوم الكامل .
١٥٨	نقل التلاميذ إذا نجحوا في الامتحان .	١٦٢	مباني التعليم الإلزامى .
١٥٨	وضع كتب ملائمة لتلك المدارس .	١٦٤	خطة التعليم الإلزامى ومناهجه .
١٥٨	عدم إرهاق المعلم .	١٦٥	إنصاف المعلم الإلزامى .
١٥٨	الإكثار من المفتشين .	١٦٧	من خطبة لحضرة صاحب المعالي الأستاذ الكبير أحمد نجيب الهلالي باشا وزير المعارف .
١٥٩	أن تتولى وزارة المعارف وحدها إدارة التعليم الإلزامى .		

المدرس وأثره في الإصلاح

١٧٠	المدرس وأثره في الإصلاح .	١٧٩	أن يعنى المدرس بالأطفال ودراسة الطفولة .
١٧٥	المثل الأعلى للمدرس .	١٨١	أن يشعر المدرس بالواجب نحو المجتمع .
١٧٥	الصفات التي يجب أن تتوافر في المدرس :	١٨٢	أن يكون المدرس مثلاً للعدالة والكمال .
١٧٥	أن يحب المدرس تلاميذه محبته لأبنائه .	١٨٣	أن يكون المدرس مخلصاً .
١٧٩	أن تكون الصلة حسنة بين المدرس والتلميذ .	١٨٤	أن يتصل بالحياة .

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
١٨٥	أن يستمر في البحث والاطلاع .	١٨٩	أن يعني بالحقائق أكثر من عنايته بالمظاهر .
١٨٦	أن يكون قادراً على التعليم، حكماً في عمله .	١٩٠	أن يفكر فيما بين التلاميذ من فروق .
١٨٨	أن يتشبع بروح المدرسة الحديثة .	١٩٠	أن يخاطب التلميذ بلغة يفهمها .
١٨٨	أن يكون ذا عزيمة ثابتة .	١٩٠	أن يفكر في التربية الخلقية .
١٨٨	أن يكون سليم الجسم .	١٩٠	أن يكون المدرس ذا شخصية قوية .
١٨٨	أن يعود التلاميذ الاعتماد على النفس .		

مقتبسات من تقرير عن حالة التعليم الإلزامي للأستاذ المربي الكبير إسماعيل محمود القباني

٢٠٢	أغراض التعليم الإلزامي .	٢٠٩	الكتب والأدوات .
٢٠٣	مبلغ النجاح في تحقيق تلك الأغراض .	٢٠٩	مواظبة التلاميذ .
٢٠٤	نظام نصف اليوم .	٢٠٩	الفروق الفردية بين الأطفال .
٢٠٦	مدة التعليم الإلزامي .	٢١٠	صحة الأطفال .
٢٠٨	المناهج وأساليب التعليم .	٢١٠	المعلمون .

آراء للمستمرمان

٢١٢	آراء (المستمرمان) عن التعليم الأولى سنة ١٩٢٩ .	٢١٧	كلمة الختام .
		٢١٨	فهرس الموضوعات .

كتب للمؤلف

- | | | |
|----|-----|--------------------------------------|
| ١٢ | (١) | الشخصية . |
| ٢٠ | (٢) | التربية الإنكليزية . |
| ٥٠ | (٣) | روح التربية والتعليم . |
| ٥٠ | (٤) | الإنجازات الحديثة في التربية . |
| ٤٠ | (٥) | التربية والحياة ، أو تعميم التعليم . |
| ١٠ | (٦) | أروع القصص لشارلز دكنز . |
| ١٠ | (٧) | قصص في البطولة والوطنية . |
-
- | | | |
|----|------|--|
| ٢٠ | (٨) | في علم النفس ، ج ١ ، بالاشتراك مع الأستاذين عبد القادر ومظهر |
| ٣٠ | (٩) | » » ج ٢ » » الأستاذ حامد عبد القادر |
| ٣٠ | (١٠) | » » ج ٣ » » » » |
| ٦ | (١١) | خليفة في الخيال ، بالاشتراك مع الأستاذين جوهر وعبد اللطيف |
| ٦ | (١٢) | الحصان المسحور ، » » » » » » |
| ٧ | (١٣) | في سبيل الوطن » » » » » » |
- (١٤) المفصل في اللغة السريانية وآدابها ، طبعة الوزارة .
- (١٥) الأساس في اللغة العبرية وآدابها ، طبعة الوزارة بالاشتراك مع الأستاذين :
المرحوم الدكتور علي العناني والأستاذ ليون محرز .
- (١٦) الدرر (تحت الطبع)
- (١٧) عيون القصص » »



379.2:A16tA:c.2

الأبراشي، محمد عطية

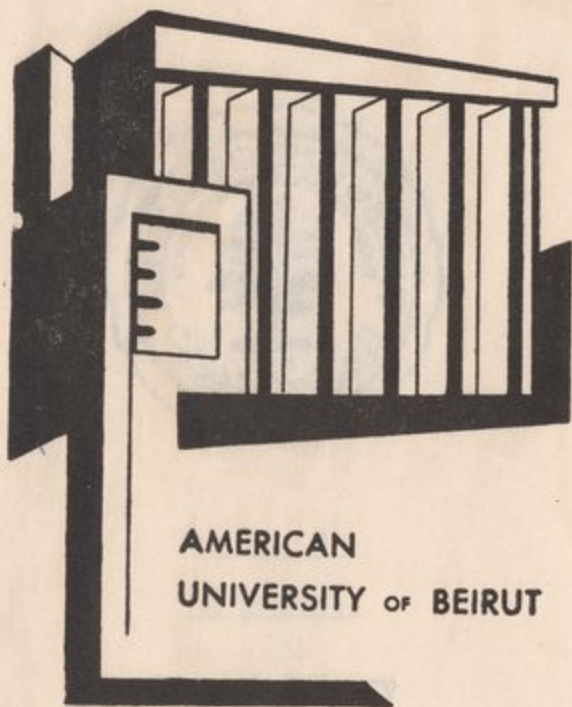
التربية والحياة، أو تعميم التعليم

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01023610

American University of Beirut



AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

